صمت الشوارع ..
وضجيج الذكريات

ابتسام يوسف الطاهر

صمت الشوارع .. وضجيج الذكريات

رواية

ابتسام يوسف الطاهر

الطبعة الأولى ٢٠٠٨

دار اكتب للنشر والتوزيع

دار أدب فن للثقافة والفنون والنشر

المنتدى الثقافي العربي – القاهرة

Dar_oktob@gawab.net
info@adabfan.com
mti_egypt@yahoo.com

لوحة الغلاف للفنان عبد الرحمن الجابري

تصميم الغلاف: يوسف السعدي

مراجعة لغوية : عيد عبد الحليم

الاخراج الفني : شوكت اسكندر

رقم الإيداع: ٢٠٠٧/٢٦٥٠٩

صمت الشوارع..

وضجيج الذكريات

ابتسام يوسف الطاهر

رواية

الطبعة الأولى

٢٠٠٨



وكان أن صرخ العراق
ومن دون اشتعال
ولأن جلاديك أرعبهم دما عينيك
هم من فتحوا قتاماتي
وهم من كسروا سؤالي
وكان أن هزأ الإله بأحزاني
بأحلامي
برايات الرجال
ركضت \ صرخت
بكيت
أشحت وجهي
أن دمعي في الحوادث غالي

طه الطاهر

من دفتر الأيام

ستبدي لك الأيام ماكنت جـــاهلا

ويأتيك بالأخبار من لــــــم تزود

على موطن يخشى الفتى عنده الردى

متى تعترك فيه الفرائص ترعد

طرفة بن العبد

الوجوه يعلوها التعب والغبار، واللهفه للوصول لهدف غير مسمى.

العيون تتطلع في كل الإتجاهات للحاق بالمجهول او لإستكشاف الغد الآتي رغم الخوف منه. الكل خائف، القادم خائف والذاهب خائف. السائق والراكب لهم نفس الخوف، فالسائق قلق من أن يكون الراكب مخادعا أو (إرهابيا)، أو غنيا مرصودا فيتعرض بسببه لعملية نهب، فيقع بفخ نُصب لغيره فيخسر كل ماجناه وكل هدايا الصغار وفرحهم وضحكهم، هذا إذا لم يخسر حياته... الراكب يخاف أن يكون السائق متفقا مع عصابة ما من قطاع الطرق معتقدا أن الراكب، هذا القادم من الخارج لا بد أن يكون غنيا محملاً برزم من الدولارات! فكم من قصة وصلت وحكايات مضحكة ومبكية، عن عمليات السطو والاختطاف والسرقه.. وحكايات عن اللذين في أوربا (يضعون كارت في "الحائط " فتخرج لهم النقود!!) فالحصار والحروب التي أدت إلى إنقطاعهم عن العالم جعلتهم يفكرون وينظرون للأمور بعدسات مكبرة.. لهم الحق وهم يروا بعض الأهل تصلهم مبالغ (طائله) من أبناءهم أو أخوتهم بالخارج، بمقياس مايجنوه من أجور ضئيلة، فيتساءلون من أين لهم ذلك؟

لا يدرون عن معاناة البعض، وما مبالغتهم في إرسال تلك النقود إلا للتخفيف من الإحساس بالتقصير وهم فـــي منأى عن جحيم الحـــروب والحـــصار والأذى اليـــومي هناك...

فيبدو وكأنهم (أصحاب الكهف)! أو بـــالأحرى نحـــن أشبه بأصحاب الكهف، فكلانا يختلف عن الآخر، نحـــن نعود لنجد عالمنا الذي لم يغب عنا لحظة، قد غدرت به الأيام ودمرته وشوهت ملامحه. بينما الغربـــه منحتنـــا فرصة للاحتفاظ بصورته التي نتمنى. لنـــستيقظ علـــى صفعة الواقع فنجده أكثر تخلفا وترديـــا وأكثـــر جهـــلا وحرمانا .. إتشاغل عن قلقي وخوفي، أتأمـــل الوجـــوه وكأني أنتظر أن أحظى بصدفة حلمت بها زمنا، أن التقي صديقا أو قريبا أو زميلا ما! كأن التقيـــه فـــي إحـــدى القطارات: يتطلع لي الجالس أمامي أرى وجها مألوفـــا، فأتجنب النظر اليه خوف سوء الفهم، فيبادرني بالـــسؤال "عفوا كأني التقيتك سابق، ألست فلانة؟" فأفاجأ أنه أحـــد الزملاء، أو إبن جارنا، أو ربما قريب لم التقيه كثيـــرا. ويتكرر ذلك المشهد الحلم في الشارع مرة أو في السوق، فيصير هو الأمل الوحيد في لحظات التوحد. لكن كـــأن الأرض ابتلعتهم جميعا.. واليوم بالغت بالحلم، أن أسافر

مع أحدهم فنقطع الطريق الطويل ونحن نقلب دفتر الأيام والذكريات..

إرتحت كثيرا حين ذكر السائق أن هنـــاك امرأتـــان ستسافران معي، ورجلا جاء من أوروبا..

كيف لي أن اثق بمن أسافر معهم، نقطع الـــصحراء والطريق الطويل. فقد أتعرض لبعض مما ســـمعته مـــن قصص وحوادث للسلب والاغتصاب، لذا ارتحت لفكرة النساء عسى ألا أقع في مطبعات..

ضحكت بمرارة لفكرة أن أعلن عن طريق الإنترنت (مطلوب رفيق للسفر بشروط كذا) فقد صارت الصداقه والحب والعشق وحتى الجنس عن طريق الإنترنت.

حوارات بين مجاميع لا يعرفوا بعضهم البعض، حتى الأسماء، فبعضهم يستخدم أسماء مستعاره ومـــنهم مـــن يستخدم رموز أو أرقام أو حتى مقطع من بيت شعر..الخ

"إنه رائع و طيب ومثقف.. لا تتصوري مدى حنيتـــه ورقته..و.." أتساءل: من هو؟ فتحكي عن صديق تعرفت عليه عن طريق (الإنترنت)، فأسألها بدهشه واستنكار: هل التقيت به؟.. فترد باحتجاج على اســـتنكاري "طبعـــا لا.. لكن بالإمكان الحكم على الشخص عن طريق منطقه

بالكلام". أضحك من تسرعها بالحكم أو من طيبتها اللامتناهيه. ألا يجوز أن يكون الشخص ذاك ينقل بعض من كلامه من كتاب.. أو ربما يكون امرأه (بغلاف رجل) أو رجلا كبيرا يلبس ثوب الشباب كلاما؟ أو..ربما طفلا مراهقا يريد أن يتسلى!

فرح كثيرا حين اشتريت جهاز الكمبيوتر، ثم صار الإلحاح من الجميع حول ضرورة وجود-الإنترنت- "على الأقل نقرأ الصحف كلها.. ببلاش" قال وهو يضم صوته للأولاد.

في البدايه، ماكان يجرؤ على فتح الجهاز، ثم صار في كل خطوه يسأل ما العمل هنا أوهناك. شعرت بسعادة وأنا ألاحظ وجوده في البيت قد طالت ساعاته وهو يتابع الصحف.

ينادي علي كلما اكتشف صفحة جديدة أو بابا جديدا وهو يغور في بحر الإنترنت أو كلما عصت عليه مهمة.

حتى صار الأمر أشبه بالإدمان. كلما أصحو ليلا، لا أجده في فراشه يسهر هناك أمام الشاشه حتى الثانية صباحا او الثالثة... بل أحيانا يأخذ أجازة من العمل لقضاء أغلب الوقت يتصفح (الانترنت).

ثم ماعاد يناديني، وإذا مادخلت أطمئن عليه، يرتبسك ويخفي الصفحة التي يشتغل عليها. لم أكتشف سر ذلك الإرتباك، إلا بعد فوات الأوان. حين صرت أستعيد اللحظات، وأعيد ترتيب القطع المتناثرة من الأحداث والأيام..

تعرّف عليها عن طريق -الإنترنت- يتحاوران كتابيا لساعات وساعات، يتبادلون القصائد والغزل.. فقيل أن حتى الجنس ممكن أن يمارسوه بنفس الطريقه الكتابيه..كيف؟! لم أصل لحل ذلك اللغز..

بعد رحيله.. للقاء المعشوقة الألكترونية.. لم يعد ولم نسمع عنه فيما إذا لقي الحقيقة تطابق الصورة، أو فيما إذا كان سعيدا بمن حظي بها.

حاول البعض ان يقنعني، بأن أفعل مثله "شكو بيها.. أشبه بالصداقة بالمراسلة".

سخرت منهم وضحكت بمرارة.. فالحوار المباشر مع من وثقنا بهم، غير مفهوم أحيانا، بل نجد صعوبة بالتحاور حتى مع من نعتقد أنهم يحملون نفس أفكارنا ويتحدثون بنفس اللغة ومفرداتها!

فكيف بالحوار مع جهاز؟

مع ذلك تحايلت على نفسي وحاولت مرة حين وصل الشعور بالوحدة والحرمان لحدود اليــأس مــن الحيــاة. فتحت الشاشة وأنا اتلفت كأني سأسرق، كنــت وحــدي، فالأولاد كلٌ مع رفيقه أو زوجه يطلون علي بين الحــين والآخر أو يكتفون بمهاتفتي..

أغلقت الراديو لأسمع نبضات قلبي تتسارع وتزحف لأصبعي، ضغطت على بعض الملفات وفتحت أبــواب متداخله كمغارة سحرية تتشابك فيها المــداخل وكأنهــا كهوف المقاتلين الفيتنامين أيام حــربهم مــع امريكــا. فوجدت صدفة أو بطريق الخطأ الملف الذي كان يحتفظ برسائلها (الألكترونيه)!غرقت به أتأمل الكلمات، أغوص بها أحاول أن أكتشف،أي منها كانت من القــوة لتدعــه يلغي كل الماضي والحاضر، ويركض لذلك الوهم وقــد صار له هو الحقيقة المطلقة!.. ثم أقفلته بحدة و حملــت الشاشة ورميتها من الشباك.حاولت انتشال نفسي من ذلك البحر المتلاطم الأمواج لأصغي للسائق وهــو يعرفنــي على باقي المسافرين،فقد حان وقت الانطلاق..ثم وهــو يحكي عن العالم الذي أجهله،أكثر من سماعي لقــصص رفاق الرحلة. فتكاد أن تكون الأحداث التي مــروا بهــا واحدة أو على الأقل بالخطوط العامة، وقد سمعت مــن

قصص يشيب لها الولدان كما يقولون.. صرت كلي اذانا لأسمع مايقول عن زوايا الطفولة والشباب، فمازلت أرى شوارعها من نافذة الذكريات، والتي كادت تُغلق بـالكم الهائل من الكوارث والمصائب الناس هناك.

أتطلع من النافذه وأنا أفكر"هل سأميز ترابنـا حـين نصل الحدود؟"

الطريق طويل،لم تكن السيارات بالكمّ الذي توقعته،أو كما أوحى السائق الذي أصـرّ أن لا يتحـرك إلا مـع مجموعة من زملاءه ليضمن السلامة والأمان.

برودة لذيذه تنبعث من مكيف السيارة، لم نكن نعرف أن الخارج هو الجحيم بعينه..إلا حين وقفـت الـسيارة لحظات ليتأكد السائق من نسبة الماء في الماكينة، قبـل إبتعادنا عن القرى.. فنزلت معه لأمد ساقيي وأنا أسأله: "هل تحتاج مساعده؟" شكرني وهو يتطلع للراكب الـذي بجانبه،نسيت اسمه،أعتقد أنه علاء..أو ربما فاضـل، لا أدري ماعلاقة الاسمين معا..هي مشكلتي مع الأسماء.. تذكرت إحدى زميلات الثانوية، التي كنت أناديها مـرة نوال وأخرى بتول وبعض الأحيان بشرى. وإلى الآن لا أذكر أي منها هو اسمها!

فوجئت بهم بعد انطلاق السيارة بلحظات يتطلعـــون لي:

- وانت أيتها الأخت، منذ بداية الرحلة لم تنطق بغير بعض الجمل التي جاملتينا بها.. سأل السائق مبتسماً وهو يتطلع من المرآه.

انتبهت لعينيه الشهلاويين وقد أضفى سمار وجهـــه لهما بريق وحيويـــة،لاحظت ان أغلـــب الرجـــال هنـــا يتصفون بتلك السحنة السمراء التي لوحتهـــا الـــشمس ولون العين المميز..ابتسمت وأنا لا أدري بماذا أجيـــب. فقد كنت اتمنى لو أنام كل الطريق ولا أصحو إلا هناك، أجد نفسي بينهم، أمحو كل تلك السنين العجاف.. لأشعر وكأني لم أغب عنهم كل ذلك العمر.

- أنت لم تذكري حتى اسمك. علقت جليستي الشابة. حقا الكل ذكر اسمه وأنا غير متأكدة من حفظها.. ترددت لحظات وانا أحاول أن أنطق لهم باسمي. أحسست وكأني أعوم في خواء موحش واسمي يهرب مني بهوة عميقة.. شعرت بإحراج كبير ثم وبعد تردد قلت "أم سماح"..

ماذا حل باسمي؟ كيف نسيته هكذا؟..الأني لم أخاطب به منذ زمن؟

صارت الاسئله دويٌ بالرأس حال دون سماع كلامهم أو تعليقهم.. أخفيت حقيقة نسياني اســمي،تحت غــلاف شفاف من ابتسامه باهتة وانا أقول: "ثلاثون عــام وأنـــا السيدة (هادي). وبين الصديقات أنا (أم سماح) فأكــاد لا أعرف اسمي!" فلم يضحك أحد سواي على ماتــصورته (نكته)..

ولكن لماذا لا أتذكره؟ لماذا لا أنظر بجــواز الــسفر لأعرفه؟. هذه هي النكتة.. لماذا نسيته؟ أهــي الــذاكرة العجيبة التي تشتغل حسب هواها؟ تمسح الغبار فجأة عما اختبأ سنوات لنعيشه من جديد وكأنه حــصل بـــالأمس. وتطمر فجأة أقرب الأشياء لنا،تمحيه هكذا بنفخة سحرية، كما يفعل السحرة الذين نراهم على شاشة التلفاز. أم هي عاداتنا؟ فحين كنت صغيرة لا أعرف لأمي اسما آخــر غير (ماما) ثم اعتقدت أنها (أم أمير) وعرفت بعدها أن نساءنا هي (ابنة أبيها) ثم هي (زوجة فلان) بعدها هي أم (ابنها) واذا لم يرزقها الله طفلا فهي (أم غايب)..

الكثير يتردد من ذكر اسم أمه،وكأن في الأمر حيـــاءا لدرجة اني قرأت مرة في احدى الصحف العربية إعلان نبأ وتعازي لوفاة سيدة.. وضعت كــل أســماء أبناءهــا

وزوجها ماعدا اسمها؟حتى بعد موتها استكثروا ذكر اسمها!

هربت من العيون التي تعلقت تنتظر مني المزيد. أتطلع من النافذة حيث تلوح القرى من بعيد كالحه اللون كذاكرتي.التي صارت بلا رغبة مني تردد أبياتا أو بالأحرى كلمات كتبتها يوما على منديل المقهى الذي كنت ألجأ اليه لأهرب من صخب جدران البيت الصامتة، وزوايا الغربة التي صارت حادة بعد رحيل الأحبة.

تتهاوى شمسي

وينأى قمر ليلى والنجوم

زهوري علاها غبار الوجوم

فقلصت أحلامي

بخطوة أنتظرتها

خطوة للحب

للشوق وللذكرى

خطوة.. ثم طرق على الباب

يهب له القلب ناثرا عنه الغيوم

مازال الحاحاً يشغل بالي أن أتذكر اسـمي قبـل أن نصل نقطة التفبيش على الحدود. مرت ببـالي أسـماء ووجوه حاولت ان أسترجع لحظة أن ناداني بهـا أحـد، صديق أو قريب. ولكن بلا جدوى فسكتُ وألم يعتـصر الفؤاد. حيث صار أمر تذكر اسمي أشبه بنقر بالرأس أو نغزة بالقلب.

أخذ السائق وثائق سفرنا ونسيت ان أتطلع لـوثيقتي. شئ ما جعلني أحرج من استعادتها منه للاطلاع، ربمـا خوف من تأخيره،أو قد ينتابهم الشك بأمري. فوقفنا على جنب وعيوننا متعلقة بشباك الموظف..

جموع غفيرة تنتظر فهيّـأت نفـسي لـساعات مـن الانتظار. لكن بعد أقل من نصف ساعة، صاح الموظف "نداء عبد المجيد براون" فراحت رفيقـة الـسفر تـشق طريقها بين جموع المتدافعين.. فأخذت أردد اسمها بيني وبين نفسي..

ثم انتفضت للصوت ذاته يتضخم وهو ينادي "وهيبـه هادي" فابتسمت- نداء- وهي تنظر لي بانتصار وفـرح وكأنها تهنأني على سرعة إنجاز فحص جوازاتنا وهـي تهمس" هذه نعمة الجوازات الأوروبيه" مشيت بارتبـاك

وأنا اردد.هذه المره (وهيبه.. وهيبه) غمرتني حمى فرح قديم،وأنا ارى الذكريات تتطاير،كأوراق الخريف بألوانها النارية الجميلة،من تلك التي كنت أتمتع برؤيتها وهي تتهادى مودعة أغصانها لتفترش الشوارع المغسولة بالمطر وأحاول ان أمسك بها قبل أن تلامس الأرض.

"وهيبه خضير صالح"..كان الصوت جهوريا عميقا بالكاد يتلاءم من نعومة الملامح الفتية..

– نعم أستاذ..التقت نظراتنا وهو يبتسم ويقدم لي ملف البحث حول المقارنة بين الاشتراكية والرأسمالية.

"برافو.. بحث هائل واضح المجهود الكبير الذي بذلتيه ولو فيه بعض الإرباكات.. سأكلمك عنها لاحقا..".

سلمني الضابط وثيقة السفر وهو متضايق من تباطئي،وانا أكرر على مسامعه (وهيبه صالح)..ثم صرت أكرر هامسة"وهيبه..وهيبه..كيف أنسى ذلك الاسم؟".

عدت بنفس التباطئ.."كحلة عينيك ياوهيبه..جارحة قلوب الجدعان" صار يغني ذلك المقطع،بهمس مسموع كلما صادفني في أروقة الجامعة.صرت أنسى أنه

أستاذي، أشعر به زميلا قريبا بل صديقا.. فلم تكن هناك أي صداقة مع الزملاء على مدى سنوات الدراسة.. كانوا إما من الطلبه المنتمين لـــ(الاتحاد الوطني) وهؤلاء كان همهم الضغط على زملائهم للانتماء لحزبهم أو التجسس على المختلفين معهم ومضايقتهم..والذين على الضفه الأخرى من (المعارضين) كانت لهم تكتلاتهم وشللهم.. بالرغم من وجود البعض من المثقفين بينهم الذين تستدل على وعيهم وثقافتهم من خلال سلوكهم وبمخزون المعلومات والأفكار التي يحملونها.لكني لم أقترب منهم خوفا أو خجلا،كنت أخجل وتحمر خداي حتى من تحية البعض منهم! والباقي كنت أرى فيهم من الخواء الفكري ما يصعب فتح أي حوار معهم..

كنت أتردد من مرافقته لنادي الطلبة–المقهى الوحيد لشرب الشاي هناك– خوف من تقولات الزملاء– لكنه يصر أن نجلس مع مجموعة من الطلبة على أن أجلس بجانبه،يحكي لهم عن البحوث التي تطلع عليها ليصل بالحديث عن عملي أنا،ليناقش أفكاري بطريقة ما كنت سأطرحها بذلك الوضوح والعمق عن الفكر الاشتراكي، فأتمنى لو اعيد ماكتبته على ضوء ما أسمع منه..كان على خلاف بعض الاساتذة من الذين من النادر ما

يجلسوا معنا ونتحاور معهم بحرية.كان هو أكثر حرية بطرح أفكاره،ربما لأنه ليس عراقي،فلا خوف من المراقبة أو ربما لأنه يقاربنا بالسن.

"أنا لا أومن بالاشتراكيه.." قالت إحدى الزميلات من قسم آخر.. "لا أستطيع أن أستوعب كيف يرضى أحد أن يشاركه غريب، ببيته وحياته.. وكل شئ؟!"

ابتسم وقال بهدوء.."ياعزيزتي..الاشتراكيه فكر اقتصادي وسياسي،لبناء مجتمع قائم على العدالة بين أفراده،أي أن يكون للدولة دور لحماية الفقير من جشع الغني..لا يمكن أن يفسر بالطريقه التي قلتيها..ولكن للأسف هذا ما يروجه أعداء هذا الفكر..فيطرحوه بهذه الطريقة الكاريكاتورية لتشويهه..!".

كان صوته هادئا ودودا.. ثم وقبل أن يهم بالذهاب قال.."أقترح عليكم قراءة رواية..جاك لندن..(العقب الحديدية)..".

"أكاد لا أصدق أنك مصري..يا أستاذ!". قالت زميلتي -حياة- وهي تبتسم وتداعب شعرها الأشقر.
شعرت بإحراج وكأنه مدح بصيغة ذم أو العكس..ابتسم هو..دون نفعال وقال:

– لماذا؟..هو المصري على رأسه ريشه؟

– لا يا أستاذ،المصري بالحقيقه منزوع الريشة؟ كالحليب منزوع الدسم!..

قاطعه زميل من قسم الإعلام بوقاحه وجرأة وهو يضحك وكأنه حقق إنتصارا حين ضج الاغلبيه بضحك صاخب.

قلت بانفعال واضح، وأنا أهم بالوقوف..

"هذا رأي سخيف وفيه عنصرية،الشعب المصري ككل الشعوب فيه المثقف والجاهل وفيه المتعب ومن تعب على نفسه..بل للشعب المصري الفضل على الشعوب العربية فنيا وثقافيا..وإذا كان الشعب المصري منزوع الريشة،فالعراقي منزوع الفرح إذن!".

كان صوتي منفعلا ومرتفعا. فشعرت بإحراج وأنا أرى العيون تتطلع لي بتساؤل عن سر ذلك الانفعال!حقا لم يكن هناك أية ضرورة للانفعال.

هب شخص من طاولة قريبة،كان يجلس لوحده لا يبدو عليه أنه طالب..فتساءل بوقاحة مزيحاً أحد الزملاء من أمامه بفضاضة.."ماذا تقصدين.. (منزوع الفرح)؟"

فرد عليه الأستاذ بسؤال "من حضرتك؟.. كنا بموضوع يخصنا،ما شأنك أنت؟.."

فأسرع الزميل-أكرم-من السنه النهائيه قسم الإدارة، بمحاولة لإنهاء ذلك الجدال لكي لايتطور لصالح ذلك المتطفل الذي سيجد بذلك الحوار مادة دسمة للتقرير المطلوب منه،و ينتظر تقديمه لهم بفارغ الصبر لعلهم يكافئوه.

فابتسم أكرم للأستاذ:"يا الله يا أستاذ المحاضرة بدأت". ثم التفت إلى ذلك الشخص" كنا نمزح،لم يكن هناك شئ جاد".وابتعد بنا مسرعا،دون أن يعطي فرصة للآخر أن يتدخل أكثر.

"عذرا يا أستاذ،لا أعتقد أن ذلك الزميل يقصد الإساءة، لكن بصراحة..إن شخصيتك وثقافتك توحيان باختلاف كبير عن كل من التقيناهم من الإخوة المصريين من الذين تكاثروا هنا في الآونه الاخيرة".

" أنا لا ألوم أحد،طيب أنا نفسي أحرج من سلوك البعض من (بلدياتي) من الشباب،بل شعرت بالإحباط خاصة وقد اكتشفت أن أغلبهم جاءوا بشهادات مزورة..".

قاطعه زميل لم ننتبه له،كان يسير بقربنا..وهو يحمل كأس الشاي.

" يا أستاذ،دعك من الشهادات المزورة..المصيبة في العشرات أو المئات من الذين جاءوا تحت غطاء-عمال- وصاروا إما يتجسسون على بعض العوائل،أو يتسكعون بالشوارع،يعاكسون النساء..وإذا حاول أحد ان يردهم أو يعاقبهم. فسيواجه العقاب إما بغرامة مالية،أو سجن ستة أشهر.. يا معود!".

ثم مضى وهو يهز يده غاضبا دون أن يسمع تعليقنا.

في هذه الأثناء همس أكرم بأذني "يجب أن تحذري من أمثال ذلك المتطفل،سمعت أن بعد كتابتك البحث إياه.. وضعوا اسمك في قائمة (المغضوب عليهم)"..خفت وبنفس الوقت إنتابني إحساس بالتحدي والفرح. وقبل أن يودعنا.. قال وهو يصافح أكرم!..

" أشعر وكأن الامر مقصود أن يؤتى بذلك الكم الهائل من المصريين،بالوقت أن هنا الكثير من العاطلين.. المهم..أنا افكر ان أرتب سفرة لمجموعة منكم تذهبون معي في عطلة الربيع،ففي الصيف الحر كافر..سأعرفكم على مصر التي أحبها، والتي تسمعوا عنها!".

" بصراحه يا أستاذ،نحن نعرف مصر التي أعطتنا أو للعرب كلهم الكثير من المبدعين من فنانيين وأدباء مثل عبد الحليم،وأم كلثوم،نجيب محفوظ،وسلامه موسى..الخ.

"ولكن المشكله بتلك العاصفة البشرية من متسكعين وغيرهم،والذين استخدموا للتجسس حتى على من يشغلهم.

"قريب لي استخدم بعض العمال المصريين رأفة بهم، لكن بعد أيام من تركهم العمل قبض على صاحب المعمل وأودع السجن دون علم أهله،الذين صاروا يبحثوا عنه في كل مكان..ليكتشفوا بعد فوات الأوان أن أحدهم كان يسجل كل ملاحظة،كل تعليق أو انتقاد للوضع يقوله ذلك الشخص ليفسروه ضد الحكومة..ربما ليحصلوا على مكافأة لقاء ذلك التقرير،ولابد أن العشرات من الضحايا تعرضوا لنفس المصير لنفس السبب..".

يعيدني لغط بعض المسافرين المنتظرين لوثائقهم إلى مكاني،فأتأمل الوجوه الغاضبة والعيون القلقة التي تكاد الدموع تتفجر منها حمما..فأتذكر ذلك التعبير (منزوع الفرح) كانت في وقتها فيها بلاغة النكته لكنها اليوم واقعا قويا يشرأب برأسه ساخرا وشامتا أو حاقدا. فاليوم صرنا

ليس منزوعيّ الفرح فقط،بل انتزع منا الأمل والحلم. استطاعت تلك الكائنات البشرية والتي أراها أشبه بالكائنات الخيالية التي ابتدعتها الكاتبه الانكليزيه (جَي. كَي رولنغ)مؤلفة(هاري بوتر) والتي سمتها (دومنتورز)، مهمتها ان تُقبّل من تترصدهم من الشفاه لتنتزع كل مشاعر الفرح منهم،وتجعلهم بلا روح،فيتحولوا إلى كتلة آدمية من الحزن القاتل!

لكنها في حالتنا ليست خيالية ولا خرافية بل هي حيّة تتجول في شوارعنا منذ سنوات واليوم تتكاثر كالأميبيا، أو تكاثر الذباب في القمامة. ليس لإنتزاع الفرح فقط بل لتزرع الخوف واليأس في كل شارع وفي كل بيت.إذا كان سلاح (هاري بوتر) هو ذكرى سعيدة حتى لو كانت قديمة جدا ليهزم بها تلك الكائنات.في عالمنا تكاد أن تنتزع حتى الذكريات لاسيما التي فيها شئ من الفرح!

ربما ذلك هو سبب تلك الحيرة التي ترافقني،وتخاذل خطوتي–إنتزاع الفرح مني–كما في حالة تلك الأرواح المتعبة التي كأنها تهيم في تلك الفضائات الموحشة الخالية من الأمل.إنتابني قلق وأنا اكتشف سبب تلك التعاسة،فشعرت بضيق بتنفسي.

كانت بي رغبة أن أنزوي بعيدا لأستعيد تلك الأيام التي اقتحمت لحظتي وصرت أعيشها من جديد،بالرغم من شراستها وألمها.أتأمل مافيها من القليل من الفرح وكأنها قطرات ماء تحيي أملاً متصحرا بالروح،أو التمس منها لحظات سعيده لأطرد بها-الديمانتورز-الذي يهاجم روحي الآن .

ترى ماهي الروح؟ربما هي عباره عن خليط من الفرح مع شئ من الأمل وبعض من الذكريات.

"لم تعلقي على موضوع السفر الذي اقترحته منذ مدة..." سألني هامساً وقد ارتبكتُ فرحاً وأنا أصادفه في حديقة الزوراء،كان يقف بجانب كشك لبائع عصير وحلويات-مصري أيضاً-فأصر أن يشتري لنا،أنا وإخوتي العصير وهو يتابع.."لم يكن وجودي هنا صدفة..".الصدفة أنه عرف زيارتي للحديقة،فجاء ليراني بعيدا عن جو الجامعة..لم أسأله-كيف عرف-ولم أقل الكثيرعن الاقتراح إياه بالرغم من الفرح الذي غمرني.فقد عشت أيام أحلم بيقظتي ونومي أن أزور الآثار،والنيل والريف.

لكني اكتفيت بقول "إنها فكرة جيدة..."

لا أذكر متى سألني عن رغبته بالتعرف بأهلي،لأنه مصمم على تعرفي بأهله حين أكون هناك. مازلت حين أذكر ذلك الحوار الطويل-القصي-اشعر بنفس الفرح والخجل والخوف معا. كانت كلماته ونظراته أشبه بهمس جدول وهو ينساب بأعماق أرض عطشى..لكني لم أفه بكلمة وقتها،فربما فهم أن (السكوت علامة الرضا).. شاغلتني بعدها السيناريوهات المتغيرة يوميا،عن التركيز بالدراسة أو القراءة.فحاولت التخلص من القلق من تلك الفكرة،بالمواجهة للتعرف على ردة فعل الاهل.

في أحد الأماسي حيث اجتمعنا أنا وإخوتي وأبي وأمي على العشاء،قلت "إحدى زميلاتي احتفلت بخطبتها على شاب مصري.."لم أكمل الجملة،فقد صارت الكلمات أشبه بغصة وأنا أرى العيون تتطلع لي مستنكرة.خفت أنهم اكتشفوا كذبتي واختلاقي لتلك الحكاية..حتى توالت تعليقاتهم:

" لماذا..هل خلت الدنيا من الرجال..؟".

" ألم تسمع بقصص احتيالهم وهروبهم بعد إستيلاءهم على اموال الزوجة؟"."ربما تعتقد أنها ترتبط بعبد الحليم أو فريد الأطرش..ها ها؟"."والله لو كانت ابنتي لحرّمت

عليها الخروج من الدار..وحبستها فموتها أفضل من وضع نفسها بمصيبه كهذه!".

لا أدري ان كانوا رأوا امتقاع لوني.. شربت كأس الماء دفعة واحدة..لأتجرأ وأعلق: "لم لا..إذا كان إنسان طيب ومهذب وذو أخلاق.." فصاح أخي باحتجاج "وهل..لدينا شحة بالطيبين والمهذبين!؟".

بعدها صرت أتجنبه،أتجنب التواجد معه على انفراد حتى لو لثواني.كيف أوصل له رفضهم ربما سأصغر أمامه "وأنتِ أليس لك رأي..أنتِ المثقفة،القوية..". كيف أوصل له فكرة إستحالة ارتباطنا وضرورة إجتثاث الفكرة- لابد من ذلك حتى لا يزيده الأمل تعلقاً بي وأزداد تعلقاً به.."أطفر النهر مادامه ضيق.." كما تقول أمي كلما لاحظت ترددنا في مشكلة..

إهتديت أخيرا لفكرة أن أكتب له وهي أفضل وسيلة لأشرح له وجهة نظري بالتفصيل..وتجنبت البريد،فهم حتما سيفتحوا الرسالة.كذلك تخليت عن فكرة اللقاء به فقد يبعثر الإنفعال كلماتي وتتقطع خيوط الجمل ولا يصله بوضوح ما أردت ان أقول،وأنا التي أريده أن يبقى صديقاً وأستاذاً.

بقيت أيام أعيد صياغة الرسالة،حتى اقتنعت بها أخيرا.وضعتها بكتاب (العقب الحديدية) الذي قرأته بناءاً على اقتراحه.

احتضنت الكتاب بعد أن غلّفته،خوف فضول- شرطة الطلبة- وذهبت مبكرة لعلّي أصادفه.لم يأت للمحاضرة وقتها،ولا التي بعدها!صرت نزقة وقلقة.ما إن أجلس حتى أنهض بعد ثواني. تساءلنا جميعا عنه؟

قال أحدهم،ربما هو مريض..لم أحتمل الاصغاء لهم.فذهبت للسكرتارية،قالوا أنه لم يتصل بهم!

ضحك أحدهم وهو يقول:ربما قرر الرحيل..على حين غرة..!

لم أحظر اي محاضرة في ذلك اليوم.ذهبت للنادي،سألت طلاب القسم النهائي وأنا أعرف أن لا جواب لديهم..

حاولت التهرب من أكرم الذي حاول الاهتمام بالموضوع، فابتعدت وأنا أؤكد أني فقط أريد أن أعيد له كتابه الذي استعرته منه..في اليوم الثاني..ذهبت قبل الفطور.كان السهر قد ترك علامته على عيني،والقلق بادٍ على وجهي.صممت أن أعرف ماحصل له. فاذا لم يأت

اليوم أيضا،سأذهب لسكنه مهما كان في الأمر من تهور ومغامرة.

غاص قلبي،لسبني،وأنا أرى الوجوم والحزن على الوجوه،طلبة وأساتذة..وهو ليس بينهم!

شرطة الطلبه تلك الكائنات التي تكاثرت في رواق الجامعة. كانوا يتساءلون و يحققون مع البعض.

ما الذي حصل "أهي وجبة أخرى من القبض على بعض الطلبة– الغير منتمين؟" كدت أسأل احدهم.

ولكني شعرت بنبضات قلبي صارت تهز جسدي كله، وانسحبت الدماء من وجهي،ولم أقو على نقل ساقاي وقد شعرت بهما كأنهما ورقة،حين رأيت زميلتي حياة تبكي وهي تركض صوبي "ما الحكايه؟.." هتفت بها.

"أستاذ فؤاد.." قالت وهي تنشج..ثم غطت وجهها بيدها وأخذت تنتحب "يقولون..أنه..ياالهي..لا اصدق". واصلت البكاء بصوت عال.ضاق نفسي وصرخت بعصبية.. "ماذا؟ تكلمي،هل قبضوا عليه؟"سكتت فجأة– والدموع تنساب بغزارة من عينيها،وهمست– " اسكتي.. لماذايقبضوا عليه..كان طيب وانسان مسكين ومهذب، ولا علاقة له بالسياسة".

دوت كلمة (كان) في رأسي كطبول بعيده تقترب رويداً رويدا "كان...كان..ماذا تعنين.." لا أذكر سوى عينيها الزرقاوين الواسعتين تسبحان بالدموع وهي تهز رأسها وتعانقني.. فصار كل شئ مضبب، شاحب..

جفلتُ ليد على كتفي..:"مابك..تبكين..؟" سألتني ليلى..ثم تابعت "معك حق..أنا نفسي غير مصدقة أننا على أبواب الوطن..أخيرا..بعد سنين الانتظار سنصل إن شاء الله، أدع الله أن نجدهم سالمين".

شعرت بإحراج،كمن ضبط وهو يسرق.هل كنت أبكي على تلك الذكريات؟أم أني عشت المشهد كله مرة أخرى وكأنه حصل بالأمس؟.مسحت دمعي وعادت الذكريات تسحبني بقوة، فلا أسمع من كلامها الكثير. فابتعدت لتقف مع نداء وعلاء.

أسمعني أضحك وبعد تردد اسأله بشئ من المزاح:

"هل سر إهتمامه بي بسبب اسمي،لأنه معجب بأغنية محمد رشدي- تحت الشجر ياوهيبه-".

ضحك وقتها طويلا.."ربما الاسم جعلني أتأملك،لكن سحر عيناك،وأفكارك الكبيرة هي التي شدتني إليك".ثم

أضاف ضاحكا (بأمراس كتان الى صم جندل)..بالرغم من مقاومتي.. فأنت طالبتي، وأنتم لكم موقف مسبق منا".

لم أسأل أمي عن سبب تسميتي- وهيبه- وليست وهبية كما هو شائع،أعرف أن له علاقة باسم خالي (وهبي)..

صرت أفتعل البحث في حقيبتي لأبتعد عنهم بعض الشئ وقد طوقتني تلك اللحظات وشدتني لها،أستعيد بها طعم تلك الأيام حلوها ومرها.ربما نفتقدها لأننا لم نعشها حقا، أو لم نحقق بها شئ من أحلامنا التي كانت أكبر منا،أو أكبر من واقعنا اللامعقول.

تعود الذكريات بي حيث كنت،تشد عيناي وهي تفتح نافذتها الواسعة..أتطلع للوجوه حولي،أساتذة وطلبة في غرفة صغيرة.أتطلع ليداي،أراهما بلون الثلج..صاحت حياة وهي تخاطب الزملاء المتجمهرين على الباب.."إنها بخير،يبدو أنها لم تأكل شيئا".ومدتني بكأس عصير، شربته بآليه ونظرت لأكرم لأول مرة أتطلع لعينيه وأرى فيها ذلك الكم من الحزن والتعاطف كان يبكي بصمت ثم

تمتم وهو يشدّ على يدي "علينا أن نكون أقوياء..الموت هو الوجه الآخر لعملة الحياة".

وضعت يدي على كتفي وأنا أستعيد تلك اللحظة.. مدّني بسيجارة وشجعني لأدخنها، فكانت أول سيجارة لي..ثم همس بابتسامة وبشئ من المزاح "على ان لا تعاوديها.."

ثم صار بعد ذلك يتذمر ويشكو من إصراري على مشاركته (علبة السجائر).

لم يعرف أحد جوابا لسؤالي وقتها..ولا بعدها، هل كان حقا حادث سيارة؟ فيقول البعض عنها أنها سيارة شرطة، وآخر يؤكد انها بلا رقم..أي لرجال الأمن..إذن هي جريمة!

يهمس البعض ومنهم أكرم عن أمر آخر شاع،أن السيارة كانت لأحد الطلبة تعرضت أخته لاعتداء وتحرش من قبل شاب مصري!.

رحل قبل أن يعرف رفضي. دون أن يقرأ ردي، دون أن أرى الغضب في عينيه. ربما كان سعيدا بالأمل الذي

انطفأ حينها فجأة، ليكون سببا لإحياء أملاً آخراً لإنسان آخر. لتبدأ رحلة أخرى مع أكرم الذي صار أقرب الناس لي وقتها..

أكرم.. الذي لا أذكر متى بدأ يتجنب ذكر اسمي ولم أفكر أن اسأله لماذا؟ فقبل سنوات من رحيله،صار حين ينادي بقول (أقول لك) أعرف انه يقصدني أنا.. وحين يعرّف زائر ما بي يكتفي بذكر "زوجتي"أو"أم سماح"..هل كان يخطط للرحيل منذ ذلك الوقت واسمي يخيفه أو يذكره بشبابه وماضيه؟..من يدري؟

انتشلني السائق من الغوص في وحل تلك الذكريات، مقترحا أن نجلس بالإستراحة..لأن الأمر سيطول بنا وهو يحاول ان يطمأنني، معتقداً أن اضطرابي وحزني كان بسبب ذلك التأخير.

فقد غضب ضابط وحدة الحدود على أحد المراجعين لأن الأخير احتج على احتجاز جواز سفره بلا توضيح، وتأخيره بدون مبرر..فزمجر الضابط،وأخذ يشتم ويسب وصب غضبه على كل المسافرين العراقيين طبعا أو من

يحملون وثيقة عراقية فقط. لذا صار لزاما علينا الانتظار لأن الأمر شمل السائق أيضا.. فنحن مع القليل من الأجانب من صحفيين وسياسين وتجار، استلمنا وثائقنا مبكرا.

-هذا هو الفرق بين أوروبا،والعالم-الثالث-أو التالف كما يجب أن يسمى..علّق زميلنا علاء بغضب،وهو يشعل سيجارته ويبتعد عنّا متكئاً على حائط المقهى..

-فعلا.قالت نداء "هناك يراعون المراجعين مهما كان الأمر حتى لو كان المراجع مخطئا أو نزقا، ففي حالة شتمه الموظف أو ضربه يكتفوا باستدعاء رجال أمن المؤسسة ليسحبوه خارجا،قد يودعوه السجن،ولكن لا يعطلون مشاغل الآخرين إلاّ في حالات نادرة جدا.

عقّبت ليلى وهي تمسح العرق عن جبينها:

- نحن بحاجة إلى عشرات السنين إن لم تكن مئات لنصل إلى ما وصلوا إليه من نظام واحترام للانسان.. بالرغم من أنهم كانوا أكثر تخلفا،حين كنا نحن أكثر تطور وأكثر نظاما، لكن الآن انعكست الآية.

- المشكلة بنا اليوم أن بعضنا يعتقد أن كل ما يأتي منهم مرفوض،مهما ارتبط بالحضارة والقيم الإنسانية الجميلة،فهي مرفوضة لأن لا علاقة لها بتراثنا،هي بمفهومهم مستوردة، ولابد من رفضها،لو فكّروا قليلا لعرفوا إنها بعض مما كان لنا، حين كنا أصحاب حضارة وحريّة وتقدم.

علق علاء بصوت غاضب وهو يقف خارج المبنى.

اتجهنا للاستراحة،اعتقدتُ أنها مقهى.لكنها كانت أشبه بمخزن كبير فارغ نسبيا،فيه قليل من الكراسي وطاولات بلاستيكية بالقرب من كشك كما نسميه لبيع بعض الحلويات والسجائر..وآخر لبيع الشاي والقهوة..

لم أعلق على ما جرى،ربما لأني مازلت متعبة من رحلة الذكريات تلك..فقد تذكرت قريبتي المقيمة في لندن ويوم تعطيلها على الحدود البريطانية- الفرنسية،عادت من اوروبا برا لأنه أرخص وسيلة للسفر.فلم يعترف -الموظف الإنجليزي- هناك بوثيقتها معتقدا أنها اشترتها من مهرب وقد صار تهريب البشر تجارة مربحة،البشر

الهاربين من جحيم بلدانهم لجنّات اوروبا. فتعطل ركاب الحافلة حينها لساعات،حتى حُسم الأمر وتأكدوا من أنها ليست متسللة ولا إرهابية!

المقاعد القليلة متسخة،وغير مريحة،لكنها فرصة لنشرب شئ ما،ولأدخن سيجارة..العيون تتطلع لنا وكأننا نرتكب حماقة في جلوسنا في استرخاء. لم يجرؤوا على التطلع بنفس الطريقة للقليل من الشقراوات اللاتي كن هناك.

-أود أن أحييك.قال السائق مبتسما وهو يقدم لي كأس الشاي..

شكرته وأنا اتساءل..على ماذا؟

-على مبادرتك.. واقتراحك لمساعدتي!

قلت مبتسمة بما يشبه الهمس.

-لكني لم أفعل شئ.. حقا كنت أود مساعدتك،وكذلك لأمد قدماي وقد شعرت بالضيق..

فابتسم وهو يشير نحو الخارج- قاصدا زميلنا علاء.

-يكفي النوايا..فحقا هناك نساء أفضل من الرجال.. عشرات المرّات.. وهنا تظهر قيمة المساواة..

ابتسمت وأنا أهم لإشعال سيجارتي..لكني أجلتها وأنا أسمع ليلى تعلق بحدة وبسخرية:

-كم أنتم أنانيون أيها الرجال، حتى المساواة لا تظهر قيمتها إلا إذا كانت تصب في صالحكم..فتعبيرك "هناك نساء أفضل من الرجال" هو مدح للرجل أيضا،فهن أفضل من الرجال عموما،انظر كيف صرنا من وراء الرجال وأي الكوارث نعيشها بسببهم؟

ضحك السائق وهو يعتذر،ويؤيدها الرأي.فقلت لتهدئة الأمر..

-لابد أن الحر والانتظار الطويل يجعل من المرء عصبيا..

كانت نداء تتطلع للخارج،ربما لأبعد من السيارات المصطفة والسائق والركاب المتجمهرين..فجاء صوتها وكأنه من المكان الذي تفكر فيه.

هناك نساء يرفضن المساواة، بل ينظرن لأنفسهن بشيء

من الدونية، لديهن قناعة أن الرجل أعلى منزلة ولابد أن يثبت رجولته بالتحكم بهن وحتى بالقسوة عليهن..لذلك بعض النساء تستغل حب الرجل وعطفه بشكل مؤلم،بل تتصرف كما لو أنها تعلن احتقارها له والنظر له باستصغار إذا كان يطيعها أو يلبي رغباتها!

ثم أضافت بشئ من الهدوء وهي تبتسم "في اليابان أيضا يقال أن المرأة كل صباح تنحني ساجدة لزوجها"!

-وماذا استفادت المرأه من المساواة؟النتيجه جاءت لصالح الرجل أيضا..وأنا واثقة أن الذي بدأ تلك الدعوة رجلا ذا نظرة بعيدة للمستقبل ويتوقع ما يحصل الآن..! تابعت ليلى بشئ من الحماس،دون تعليق على كلام نداء. ثم واصلت " فهناك رجال استغلوا حرص المرأة وحبها لهم،بل البعض استغل تضحيتها وتعبها من أجلهم ليكون سببا لهجرها أو التخلي عن مسؤولياته ازاءها".

تطلع لها الكل متسائلين،بل لاحظت أن بعض المتواجدين من عمال ومسافرين صاروا ينصتون للحديث

– صرت أخاف أن أقول أني لا أريد المساواة، خوفاً أن

أُتهم بالتخلف والحنين لعصر الحريم..خاصة والمرأة ناقصة عقل ودين،كما يقول البعض..

قاطعتها لأهدء من انفعالها..

-لكن المساواة والحرية، كان لها دوراً كبيراً في جعل المرأه تبدع في مجالات كثيرة..وأثبت بعض المفكرين أن ما يسموه نقصاً في الدين، هو تفضيل الرب للمرأة بمنحها استراحة كل شهر من فروض العبادة من صلاة، وصوم لأنها تملك سر الحياة.قلت وأنا أتذكر ما قرأته من كتاب التراث والأساطير لسيد القمني،وتفسيره العميق لتلك المقولة.

-إذن هي غيرة الرجل من ذلك التفضيل،جعلته يفتي بما هو غير حق!علّقت نداء وهي تبتسم.

فتابعت ليلى حديثها بنفس شحنة الحماس:

-بلى..هذا ما آمنت به..أن المساواة تعني اتساع مداركها بعيدا عن عمل البيت الممل والاهتمام بالطبخ والمكياج..إلخ.. فالعمل يعطي للإنسان قيمة ذاتية سواء كان رجلاً او امرأة، إضافة لتحسين الوضع الاقتصادي،

خاصة في هذا الزمن الإستهلاكي..لكن هذه الحالة زادت من أعباء المرأة وضاعفتها..فهي لابد أن تنجز بعض من أشغال البيت..تنظيف وترتيب،وحتى الطبخ أحيانا، قبل الذهاب للعمل،ثم تعود مسرعة لتحضير العشاء، وللتنظيف مرة أخرى،ومتابعة الأولاد ودروسهم..إلخ، وفوق كل ذلك يستغل الرجل إحساسها بالمسؤولية فيحملها جميل السماح لها بالعمل خارج المنزل!فتشعر بالذنب لو قصّرت في مهام البيت.

ثم استدركت وهي تبتسم " هذا طبعا لا ينطبق على كل الرجال،فزوجي الآن يساعدني في كل شئ، ويقدر كم هو متعب وممل عمل البيت،لذا بمساعدته صرت أستمتع بعملية التنظيف، والطبخ".

سكتت لترتشف الشاي،وهي تحاول أن تخفي انفعالها وتردع بعض الدموع التي تلألأت في عينيها..

لمست يدها،لأمتص بعض من ذلك الإنفعال،ووجدت نفسي أكمل ما بدأته:

–أنا معك، وإن كان هذا الأمر ليس مطلقا،ولكن في حالات كثيرة،أعطى انشغال النساء بهذا الشكل،فرصة لبعض الرجال ليلتفت خارج البيت،أقصد.. منحه وقت

فراغ كاف لعلاقات أخرى بمعنى أوضح،للخيانة،وهجر البيت والأولاد...

شعرت وكأنهم عرفوا سر حيرتي.فصمتُ لأشعل سيجارة أخرى.شعر السائق بإحراج،فأراد أن يهرب من موضوع هو السبب في الخوض فيه،وإن كانت نواياه طيبة.فاقترح أن يذهب ليطّلع على أمر الجوازات متأملا حل المشكلة،لنواصل الرحلة بأمان عسى أن نصل قبل مغيب الشمس.

أخيرا انطلقت بنا السيارة،واصل بعضنا غضبه فحاول التخفف منه من خلال شتائم ونقد لاذع للعاملين على الحدود، والأنظمة والتخلف ومن كان السبب بتلك الكوارث التي نعيشها.نداء،كانت فرحة وتبتسم بانفعال واضح كأنها تستعجل الزمن للوصول.تطلعت لها بابتسامة وأنا اختبئ قلقاً مروّعاً عما سنجده هناك.لماذا نستعجل الوصول إذن؟

الخوف الذي صار يقترب منا والقلق مما سنراه ونعيشه،وحساب الساعات والدقائق بين الحين والآخر، جعل الوقت يمضي بطيئاً مستعصياً.فصرنا نريد

الوصول بسرعة،لننفض عنا غبار القلق والخوف ونتخلص من حمولتنا من الشوق والحنين وحكايا تراصت مع السنين نُسمعها لمن يصغي..

مرت لحظات صمت تخللتها حوارات يبادر بها السائق أحيانا أو ليلى..ربما السائق يحاول أن يطرد النعاس عنه فلابد أن التعب قد أخذ منه مأخذا.لم أجد لديّ القدرة على التعليق أو المشاركة بما يتحدثوا به،شعرت أني لو تكلمت ربما سأبكي وتنطلق دموعي قبل كلماتي.. حسدت ليلى أو بالأحرى غَبطتها قدرتها على الحوار بسلاسة،على ثقتها بنفسها،وصراحتها.

ربما حديثها بإسهاب عن فشلها أو نجاحها يمنحها شيئاً من الإرتياح،لكن لابد أنها الثقة العالية بالنفس تدفعها للحديث عن طليقها أو زوجها الحالي بتلك العفوية.

أنا أخاف الحديث عن أكرم،بالرغم من مرور أعوام على رحيله.ربما هو الخوف من تغير نظرتهم لي،أنت مطلقة..كلمة منفرة أشعرها وكأن لها من دلالة على الرفض أي أنت مرفوضة،غير مرغوب بك.أو ربما هو الأمل بعودته فمازلتِ تكذبين على نفسك من أنك نسيته.

قد يكون ذلك بسبب إختفائه،ورحيله هكذا بلا وداع، ودون إعتذار،الذي ربما كان سيغنيني عن الإحساس بالظلم أو الرغبة بالإنتقام!.

أو ربما هي العجلة التي تحدثت عنها ليلى،فأنت خارجها الآن،من يدري.أو قد يكون هو الحب!.

ليلى حظيت به ليمنحها الثقة بالحياة ويعوضها ما فقدت فردّت بذلك إعتبارها،وذلك هو السر.أما أنت فأغلقت النوافذ، والأبواب،ولم تفتحي غير نافذة واحدة للماضي والذكريات.

رحت أبحث عن الكتاب الذي جلبته معي،ولم أفتحه للآن،وقد لاحظت أن زملائي قد استسلموا للنوم وساد الهدوء.فاضطر السائق أن يفتح الراديو ليشجعه على اليقظة والانتباه.أغانٍ لم أسمعها من قبل،ولكن لم يكن لي مزاج أن أسأل عنها.فهم انتقلوا منذ زمن لمرحلة اخرى، وأنت مازلت تعيشين مرحلة ما قبل الرحيل،مرحلة وحيدة خليل،سعدون جابر،رضا علي،وفاضل عوّاد وحتى مسعود العمارتلي الذي لا يطيق أكرم سماعه،

بالرغم من محاولاتي لتشجيعه أن يسمعه أكثر من مرة ليستوعب عمق ذلك الصوت الفريد والألحان النموذجية.. كان يسخر من ذوقي.لأكتشف في كل مرة أنه يزداد غربة عني،وصرت أفاجأ ببعض سلوكه أو آرائه التي شعرت أنها تغيرت بشكلٍ حادٍ،وسطحي.

صرت أنتبه دون إرادتي لأمورٍ غريبة لم أتوقعها به.

-أنت مازلت تعيشين الماضي،وتلك الأصوات متمسكة بها لعلاقتها بالذكريات.أو كأن الزمن توقف معك لحظة وضع خطاك خارج الحدود!

امسكت الكتاب وأخذت أمسح على غلافه.فقد انقطعت عنه زمنا،ذلك الرفيق الذي ملّلته،وما ملّني.كان يغضب من رؤية الكتاب معي،خاصة قبل النوم وهو الوقت الوحيد الذي تتاح لي فرصة القراءة به،أو حين يستعصي عليّ النوم.برغم أنه كان يشجعني على القراءة،حين عرف حبي للقراءة،بل كان ينتقدني حين صرت أهتم بالخياطة أو حياكة بعض الملابس لمولودنا الأول -سماح-التي كنت أراها وكأنها دمية أستعيد بها طفولتي،

فكنت أجد متعة وفرح كبيرين وأنا أتفنن بخياطة فستان او حياكة جاكيت لها..

هل كان يغار عليّ من كل ما يشغلني عنه؟هكذا تصورّت في البداية وقد غمرني فرح كبير وقتها،ولكن لاحظت انشغاله عني بعد تركي لكل ما يعترض عليه، ثم صرت لا أراه إلا نادرا..

لماذا تسحبني ذكراه مرة أخرى؟ها أنا ذا أنشغل به عن كل ما حولي ..

ماذا أقول لهم عنه؟ ليس ببعيد أن لا أذكر أمامهم أي شئ مما أعدت صياغته مرات،ومرات. لابد أني سأكتفي بجواب بسيط لمن يسأل عنه "أنه مشغول جدا،أو "وضعه الصحي سئ..لذا لم يأت معي"..أو ربما ستحسمين الأمر "سيأتي مع الأولاد بعد ان تهدأ الامور". هل ستهدأ حقا؟ كيف ومتى؟.

كنت أقضي معضم الوقت بانتظاره.لم أفكر بالعمل خارج البيت إلا بعد أن ضاقت بنا الحال،بعد أن كبر الأولاد وازدادت إحتياجاتهم،وازداد هو ولعاً بالشرب

والتدخين!لم اشتغل غير بضع سنوات طمحت بها أن أنال رضاه ويقدر المجهود الذي أبذله لمساعدته، والوقوف معه.

فوجئت به كما قالت ليلى،يحملّني جميلاً بالسماح لي بالخروج من البيت،الذي حاولت أن لا أدع فرصة له للومي فأحرص على أن يكون نظيفاً ومريحاً،كحرصي على تلبية كل رغباته.لم أعاتبه حتى لا نخلق جواً مشحوناً بالغضب أمام الأولاد..قد يكون فسّر عدم عتابه أو لومه وعدم محاسبته على أي تقصير،إهمالا له وقلة إهتمام!

وجدت نفسي أخطئ مرة أخرى،حين قرّرت ترك العمل لأترك تلك المهمة له، وأتفرغ للبيت وللأولاد..فقد صار لا يأتي للبيت إلا لينام،أو للتفرغ للكمبيوتر والإنترنت..صرت أشتاق له وهو معي.اقترحت عليه مرّات أن أدعوه للعشاء خارج البيت أو نذهب للسينما، المهم أن نقضي وقتا معا.صدمني بالرفض واعتبار ذلك ترفاً وتبذيراً لا داعي له.نويت أن اسأل السائق عن ما

يقوله الناس،ما يفكروا به،ما هي رؤياهم المستقبلية..هل هناك أمل؟..

ولكن صرخة مخيفة انطلقت فجأة من ليلى لدرجة أن السائق خفّض السرعة..

مسحت عنها حبات العرق، ومددتها بقارورة ماء.

– خير إن شاء الله..هل يؤلمك شئ..سألتها وأنا أنتظر جوابها بشئ من القلق.. تطلعت لي بذهول وأخذت نفسا عميقا، ثم صارت تبكي..

– لابد أنه كابوس. قالت نداء!

– صرنا نخاف النوم من كثرة الكوابيس.علّق علاء بهدوء،وهو يفتح قنينة الماء التي أخذها من حقيبته ليشرب.

– لابد أنه القلق على أبي صادق،وصادق.علّق السائق وهو يبتسم.

– ياه..الحمد لله إنه كان حلماً لكن أشعر بقلق على الأهل.. يا الله..اجعلهم سالمين يارب!!

بعد أن يأست من عودته، صرت أراه بأحلامي، رؤيا توقظ جراحا دفنتها، فتُضاعفُ من ألمي وحرقتي فأتمنى لو لم أره. فهل بالإمكان التحكم بما نحلم؟ كانت كوابيس. مرة رأيتني أقع بحفرة عميقة فأصيح به ليمد يده وينقذني، لكني ألمحه يتطلع إلي، وكأنه لا يراني ثم يحوّل نظره عني ليواصل حديثا مع صديقته.أصرخ بأعلى صوتي ولكن صوتي يختفي حتى إني لا أسمعه. تزداد الحفرة عمقا وأتهاوى لأصحو على صوت صراخي.

جلسَت بجانبي يوماً، عانقتني وبكت بحرقة "ماما نحن بحاجة إليك ... لا أريد ان أفقدك أنت أيضا..أرجوك.. لا أريد أن يُحرم أولادي مما حُرمت منه"!

لم تكن كلماتها صفعة لتوقظني بل كانت يداً رحيمة أيقظتني من كابوس يعذبني،أو لتنتشلني من الغوص في بحر لا قرار له. كنت قد أغلقتُ أبواب الحياة كلها. تقودني بإلحاح للحمام.تتحايل عليّ وزوجها لنأكل في مطعم لكي تضمن إحراجي وتجبرني على الأكل.لا تلفزيون، ولا راديو يشدني ولا زيارة أصدقاء او معارف

تغيّر مزاجي.بل صرت أحبس نفسي بغرفتي وأدّعي النوم كلما زارنا أحد.

إخوتها صاروا يتهربون من البيت، فقد صرتُ أشبه بغيمة قاتمة لا تُمطر ولا ترحل بعيدا.

عانقتها يومها،وبكيت كما لم أبكِ من قبل، كأنها أكدت لي موت (أكرم) في تلك اللحظة. فبكيت ليقيني بأني لن أراه،بكيت حرمانهم من أجدادهم،وأقربائهم،وحرمانهم من أبيهم، بكيت الطفولة والذكريات.شعرت بعدها بارتياح بالرغم من التعب والإرهاق.بل كنت فرحة كأن ثقلاً ما أُزيح عني،تلك الغيمة رحلت،تلك الصخرة تدحرجت فتخففتُ من ذلك الحمل الثقيل الذي أرهق كاهلي.

لم ترض عن إخوتها حين اشتروا بطاقة السفر، بسبب الوضع المضطرب.لكنها رضخت أمام اصراري.عانقتني وهي تشير لبطنها وتضحك "نحن في انتظارك، لن يرض المجئ الاّ على يديك.. فلا تتأخري".

توقفت السيارة بعض الوقت لتناول شئ من الطعام في مطعم للمسافرين، قبل الوصول لحدودنا.

لم تكن بي رغبة للأكل.فقررت الذهاب للمقهى الصغير المجاور لأشرب القهوة مع سيجارة.

أحقا رغبتك بالقهوة أقوى من أن تشاركيهم؟ أم إنه الهروب للانطواء على النفس أو التحليق في عالم الذكريات الغير مجدي؟.

حين عادت الغيوم تتراكم في الروح قاومتها بمحاولة جادة لإزاحتها، فصرت أختلق أسبابا لزيارة البعض من الأصدقاء. لكني كنت أفسّر كل لحظة صمت منهم،أو كل إعتذار عن اللقاء،هو رفضهم لي لأني الآن بلا رجل، وحدي لا بسبب غيرة زوجي عليّ،ولا لأنه بخيل كما تبرر بعض النسوة خلافاتهن مع الأزواج! وليس بسبب الأولاد.بل بسبب الخيانة،لا مني أنا،بل منه،أي أنا المرفوضة،أنا التي دفعته لذلك حسب تفسير البعض. وفوق ذلك،مازلت بلا رفيق ولا حبيب ولا خطيب!إذن أنا مشروع إستيلاء على زوج هذه أو تلك !

حاولت ان أتقرب منهم كأصدقاء فقط،يخففون من وحشة الطريق، يؤنسوني بكلمة أو سؤال.. لكني صُدمت

بالبعض منهم ممن إعتقد أن المُطلّقة مثل الأرملة في رواية زوربا،تتوهج بها الرغبة، والعطش للجنس لدى أي نظرة إعجاب من أي رجل. فأنكفات على صمتي، وقد يأست من العثور على صوت لرفيق للدرب الموحش ذاك.. وصرت أقطعه بلا أصدقاء.

هل بالغت بالاهتمام بهم لأوحي لهم بذلك؟ربما،أو قد أكون بالغت بالخوف منهم.الخوف من خطوتي التي صرت أحسب لها ألف حساب.

تطلعت صوب جماعتي،خرجوا من المطعم ونداء تلتقط صوراً لهم، وللمكان، والصحراء والقرى البعيدة. تقدموا صوبي وهم يلتقطون صورة لي أيضاً،لم أستطع الاحتجاج.جلسوا بجانبي،أعطتني ليلى حقيبة وهي تبتسم:

– لابد أنك جُعت الآن،هذا بعض الكباب اللذيذ مع الشاي.

شكرتها بابتسامة مُحرَجة،فقد نَدمتُ لحظتها لأني لم أذهب معهم، فكل لحظة أنفرد بها تقلّب مواجعَ وتنقلني لعوالم أريد نسيانها أو أدّعي.

في المقهى القريب من الدار،الذي كنت أهرب له كلما ضاقت بي الجدران.كنت أجلس هناك أتأمل الشارع والساحة الواسعة التي صار فيها كل شئ أبيض في ذلك اليوم.الهدوء،والبياض الذي شمل كل شئ حتى الأشجار، منحاني بعض الإحساس بالفرح.وصفاء السماء انتقل لروحي فشعرت بشئ من الصلح معها.لذلك ابتسمت له مرحّبة رداً على سلامه بأحسن منه،حاولت أن أتذكر أين رأيته؟أعرفه بالشكل،ابتسمت وقد مر بخاطري أن يكون ممثلاً أو مذيعاً من الذين نصادفهم أحيانا فنحاول أن نتذكر أين رأيناهم؟لكن وجهه مألوف.أقبل نحوي ثم سحب الكرسي الذي أمامي ليجلس،وكأنه تذكر"هل تسمحي لي بالجلوس" فأشرت له برأسي "تفضل".شيئا آخراً تأكّدت من أنه ليس من الأصدقاء القدامى،أصدقاء أكرم،فاؤلئك يحيّونني من بعيد ويتجنبون لقائي كلما صادفتهم! لم أسألهم لماذا.

لاحظ فراغ كوب قهوتي فعزمني على آخر.إبتسامة عريضة علَت وجهه "حتما لم تتذكريني" ابتسمت محرجة وأنا أُبرّر "العتب على الذاكرة".

شعرت بارتياح حين عرفت أنه أحد الزملاء الذين اشتغلت معهم،أحسست بحميمية إزاءه وهو يحكي لي بسلاسة وعفوية عن الزملاء،والعمل ومشاكلهم.منحني حواره شئ من الدفء،فانزاح عني التوتر والإنفعال. فصرنا نضحك على بعض الطرائف، والتعليقات.

الهذا الحد كنت عطشى لصوت أليف أسمعه ويسمعني؟كدت أبكي لذلك، لكني تمالكت نفسي وقمت معتذرة لإني تأخرت!فاجأني بسؤاله "لماذا لا تعودين للعمل؟".

"سأفكر!" قلت وأنا أبتعد.أردت أن أعود لأساله أن يطرح الفكرة عليهم.أن نلتقي مرة أخرى للحديث عن هذا الموضوع.لكني ترددت لئلا يفسر الأمر بما يحرجني. وحسمت الأمر مع النفس "لو كان متحمسا للموضوع، سيأتي للمقهى قاصدا ليخبرني".

ثقلت قدماي بالشعور بالندم "لماذا تضيعين فرصة كهذه؟ وأنت لا تعرفين شيئاً ينقذك من وحل الأسئلة الغير مجدية، سوى العمل".

حين رأيته بعد أيام،فرحت كالذي وجد قارب النجاة ليوصله للمرفأ.

"الله..تبدين متألقة أكثر من اليوم السابق".اطربتني كلماته،وقمعت صوت إستنكار جرأته."كيف يحدثني بهذه الطريقة ونحن لم نلتق غير بضع مرات،هل بالغت باهتمامي بمظهري؟".

حاولت أن أحيّده عن هذا الموضوع لأسئله عن ما جدّ في موضوع عودتي للعمل؟.

لم أفقد الأمل بالرغم من التردد الذي بدا عليه "حاولت أن أسأل المدير ،لكنه في إجازة هذه الأيام".

ثم بعد لحظات صمت سألني بحماس "هل لديك رغبة للتمشي في الخارج أشعر باختناق من المقهى".

تذكرت أغنية فدوى عبيد،التي لم أسمع لها غير تلك الأغنية الخفيفة(قاللي بتروحي مشوار.. قلتلو، لأ مابدّي، وأنا بدي.. وبدي وبدي وأكثر مابدّو بدي) ضحكت بفرح طفولي.لكني ندمت على تسرعي وقد لمحت بعض الارتباك على وجهه..فاعتذرت واخفيت السر وقلت "نخرج وسط هذا الثلج المتراكم" انفرجت أساريره،وهو يسحبني من يدي ويركض بي خارجا، لابد أنه اعتقد أن رفضي كان خوفاً من كلام الناس.أو لأني كبرت على تلك الابتهاجات الصغيرة.

لم يعطني مجالاً للتردد وصار كالأطفال يأخذ حفنة من الثلج القطني ويرميه عليّ..صرت بعد تردد أفعل مثله.نسيت كل شئ وقتها وصرت طفلة تحقق حلمها بالسير بتلك الأرض،كما كنت أراها ببعض الأفلام.فكم من مرة تمنيت على أكرم أن نسير في تلك الشوارع، لكنه كان يرفض الأمر بسخرية أحيانا واستنكار أحياناً!.

صار يركض خلفي حاملاً أكبر قدر من الثلج القطني ليرميه علي.تمنيت لو تبقى تلك اللحظات سرمدية أو أموت بعدها لأحتفظ بها للأبد.

سقطت على الأرض منهكة،فمدّ يده لي ثم توقف لحظات يتأملني، كنت أضحك كما لو أني لن أتوقف حتى شعرت بألم أسفل الصدر لكنه ألم جميل.تمالكت نفسي وأنا أرى نظرته لي وهو يتأملني، وشعرت بيداه تحتضن يدي كما لو كان يخاف أن تفلت منه، فحاولت سحبها محرجة.

"ياه لم أرك بهذا الجمال من قبل..لماذ كنت تخفيه بتلك الغلالة من الحزن؟"

شعرت بحرارة وجهي تشبه الحمّى وقد اصطبغت وجنتاي بحمرة الخجل.

عاد بي لزمن ولّى، زمن اعتقدته مات مع فؤاد.

قلت وأنا أشيح بوجهي عنه لئلاّ يرى انفعالي "لقد تأخرت على الأولاد لابد من العودة للبيت الآن".

"الأولاد..أي أولاد؟إنهم رجال ولكل عالمه..لماذ تحرّمين على نفسك ماتحلليه لهم". قالها وهو يسحبني من يدي ليدير وجهي إليه.

"عشت تلك المرحلة ولا يمكن أن أعيشها مرتين.. حقا إنهم شباب، لكن تبقى لي مسؤولياتي تجاههم" قلت بعصبية. فأخذ رأسي بين يديه وضمني إليه!فوجئت بتلك المبادرة لكني لم أقو على صدّه كما لو أنه باغتني، فاستسلمت له تاركة رأسي على صدره، ثم كأنه قال لي ابكي!فتحول الضحك إلى نوبة بكاء لم أسيطر عليها. حتى باغتني بقبلة دافئة.ارتعشت لها فرحا وخوفا، ولكني دفعته وصحت به بغضب "ما الذي تفعله؟ ما تصورك عني...؟"ركضت لأبتعد،خفت أن يأخذني الفرح به بعيدا وأفقد احترامي لذاتي..كيف يجرؤ على التصرف معي بهذا الشكل؟ لابد أنه استغل فرحي بصداقته، وابتهاجي

بالحديث إليه.وفسر الأمر على هواه.اسرعت للبيت لم التفت لمناداته.

توقفت السيارة فجأة مما تسبب باصطدام رأسي بزجاج النافذة التي أطل منها.وصاحت نداء مفزوعة!

- آسف إنها دورية! أو رتل لم أنتبه له من بعيد، لابد أن نقف حتى يبتعدوا.قال السائق باعتذار وفي صوته قلق ولكن من النوع الذي اعتاد ذلك الأمر.

تراكمت السيارات فجأة وكأنها كانت مختبئة.تصاعد تذمّر السائقين وخوفهم، بينما بدا البعض منهم غير مبالٍ فيعلق ضاحكا:

- جبناء يخافون من خيالهم،مع أن العبوات الناسفة والانتحاريين لا يترصدون سوى الأبرياء منا. فرد آخر بأسى وغضب:

- بل هم يترصدون الأطفال والنساء،ألم تسمع عن تفجير السيارات قرب المدارس والأسواق؟.

نزل السائق يتحاور مع بعض السائقين. ثم عاد غاضبا وقلقا.

- خيراً ما الأمر؟ سألت ليلى بصوت مثقل بالنعاس.

- يقولون أنهم ضربوا التاكسي التي كانت أمامنا، البعض يقول انهم ضربوا السيارة فقط.

انتابتنا حالة من الخوف والفزع. فقال علاء:

- كان يجب على السائق أن ينتبه،خاصة في مثل هذه الظروف.

-أما كان الأولى بهم أن يضعوا اشارة لتنبيه السائق؟ تساءلت نداء بغضب واحتجاج.

ابتسم السائق وكأنه يرثي لها جهلها.

-إنها الحرب يا عزيزتي،لا يمكنهم أن يحملوا إشارات التنبيه أينما رحلوا.

-اللعنة عليهم،إنهم السبب في كل هذا الدمار،هم السبب بوصول البلد لتلك للحالة،والسبب بجعل هذا الطريق الذي لم يبال به أحدا من قبل، المنفذ الوحيد لنا.. تطلع لعدد المصفحات والمدرعات؟ كلها لحماية شاحنات النفط المتجهة لأحبابهم وعملائهم!..إنه النفط الذي استفاد غيرنا منه حتى في عز الحرب وصار نقمة

علينا..المهم حماية شاحنات النفط الخارجة من العراق، بالوقت الذي لا يجد أهله الوقود والكهرباء.انظر مازالت العشرات تمر..أما كان الأولى بهم أن يؤجلوا البيع في هذه الظروف على الأقل؟ قالت ليلى بعصبية، كما لو أن السائق أحد المخططين لذلك.لا ألومها فأنا ايضا تضاربت الأفكار برأسي ولا أعرف تفسيراً لما يجري.

خرجت من السيارة مع القليل من النساء اللاتي نزلن لإراحة أرجلهن أو مثلي لمنح ظهورهم بعض الراحة بعد طول الجلوس.

تصاعد الغبار والتراب مع عجلات السيارات ليغطيها كلها،فدخلنا بعد أن أخذنا شحنة لا بأس بها من الغبار الذي دخل صدورنا وعيوننا.

ثم قرر السائق أن يأخذ الطريق الترابي القديم، إختصارا للوقت.فمشت السيارة وسط عاصفة ترابية صفراء، كانت الصعوبة حتى برؤية السيارة التي أمامنا، فصاح أغلبنا منبهاً السائق أن يكون أكثر حذرا.لم يحتجّ هو على تدخلنا،بل تقبل ملاحظاتنا بصدر رحب،لابد أنه قدّر حجم الخوف الذي انتابنا. فلا ندري عن هذه الطرق ولم نرها من قبل.

جاءني بعد زمن حيث انقطعت عن الذهاب للمقهى. كنت وحدي في البيت، قدم لي باقة من الزهور، تأملتها وأنا أفكر هل أسمح له بالدخول؟

"آسفة.. أنا وحدي في البيت" قلت بتردد.

"كل يوم أذهب للمقهى علّي أراك..حتى يأست..عندي كلاماً أريد أن أقوله لك،معي سيارةً الآن لآخذك برحلة لأريك أجمل بحيرة في العالم" .

ترددت وضاعت كل الكلمات وكل الحوارات التي هيأتها من قبل. فقال بتوسل "أرجوك هناك موضوع مهم لابد أن تسمعيه".

مشيت كالمنومة ولبست معطفي وخرجت معه.

كانت السيارة تسير وسط الثلج الذي يتناثر رذاذا حولنا،أشبه بغبار أبيض ندي،وأنا أبحث عن بعض ما حضّرته لما توقعته من كلمات.

وصلنا البحيرة التي كانت حقا كأنها قطعة من الجنة، للحظات نسيت حيرتي وقلقي،أتأمل المكان وامتداد البحيرة بمياهها الهادئة المسالمة،تحيطها الأشجار

الخريفية بألوانها النارية المتعددة.وأنا لا أدري ما الذي أتى بي إلى هنا. نزل وهو يحثني لأرافقه،ماداً يده لي.

صرت أرتجف، فقدم لي كأسا من الشاي من الترمس الذي معه،وهو يتطلع لي بنظرة فيها فرح وسخرية من خوفي وقلقي الذي لا مبرر له.

"ما الذي يقلقك مني؟" أحنيت رأسي وكأني لا أسمعه. فواصل الحديث بهدوء "حقا لم أنتبه لك من قبل..ولكن حين رأيتك في المقهى في المرة الأولى،انتابني إحساس بالفرح لم أعرف تفسيرا له،وحين رأيتك مرة أخرى شعرت وكأننا نعرف بعضنا لسنوات،فأيقنت أنه أكثر من إعجاب..فلم أستطع إلا أن أفكر بك طوال الوقت، وأعتقد أنك تشاركيني تلك المشاعر".قال بثقة وتأكيد وأخذ ينظر لي منتظراً ردي.لكني نظرت للأرض وكأني أبحث عن كلمة سقطت هناك.

فقال بإصرار ربما ليكسر جدار الصمت " لابد لنا أن نواصل الحياة..كلانا فشل في تجربته،ما الذي يمنع أن نعيش من جديد؟".

"أنت مازلت شاباً،وليس لديك أولاد..أنا لي أولادي، ولا قدرةً لي على التجريب مرة أخرى".

"أنا بعمرك.. لست مراهقاً، وأنت أيضا مازلت شابة.. والأولاد لن تبعدي عنهم، لن آخذك منهم سأشاركهم ربما ببعض من حبك وحنانك".

"خرجت معك في المرات السابقة،لأني حسبتك صديق شعوري بالوحدة جعلني أثق بك وأتصرف بحرية معك، كنت سعيدة بصداقتك". قلت وأنا أشيح بوجهي عنه أتامل السكون الذي يشمل المكان، لعلّه يمتد لي فأشعر ببعض الهدوء أو أتخلص من بعض إضطرابي وقلقي.

سار هو نحوي ليقابلني وينظر لعيني "أنا سعيد بثقتك بي،وعندي أمل أن أسعدك أكثر،لو صرنا أكثر من أصدقاء.. أنا أحتاجك صديقة وحبيبة.."

"وماذا سيقول الناس عني؟" همست بحشرجة.

ارتفع صوته وهو يحتج."أي ناس؟..هل احتج أحدهم على سلوك من رحل عنك بلا كلمة ولا وداع؟.. لماذا هو لم يفكر مثلك؟".

"لاعلاقة لي بما يفعله هو..ربما أنا جبانة وأحسب حساب كل خطوة".

ضمتني يداه وهو يشد على ذراعيي محاولاً أن يقبلني فأشحت بوجهي عنه، لكني عجزت عن الهروب من بين يديه.

"حسنا..لن أحرجك.. لنبقى أصدقاء، ولكن أكثر بعض الشئ، لأني أشتاق جسدكِ كاشتياقي لقلبك، ولابد أن لك نفس الشوق" قال وهو يتأمل عيناي.

حمى انتابتني،أهي خيبة أم غضب؟ بلى جسدي يشتاق ليديه،شفاهي تشتاق لشفتيه.لكن قلبي وعقلي هما من يتحكمان بشوقي.

لم أقل له ذلك،كنت أنتظر منه حباً،واحتراما أكبر. خاصة وأنا أعيش الخوف الذي لا يمكن ازاحته بهذه السرعة، وبسهولة.

"عفوا تفكيرك غير تفكيري،لا أستطيع فعل ما تريد". ثم وأنا أتجه للسيارة "أرجوك لنعد للبيت الآن".

كل الطريق تمنيت أن يحتضن يدي بيده، تمنيت أن أضم يده،تمنيت أن يعتذر.أو على الأقل يقرّب لي وجهة نظره.لكنه بقي صامتاً طوال الطريق.أردت أن أسأله هل

سأراك مرة أخرى؟ لكني نزلت وأنا اشكره على الورد. اكتفى بابتسامة فيها من الخيبة الكثير.

لم أنم ليلتها صرت أتعذب،وأنا أحاول أن أستدرج النعاس لعيني،بعد ان اطفأت الأضواء،واختبأت تحت اللحاف "هل اخطأت بحقه؟هل يمكن أن أعتذر له،عن ماذا؟ عن رغبتي أن يكون صديقا؟ أليست الصداقة أكثر قدسية وأبقى؟ كيف أصدّق أنه يحبني؟مهلاً هو لم يقل شيئاً عن الحب! عند هذه الكلمة نهضت ووقفت بقرب السرير، ثم أسرعت للمطبخ أشعل سيجارة. ماهو الحب؟ هل هو "الحرفين ليس أكثر" هل هو لحظات الفرح أو الرضا التي نعيشها؟أم هو الكلمات الملونة التي نسمعها فنراها وكأنها هي اليقين،ونغمض أعيننا عن كل ما حولنا.

مسكينة هي المرأة،كم تؤمن بالكلمات وتصدقها وتركض لها كركض الظمآن للسراب. هل أحببت أكرم؟ بلى كنت أشتاق إليه،واعتقد أهلي إن إصراري عليه كان حباً أكثر منه عناداً لهم. وظننت أن علاقتي نجحت معه لأنه كان صديقاً،بل اعتقدتها أفضل من علاقتي بفؤاد فيما لو الزمن أمهله قليلاً، ورضي أهلي به..

لكن تسرعه هو الذي جعلني أتردد.. حين كنا زملاء، بالكاد كان يلقي التحية.ربما لأني كنت حزينة،ألا تذكرين كيف كان فرحا وهو يراك تضحكين "كم أنت جميلة، لا يليق بك الحزن."

انتظرته،بلى انتظرته لكنه لم يأت.لم يسمح لي كبريائي أن أتوسل صداقته.فعدت من جديد أدور بين كتبي، لعل الأيام تمضي وينتهي عقدنا مع الحياة.

وصلنا أخيراً لنقطة الحدود والتفتيش العراقية، مازال البناء القديم يحتفظ ببعض الوانه ورونقه.تهديم هنا وهناك.الأجهزة كلها معطّلة بل مخرّبة.تحيط المكان وجوه بلا تعبير،القلق والخوف يوحد وجوه المسافرين، والتسرع والجزع بادٍ على وجوه الحراس العراقيين،لم نجرؤ على الحوار معهم، صار لدي يقين أن بعضهم ربما من الأردنيين الذين استغلوا الفوضى للعمل هناك. وجوه الجنود من قوات الإحتلال،لا نرى منها غير الخوذات،قد يكون هو الخوف أيضا جعلهم لا يقتربون بالقدر الذي يسمح أن نقرأ به تعابيرهم.

–اطمأنوا.. قال السائق وهو يفتح باب السيارة ثم يهمس بصوت مسموع "بضع آلاف تحل الإشكال ولن

يعطلّونا بالتفتيش، وإلا سنبقى ساعات لو فتحوا الحقائب كلها".

-أتمنى أن لا تعطيهم رشوة، سنتحمل الانتظار، ولابد أن الزملاء يشاركونني الرأي لأنه بصراحة..هذه الوسيلة هي التي شجعت بعض المجرمين على الدخول بسهولة ليرتكبوا كل الجرائم،من قتل واختطاف وسرقات وغيرها. قالت ليلى بحماس.

أيّدتها بالرغم مما في ذلك من مغامرة قد تجعلهم يعاملونا بسوء،أو يفتعلون أي وسيلة لعدم السماح لنا بالدخول.

- أتفق معك، لكن الأمر الآن فوضى،لا حكومة ولا مسؤولين ممكن الشكوى لهم أو مطالبتهم بالتدخل، إذا ما حاول البعض أن يفتعل أي سبب لتعطيلنا..إذن هو شر لابد منه..لا تنسي أنهم اعتادوا هذا الأمر خاصة في سنوات الحصار،ولا يمكن أن يتغيروا بهذه السهولة خاصة في هذه الفوضى.قال السائق وهو يصر على رأيه.

-أعرف أن الأمر صعب،وأنا معك فيما تقول،لكن إذا رفض كل واحد منا الخطأ،لن يستطيعوا تعطيل الجميع، إلى أن يألفوا أنهم لابد أن يتخلصوا مما اعتادوا عليه من أدران الماضي أو فوضى الحاضر. قلت بشئ من الحيرة والتردد.

فقال علاء بشئ من التذمر:

– لسنا بوضع يسمح أن نلعب دور المصلحين..ربما هؤلاء مساكين أيضاً ورواتبهم بهذه الفوضى لا تصلهم، إذن تلك المبالغ لمساعدتهم ومساعدتنا للوصول بسلام، ولا أعتقد ان الوضع مناسب لاستعراض بطولات وهمية.

بالرغم من غضبي من تعليق علاء، لكني أرى أن كلهم على حق، إنها حالة تدعو للذهول،ما الذي ممكن أن نعمله لو أحدهم تشاطر وأراد أن ينتقم منا بسبب بضع آلاف من الدنانير التي صارت لا تساوي غير بضع دولارات.

ربما يضع شئ من الممنوعات بحقائبنا أثناء التفتيش أو سلاح له ويدّعي أنه لنا. هل مكاننا أن نثبت عكس

ذلك؟ .ولمن؟إحساس حاد بالمغص انتابني،تمنيت لو أن السائق لا يسمع لنا.

وهو فعلا كان قد ابتعد ومضى مع بعض السوّاق يتهامسون ويضحكون غير مبالين بما يحصل أو مما قد يحصل!

ربما اعتادوا الأمر ولابد لهم من مواصلة الحياة بأي شكل.

شربت كثيراً من الماء لأخفّف من القلق أو لأطفئ بعض الظمأ.لا أريد أن أموت هنا.. أريد أن أعود.

شعور بالحنين اجتاحني لسماح،لأسعد وللحبيب سامي.

"متى تعاملينه كرجل، وتكفّي عن تدليعه" غضب أسعد من محاولتي لايجاد مبرر لسامي، بعد فشله بالدراسة.

كان عمره ست سنوات حين جائني يوماً وفي عينيه خوف وتردد وهو يهمس.

"ماما أريد أن أقول لك شيئا،بس..أرجوك لا تغضبي.." ابتسمت وقد انتابني فرح وأنا أراه يكبر بتلك اللحظة التي اضافت له سنيناً من الحكمة ليختار تلك

الطريقة ليصارحني بما يشغله،وبهذه الثقة التي يفتقدها الكبار.

"نعم يا حبيبي،قل ما الذي يشغل بالك". قلت بفرح وأنا استعجله لأسمعه.

"لكن عديني أن لا تكوني عصبية" قال بتوسل.

هنا صارت فئران القلق تتقافز في أحشائي.ما الذي يشغله ويتوقع أن أغضب،هل اعتدى على زميل بالمدرسة؟هل فعل شيئاً في البيت ويعرف أنه سيغضبني؟ هل اعتدى عليه أحد؟يا إلهي..تمالكت أعصابي وأنا أطمئنه بابتسامة.

"أعدك أني لن أكون عصبية.. بالعكس أنا سعيدة أنك ستصارحني،وهو ما يفرحني".قلت محاولة طمأنته وبنفس الوقت حاولت ألا ألح عليه.

تردد، وازداد فزعي وأنا أراه يبكي! يا رب ما الذي يشغله أو يؤلمه؟عانقته وأنا اتوسل إليه أن ينطق.خفت أن أفقد السيطرة على أعصابي وأصيح به أو أربكه وربما لن ينطق بعدها بما يريد. أحنى رأسه وهو يقول بصوت منخفض:

"أنا أريدك أن تسامحيني،لأني أحيانا حين ترفضي طلباً لي أو تصرخي بي حين أفعل شيئ خطأ.. أشتمك، وأسبك".تطلّع لي ليرى ردود فعلي "هل هذا كل ما يشغلك؟" سألته وأنا أشعر بارتياح كبير بعد هدوء العاصفة الهوجاء التي شعرتها تدور بداخلي منذ لحظات. هزّ رأسه وبريق عينيه يوحي بالقلق.الله...وددت أن أعانقه وأبكي،وددت أن أشكره على صراحته وصدقه، على تأنيب ضميره بالرغم أن الأمر لم يخرج عن بواطن روحه النقية العذبة.عانقته وقبّلته من جبينه.

"ها سامحتيني؟ "همس غير مصدق ردة فعلي.

"طبعا أيها الحبيب..هو خطأ كبير أن نشتم الوالدين، طبعا،فهم مهما غضبوا من الأبناء،لا يخرج عن حبهم لأولادهم،وحرصهم عليهم،وأنا أيضاً آسفة لأني أغضب عليك أحياناً وأدفعك لذلك،لكن لابد أن تعرف أنه بسبب حبي لك وخوفي عليك،ولأني أريد لك الأفضل بكل شئ وأولها السلوك فحبي لك لا حدود له،وأنا سعيدة وممنونة منك لمصارحتك لي".

فرحُ غامرٌ شمل وجهه الصغير واشرقت عيناه بسعادة وهو يقبّلني.

بالرغم من حزني الشديد لتركه الدراسة.كنت أقول الحمد لله أنه بخير،وبصحة جيدة المهم انهم لم يلجأوا لطريق الخطأ.هكذا تضائلت طموحاتنا وآمالنا لتتوقف عند الصحة فقط والإحساس بالأمان.

كان موقفي ضعيفاً،أعرف أن أسعد كان محقاً فيما يقول.ارتبكت ولا أدري كيف أعمل بعد رحيل أبيهم، شعرت وكأني أنا السبب بفشلهم.فصرت أبالغ بإيجاد الأعذار لهم أو تبرير تقصيرهم معي أو مع أنفسهم.تلك الحالة أربكتني وجعلتني أشعر بالخوف أكثر،الخوف عليهم من ضعفي وعدم اتخاذي قراراً حاسماً معهم. الحمد لله أن علاقتهم ببعض كانت قوية وهي التي حسمت بعض الأمور لصالحهم و صالحي.

حين اكتشفت أن أكرم بدأ يكذب عليّ"أنا ذاهب لزيارة ماجد" وتفضح كذبته حين يتصل ماجد بعد ساعات للسؤال عنه.وحين أواجهه،يرتبك ويبرّر أنه غيّر رأيه.. لم أكن أغضب في بادئ الأمر، بل كنت أشعره طفلا يخاف إغضابي،والكذب مصدره الخوف في أكثر الأحيان.لا أدري لماذا أسعدني الإحساس بالأمومة له

وتقبلت كذباته التي كنت أراها صغيرة ولم أتوقع أن تكبر وتتكاثر للحد الذي صارت تسبب لي قهراً وغضباً صامتاً احتل كل تفكيري.

اعتقدت أن سكوتي سيجعله يفكر بالأمر ملياً وسيؤنّبه ضميره،وقد يعدّل سلوكه،قد يتذكر حبنا يوما ومن يدري قد يعتذر لكنه لم يفكر بالاعتذار يوماً ولا حتى تبرير ذلك السلوك.تألّمت وقد صرت أراه دون ابنه،طفلنا في السادسة من العمر.

"لماذا لا تعملي مربية أطفال؟" سألتني بعد يأسي من عودتي للعمل.ثم تابعت "البيت واسع ونحن نأتي من حين لآخر،فبإمكانك أن تساعدي بعض الأمهات العاملات، لتكون أشبه بروضة صغيرة للأطفال".فكرة رائعة،لكني لم أنطق بكلمة وقد صرت أتخيل نفسي بين مجموعة من الأطفال.

"وأنا سأحاول أن أساعدك كلما سنحت الفرصة" تابعت وهي تقرأ الحيرة في وجهي.

سأكون جدة! شعور خليط من الفرح والحزن انتابني، فرح وأنا أتخيل طفلها بين يدي فأستعيد لحظات ولادتها

والسعادة التي غمرتني يومها.ثم لحظات الفرح وأنا أتابع خطواتها،وكلماتها الاولى.كل ذلك سأستعيده من جديد.. مع ذلك الفرح،انتابني حزن للسنين تنفرط هكذا بسرعة، أتطلع للمرآة لأرى أخاديد الزمن تحفر الجبين وكأنها بسباق معه.

"أشكرك يا حبيبة" قلت وأنا أعانقها "أنا حقاً أحب الصغار،لكن صغاري أنا شئ،وأطفال الآخرين شئ آخر إنها مسؤولية كبيرة وأنا لم أعد قوية مثل قبل فالزمن اتعبني..ماذا أفعل لو أن أحد الأطفال تعرض لحادث أو مرض فجأة؟!". فسكتت ولم تعاود إقتراح ذلك.

لو عدت لهم سالمة سأقدم طلباً رسمياً بذلك،سأطلب من الجيران أن يبثّوا خبر استعدادي لتربية الأطفال، وسيكون إبنها هو الدافع الأول، ليكون بين باقي الأطفال ولن يشعر بالوحدة. هكذا وعدت نفسي بحماس.

سخرتُ مني وأنا أتذكر حواري معهم وإصراري على العودة لأساهم بالبناء."الوطن الآن مخرب تماما بعد تلك الحروب الطاحنة،وبحاجة لكل جهودنا مهما كانت لإعادة بنائه،وكل منا لابد من أداء واجبه".

ها أنت تخططين لغير ذلك،وقبل حتى الوصول إليه، قبل رؤية حجم التخريب الحقيقي،قبل التأكد مما قاله السائق"أن ما سمعتموه أو رأيتموه على الشاشات الصغيرة ليس سوى جزء بسيط من واقع سترونه بأعينكم" ثم تابع وكأنه أراد أن لا يثبط عزيمتنا: "لكن الأمل كبير بالنفوس خاصة والناس هناك صمدوا كل تلك السنين بوجه الحصار والحروب والقهر اليومي".

انتبهت لحديث ليلي عن صديقتها وبكائهما معا على التليفون،تذكرت (حياة) وصورتها الوحيدة التي وصلتني منها بالحجاب بعد زواجها من قريبها الذي يكبرها بخمسة عشر عام.

بقيت على إتصال بها،بعد رحيلنا كنت أكتب لها عن كل شئ،عن أيامنا في سوريا،وسنواتنا في الجزائر. ولكن انقطعت كل الأخبار حين وصلنا بلاد الثلج،حين أخذت الحروب منحى أكثر بشاعة وقسوة ووصلت لحدود كابوسية.فماعاد هناك بريد ولا تليفون،ليتحول الوطن كله إلى جزيرة نائية تحيط بها الأسلاك ولا مجال للوصول لها.في البداية ظننت انها خطيبة أكرم،ثم عرفت

أنها قريبته،وحين لاحظتُ الدهشة على وجهي. وأنا أعرف أنه كردي وهي عربية وأجدادها،من أحفاد الرسول (ص) أي (سادة) كما يسموهم!فعرفت أن إبن عمها متزوج من أخت أكرم.. زميلته في العمل.

لذلك صار أكرم بعد تخرّجه يزورنا بحجة قرابته تلك لحياة.ثم فرحتُ كثيراً حين لاحظت إعجاب أخي أمير بها.لذلك وقف معي حين خطبني أكرم،واعترض على أبي،وإخوتي وأقربائنا ممن استنكروا موضوع خطبتي لكردي!شكرته لموقفه،ولو كنت على إستعداد للإصرار على رأيي،فقد كان الإحساس بالذنب من فقدان فؤاد يعيش معي.

قدّرت موقف أمير ذاك وأنا أعرف أن جزء منه هو للتقرب من حياة التي لم يفاجأ أهلي كما فوجئت أنا برفض أهلها القاطع!فصرت أعاتبها على مجاراتهم ولكني تفهمت حرصها على عدم إحراج أو إغضاب أبيها هو الذي جعلها ترضخ لهم.

لماذا؟سألتها باستنكار "نحن مسلمون ومن بلد واحد، ونكاد أن نكون أقرباء..النبي ذاته زوّج بناته لأصحابه

ولم يصر على تزويجهن للأقرباء فقط..وهذا قبل مئات السنين!ثم كيف إبن عمك يتزوج من كردية؟بينما أنت، يرفضون خطبتك لأخي الذي هو عربي ومسلم؟".

قالت بهدوء والدموع تملأ عينيها "ما يحق للرجل لا يحق للمرأة" ثم صمتت وكأنها تذكرت شيئاً فقالت بحزن "إنه نفس السبب لرفض أهلك للأستاذ فؤاد".

فوجئت بكلامها فتسائلت بدهشة "ماذا؟فؤاد من بلد آخر".ثم استدركت " فؤاد لم يخطبني..من أين جئت بهذا الكلام.. "

أعادني حوارها لتلك الأيام استعدت إصغائي لصوتها وكأنها معي الآن "كنتِ قد نسيتي الكتاب معي،فأخذته لأعيده لكِ في اليوم التالي،وتذكرت نصيحة الأستاذ بقراءته فصرت أتصفحه فلاحظت الرسالة،ترددت في قراءتها في البداية،لكن اعتقادي أنها منه جعلني أفتحها وأنا أبكي.قرأتها وأخذت أبكي أكثر وبشكل لم أسيطر به على نفسي،حين عرفت أنها منكِ..حتى أهلي استنكروا بكائي بذلك الشكل..وبنفس الوقت شعرت بأذى وعتاب عليك، كيف تخفي عني أمراً جميلاً كهذا؟ كنت أظن أننا أكثر من صديقات".

كانت تتحدث بانفعال،تعانقنا وأخذنا نبكي خيباتنا.لكنها انتبهت فهمست وهي تمسح دموعها "المهم أتمنى أن يعوضك أكرم عن كل ذلك،فهو يُحبك حقاً ولم يتوقف عن الحديث عنك كلما التقينا".

لم أكن أتصور أن الأمر سيؤذي أمير بالشكل الذي حصل،أصبح لا يأتي للبيت إلاّ متاخراً،وأمي تتحايل عليه محاولةً إقناعه بخطبة هذه أو تلك من الفتيات الجميلات من قريباتنا،محاولة منها التخفيف عنه.لكنه رفض بشكل قاطع،حتى زياراته لي بعد زواجي قلت،فصرت أضطر احياناً للمبيت في بيت أهلي لأحظى بلقائه.شعرت بخوف عليه من تماديه بشرب الكحول،حتى أقنعه أكرم بفكرة الذهاب للجزائر للتدريس هناك،كانت تلك الفكرة الوحيدة التي يمكن أن تخرجه من التفكير بحياة حُرمت منها أنا أيضاً،فصارت لا تزورني إلاّ قليلاً خوفاً أن تجد أمير معنا.بعد سنتين من وجوده بالجزائر تعرّف على زميلة له هناك وتزوجها،فتاةً جميلةً جداً وشقراء أيضاً مثل حياة.

قبل أشهرٍ فقط عرفت من أمي أن إحدى أخوات حياة تزوجت من زميلها الذي لم يكن من أقربائهم.فرحت أنهم

أخيراً تخلوا عن تلك الفكرة العنصرية التي آذت فتياتهم وحرمت الكثير منهن حرية الإختيار،والزواج،لتكون نسبة العنوسة بينهن أكبر مما هي عليه بالفئات الأخرى.

بفضل أمير استطعنا أن نلحق به هناك ونعيش بضع سنوات قبل الهجرة لكندا.بعد أسابيع في سوريا ذقنا بها العذاب،والخيبة،والقلق والغربة الفعلية،الأمر الذي لازمنا أيضاً في الجزائر بالرغم من طيبة أهلها وكرمهم.لكن الذي خفّف عنّا هو فرصة العمل هناك التي بها حظينا بالاستقرار الاقتصادي وقد منحنا الإحساس بالأمان بعض الشئ.مع ذلك كان الشعور بالغربة نراه مجسّما ونلمسه بتعليقات البعض في السوق أو في الشارع ومن خلال تعامل الناس معنا. كانت لزوجته رغبة قوية للّحاق بنا، لكنه كان يرفض وبقي ينتظر لحظة العودة للوطن بفارغ الصبر.وعرفت أنه سبقني لهناك،على أن تلحق به زوجته، وأولاده فيما بعد.

ازدادت علاقتنا عمقاً وقرباً خلال الغربة،فكان هو كل العالم الذي يخص الطفولة والأهل، قد صرت أشعر بحرية التفكير،والتصرف معه بشكل لم أتوقعه من قبل،

لكن بالرغم من احساسي بقربه لي والعاطفة العميقة التي أخصه بها،كان شعوراً بالهيبة منه يفرض عليّ حتى التردد من إعلان تلك المودّة أو التعبير عنها.

فلم أكن أجرؤ على المزاح أمامه أو الخصام والمشاجرة مع إخوتي الصغار.فما أن يصل البيت حتى يعم الهدوء ويؤجل العراك إلى حين،بل كنا نحسب لتصرفاتنا ألف حساب بوجوده أكثر من أبي.

كان لصمته وقلة حديثه وقع السحر علينا فكنا نصغي للكلمات التي يقولها أو للأوامر التي يمليها علينا بشئ من الهيبة والقدسية كما لو كنا أمام أستاذنا مع الفارق أننا كنا نفعل ذلك بحب ورضا،على عكس سلوكنا مع المعلمين الذين كنا نحقد عليهم لمزاجيتهم،وتحيزهم لبعض التلاميذ دون غيرهم.

كان بالنسبة لنا البطل والأستاذ والملاذ،حتى بشكوانا من الأهل.فكل مايقوله لا مجال للشك أو النقاش به، لدرجة كنا نفاجأ غير مصدقين حين نسأل عن شئ ويقول لنا "لا أعرف" فنفسر جوابه ذاك تواضعا أو ربما للتخفيف من إحساسنا بأنه معصوم من الخطأ.ربما صمته للتخفيف من إحساسنا بأنه معصوم من الخطأ.

ربما صمته معظم الوقت واختياره للّحظة المناسبة للكلام،يجعل لحديثه طعما آخراً ومعنى أكثر دلالة.لابد أنه ورث ذلك عن أمي التي منحته تلك الميزة فقد كانت مثله صموتة،إضافة الى أنها كانت تلجأ له في كثير من الأحيان في حالة الشكوى من سلوكنا او حين نرفض لها أمراً حتى بوجود أبي.خلال وجودنا معه شعرت بغضب أكرم منه،فسّرت الأمر حينها بسبب حالة القلق واللااستقرار.لكني اكتشفت لدهشتي،أنها كانت نوع من الغيرة خاصة حين أتحدث للأولاد عنه،وأخبرهم عن شخصيته بانفعال،وحب وتشويقهم للقائه.

صرت كلما تذكرته ينتابني إحساس بالحزن والرغبة بالبكاء، لشعوري بالندم لأني لم أقترب منه أكثر،لم أفتح صناديق القلب أو الفكر حتى في بداية إكتشافي للتغيير الذي لمسته بسلوك أكرم قبل الهجرة فقد كنت أتردد وأصمت حين أرى الحزن في عينيه الذي يحاول أن يغطيه بغلالة من الضحك أو الغناء الذي يجيده ويجعله يعيش لحظات تجلّي أشعر برغبة لأعانقه ولكني لم أفعل،ربما بسبب احترامي الطفولي له.أزداد لهفة للوصول لأعانقه طويلا لعلّ قربنا الآن يعّوض ما فات ويطفئ بعض الشوق والندم.

زرعت وجهي بزجاج النافذة وكأنهم هناك أراهم يطلّون علي أعانقهم فيختلط الفرح والضحك بالبكاء، غطّيت وجهي بالشال ونمت.

لا أدري كم استغرق الوقت شعرت كما لو كان مغماً عليّ.فتحت عيناي بصعوبة فقد كانتا مُثقلتين بالنعاس، أتطلّع لشوارع تكاد تكون مهجورة تماماً،أو كما لو أن أهلها تركوها لبعض الدبابات تجوبها مقتحمة أكوام المزابل والنفايات المتناثرة هنا وهناك.صفوف المباني المتآكلة الجدران بعضها محروق وآخر مهدّم،حتى المأهولة منها كانت كأنها آيلة للسقوط،وأخرى بدت كما لو كانت ملصقة ببعضها بلاصقٍ رخيصٍ وبشكل مؤقت.

-نعيما.ابتسمت ليلى،وهي تضع يدها على يدي." وصلنا هذه هي بغداد.. ".

تطلعت حولي "هل تمزح؟"فسألت بدهشة يملأها النعاس،والتعب "وأي حيّ هذا؟"

-هذه الأعظمية.أجابت فرّحة،ليُكمل السائق الذي لابد أنه من زوّدها بتلك المعلومة،ليشير للبناية التي قصفت أكثر من مرة.أكوام أسمنتية وكتل صخرية فوق بعضها، تركت هكذا لتبقى شاهدا.

الشوارع ضيقة تآكل تبليطها الذي لم يعرف التجديد، قليل من الاشجار مازالت تقاوم بفضل حرص الناس على تقاسم قطرات المياه معها،وهم يسقوها بخراطيم المياه ويغسلوا عنها بعض الغبار الذي تراكم على أوراقها، لإعادة الخضرة لها بالرغم من قلة الماء.

يشير السائق لسور حديث وطويل يمتد بطول شارع آخر ضيق نسبيا يحيط ببيت واسع أشبه بالقصور أو فيلا لا علاقة لها بالمباني الأخرى فنعرف أنها لأحد الأغنياء من الذين تسابقوا على بناء القصور أيام الحصار!.

نسيت قراري أو رغبتي بأن أنزل وأقبّل أول شارع حال وصولنا لبغداد.انشغلت بتأملها بذهول وأنا أراها وكأنها أهملت لعقود، وأهلها عادوا توا، يغسلوها ليزيحوا عنها الغبار الذي تراكم والذي وحّد النخيل والمباني والوجوه بلون واحد.تلاشى الإنفعال الذي وصل لحد البكاء قبل الآن.

خمد الفرح الذي كان يجعل نبض القلب كالطبول، فصارت كل المشاعر حالكة فلم أحفل لما قاله السائق الذي كان أكثرنا فرحا ربما،بإنجاز مهمته العظيمة

بتوصيلنا سالمين وقد تمكن من تجاوز كل المطبّات والمزالق التي نصبها قطّاع الطرق أو قوات الإحتلال، فهتف فرحا:

- الحمد لله على سلامتكم..سأوّصلتم لأهلكم الواحد بعد الآخر .

- أشكرك حقاً.. الحمد لله على السلامة لكم جميعا.. قلت وكأني أردت أن أتأكد من قدرتي على الكلام.

- إذا تسمحون لي؟ قاطعتني ليلى."لدي إقتراح..الأخ علاء أمه مريضة..ويتوقع أن يتوفاها الله بعد أيام لا سمح الله،الأعمار بيد الله وإن شاء الله تتشافى..فأقترح أن نوصّله هو الأول،على الأقل لنعرف العنوان لنزوره فيما بعد".

كان علاء يتطلع لنا بلهفة وشعر بارتياح بالغ لإقتراحها لابد أنه حكى لهم عن أمه أثناء نومي.لم يعترض أحدنا بل كانت مبادرة جيدة،ولو أنها ستضاعف الشوق للقاء الأحبة لساعات أخرى.

- هل تريدون أن نتوقف هنا بعض الوقت لتغسلوا وجوهكم وترتاحون بعض الوقت؟

رحّبت نداء بالفكرة وأخرجت كاميرتها لتلتقط صوراً لنا،وللمكان وكل ماتقع عليه عيناها.

صدمتنا حرارة الجو التي لم نتوقعها لأن السيارة كانت مكيّفة.فدهشت لرؤية بعض المارة أو الأطفال في مثل هذا الحر.

توالت الشوارع التي صارت تتسع في الأحياء الحديثة،استقبلنا بنايات سوداء كالحة،بعضها أسود إهمالا أو حرقاً أثناء القصف،والحرب.لم نكن نتوقع أن نرى الأسوأ حتى دخلنا شوارع حي الثورة،حيث يتزاحم بها الناس المتعبين القلقين مع الباعة المتجولين أو ذوي العربات الخشبية المثقلة ببضائع لا تعرف كنهها،يدفعوها يدفعوها وجباههم تتصبب عرقا،إنها هي ذاتها العربات التي كنا نراها في الشورجة قبل أكثر من ثلاثين عاما لم تتغير،الفرق أن الشوارع لم تكن تحتلّها كميات المزابل التي فاضت من الفسحة الوسطية للشارع ذاته.

يتعالى صوت المنبّهات مع مكبّرات الصوت لخطب دينية ولطميات حسينية.

– هل هو عاشور؟ سألت نداء بحيادية.

ضحك السائق وهو يجيب:

-لا طبعا مازال شهوراً على عاشور، لكن البعض متلهف ليعوّض ما فاته من بكاءٍ ولطم.

-أما شبعوا لطماً،وحزنا على شهداء الحروب والحصار؟ تسائل علاء باستنكار،وقد أغلق زجاج النافذة ليمنع تسرب هواء المكيّف للخارج ولينعم بشئ من الهدوء. فرد السائق بهدوء:

-لا تنسى أن الحرية شيئاً جديداً علينا،ولا نعرف كيف نستغلها بل البعض يشعر أن كل شئ مؤقت لذا يحاول أن يستغل الوضع بقدر ما يستطيع وبالشكل الذي يلائم وضعه.

السياسيون تسابقوا لتشكيل أحزاب ومنظمات لنشكل رقم قياسي بتعدادها بعد أن كنا حزباً واحداً ونص،أما رجال الدين فهرعوا لتحويل كل مؤسسة حكومية أو مقر حزبي لحسينية أو جامع في تسابق محموم.

- ألم يفكروا ببناء مدارس،رياض أطفال أو مراكز للشباب المحرومين من سنين من كل ما يربطهم بالعالم.

علّقت ليلى متسائلة بنبرة فيها خيبة.ثم تابعت "سأحاول إقناعهم باستغلال الحسينيات لتجمع الناس وتقاربهم شبابا وكبارا، نساءاً ورجالا، ولزرع الفرح والأمل فالدين ليس حزناً ويأسا.

ضحك السائق من تفائلها.

-لا تتسرعي،الناس بحاجة ربما لثلاثين سنة أخرى لإزالة إرث الماضي،واحذري ربما يتهموك بالكفر والإلحاد فهذه تهمة سهلة اليوم أسهل من تهمة (معاداة الثورة).

اعتذر علاء من فكرة توصيله الأول،بعد أن صار السائق يدور بنفس الحارة وهو يسأل المارة الذين كلما توقفنا للسؤال تجمّع العشرات بشكل يثير فضول الآخرين.

أخيراً،وصلنا كنت مرهقة ومتعبة تماما لم تكن بي رغبة للنزول.هربت من أعين الأطفال والنساء اللاتي تجمّعن أمام أبواب المنازل ليتطلعوا بفضول.نداء كانت تبتّسم لهم وتحييهم وقد اخرجت رأسها من نافذة السيارة.

– مبروك ..خلصتم من الكارثة.فرتت عليها امرأة شابة كانت تشتري من أحد الدكاكين الذي لم يكن غير نافذة صغيرة تطل منها سيدة تلتحف السواد،وخلفها بضع رفوف خشبية فوقها بضع علب قليلة وبضع سلال صغيرة للحلويات،البضاعة المرغوبة أكثر للأطفال الذين تكاثروا ملبين دعوة ليلى التي نزلت توزع عليهم بعض الشيكولاتة.

– شكرا..لازم انتم جايين من برة.

فقاطعها شاب كان يتطلع لنا بشئ من اللارضى أو ربما الحقد.

– جاءوا الجماعة المثقفين ليتفلسفوا برأسنا،فكل من كان بأوروبا هو مثقف!

اشرت لها أن تغلق الزجاجة.

–لا تجادليهم،فما عانوه ليس هينا وما مروا به يجعلهم يتصورون أننا كنا في نعيم..بل سمعت أن هناك من يحرّضهم على كل العائدين من أوروبا أو غيرها من بلدان الغربة أو المهجر.

-لكنا حُرمنا من بلدنا،وأهلنا وذكرياتنا مجبرين،لم نكن سوّاح ولا ممن خرج ليجمع الأموال.قالت ذلك وانهارت باكية، فعانقتها وأنا احاول تهدئتها .

ارتحت لرؤية السائق وليلى وعلاء وأخوه الذي جاء ليودعنا ويشكرنا،فقد شعرت بضيق وقلق بدلاً من الفرح الذي كنت أتوقعه حين أرى الناس هنا مهما كانت ردود أفعالهم.

وعدنا بزيارتهم،لاحظت أن علاء كان منفعلاً،وفرحاً بوجودنا.ابتعد الصغار عن السيارة لتنطلق من جديد ولكن بحرية أكثر هذه المرة.

-سأوّصل أم سماح لأنها الأقرب،إذا ماعندكم مانع.

انطلق بنا لحي البنوك.أذكر الحي الذي كان حديثا وقت انتقال أهلي له،كانت البيوت قليلة ولم يكن هناك دكاكين أو محلاّت إلا القليل،كان هناك شارع رئيسي واحد.

- مسكين علاء.. كان يبكي،لم أتوقع ان أراه يبكي. أمه مشرفة على النهاية لكن الأعمار بيد الله،عسى أن يشفيها.قطعت ليلى حبل الصمت الذي شملنا.

اعطيتهم رقم تليفوني،كذلك للسائق الذي هو أيضا اعطانا تليفونه إذا رغبنا بالعودة معه.

لماذا لم أنفعل وأنا أقترب من تحقيق حلمي الذي صاحبني كل العمر اهل ملّني أم أنا مللته،ربما تكراره اليومي لأعوام،وعقود جعلته بلا طعم ولا لون ربما لهذا السبب زهق مني وما عاد هناك سبباً للإنفعال؟ربما هي سنين الجدب زحفت على مشاعرنا وجففتها.

كان بيتنا يغص بالأحبة،والأقرباء الذين أتو مدفوعين بالشوق،والفضول أيضا.كان بحرا من عناق،وبكاء وقبلات وزغاريد.لم يتركوا لي مجالاً لتأمّلهم لكي أصيح: "بلى هذا ما كنت أفتقده،هذه اللحظة فقط لم أعد بها غريبة".بل شعرت وكأني لم أبتعد عنهم،لم يكن هناك فراقاً لعقدين أو أكثر،بل هي أيام ربما،أو شهور.

وهذا ما أوحى لهم ببرودة مشاعري،لأني لم أبك بالحرقة التي بكوها هم..شئ غريب،كنت لسنين وانا كلّما أتصور هذه اللحظة أدخل بنوبة بكاء،لماذا يستكثرون علي فرحي الغامر بلقائهم.ولكن حين لمحت أمير،الذي

كان ينتظر دوره لأتفرغ له.عانقته لادخل بنوبة هستيرية من الصراخ الغبي! لابد أني احرجته.

أخذني من يدي لندخل غرفة الخطار الملحقة بالهول الذي غصّ بالجميع،اعترض أبي،وأمي مازحين "ألا تصبر لتنفرد بها فيما بعد؟".

جلست قبالته أتأمل وجهه الذي أتعبته السنون وزرعت عليه أخاديدها،لحيته التي اعتقدت أنه اطلقها بسبب الوضع المضطرب الذي لا يمنح المجال لمثل تلك الطقوس.

دخلت أمي التي لم تحتمل ابتعادي عنها ومعها أبي وبعض إخوتي.الأصوات بالهول اختلطت مع بعضها فلا تقدر أن تميّز منها شيئا.

-لماذا لم تأت مع أكرم؟حسنا فعلتم أجّلتم مجئ الأولاد فالوضع مضّطرب الآن.تطلعت لأبي الذي تضاعفت السنون عليه ليبدو أكبر من عمره بأضعاف.لم أعرف بماذا أجيبه.فعانقته بقوة واعتذرت له.

- لا تعتذري، أنا فخور بك.

-حقا لماذا لم تأت مع أكرم،ولماذا لم يزرنا؟الأنول، هل هو مقاطعنا أم ماذا؟ تسائلت أمي بغضب وعتب.

- أكرم مشغول وأصبح مع سامي الذي سيستغل غيابنا ويتسكع ويكسّل.قلت بتردد،شعرت بإحراج وأنا أراهم ينظرون لبعضهم.الهذا الحد لا أجيد الكذب؟هل قرأوا بعيني كذبتي؟ لم أفهم طريقة سؤالهم.اعتقدت أن غيابي الطويل جعلني لا أفهم طريقتهم بالتساؤل.

-أمي اتركوا الأسئلة الآن فهي مُتعبةٌ تماما.حسم أمير الأمر.

في الصباح تأمّلت الحديقة التي تقلّصت للنصف بعد أن بني عليها غرفة مع مُرافقٍ لأخي الصغير وزوجته. فبعد ارتفاع أسعار الإيجار فضّل الكثير من الشباب أن يحاصروا أهلهم.

ما زال الأملُ بالحياة كبيراً،فكّرت فرحةً وأنا أتطلع لبعض الورود الجميلة التي واضح أنها زُرعت حديثا.

كانت الساعة السادسة صباحاً هذه أول مرة أستيقظ في هذا الوقت،وبمنتهى النشاط.مرّت عليّ أياماً لم يزرني

ملاك النوم إلا هذه الساعة،بعد توسّل لزيارتي طوال الليل.

– صباح الخير أيتها الجميلة.عانقني أخي أحمد،ثم تابع أنا ذاهبٌ لشراء الخبز،ماذا تحبي للإفطار؟

-أنا أفطر ظهراً فلا تشغل بالك.

– لماذا صحوتِ فجراً إذن؟ قاطعنا أمير.ثم تابع "لم أستطع النوم بالرغم من النعاس حين شعرت بك مستيقظة".

افترشنا الأرض ذات العشب الأصفر عطشاً."أنا آسفة أيقظتك لم أستطع أن أنام أستعجل الساعات وقد فاتني الكثير،أريد أن أرى كل شئ".

– ما حكاية أكرم؟أعرف أن الوقت مبكراً على هذا السؤال،لكني فضّلت أن أحكي معك قبل أن يصحو الأهل أو قد تنشغلي في الأيام القادمة بالضيوف،فلن يكون مجالاً للحوار،والكثير من الأحبة،والأصدقاء سيأتون لرؤياك أو لدعوتك لزيارتهم.

– هل أقدر ان أرى حياة؟

قلت دون وعي،وقد خفتُ أن تسرقني الأيام ولا أقدر أن أراها. الحمد لله لم يظهر عليه إنفعالاً للسؤال.

- لقد جاءت يوم وصولي وسلّمت عليّ،كانت بزيارة لأهلها..تعرفي أنها في البصرة الآن...لماذا تتهرّبين من السؤال؟.

نظرت له بتساؤل،ثم تذّكرت سؤاله الذي فوجئت به حقا،مع ذلك سألت عن حياة بلا وعي،وكأني أخاف ان أنسى.لم أتجاهل سؤاله،ولكن هل يعرفوا شيئاً عن الموضوع؟وقفت بقرب شجيرات الياس التي شكلت سوراً عطراً للحديقة الصغيرة.

- لا أعرف أين هو..اختفى منذ خمس سنوات كان يراسل امرأة على الإنترنت،ثم رحل ولم يعد.

قلت ذلك بسرعة،وأنا أشاغل نفسي بأوراق الياس وأشم عطرها.

تطلع لي بدهشة لم أتوقعها.

- هل تمزحين؟ولكنه حين رأى الدموع في عيني. صاح غاضباً.

- لماذا لم تقولي شيئاً من قبل،لماذ لم تخبرينا؟يا إلهي كل ذلك الزمن تتعذبين وحدك وهو ولا على باله.

بعد لحظات صمت تحاشيت خلالها أن أتطلع لعينيه.

ثم التفتَ للكرسي الوحيد في الحديقة وسأل بهدوء.

- يعني أنت لا تعرفين أنه هنا؟

بدا سؤاله لأول وهلة غبيا،ماذا يقصد به؟أم أني مازلت لا أستوعب أسئلتهم الغريبة.

- ماذا تعني؟

- يا الله..أكاد لا أصدق.أعرف أنك لاتمزحين،ولكن هل معقول أنك لا تعرفين شيئاً عنه كل تلك السنين؟

كان غاضباً لدرجة أنه أشعل سيجارة قبل أن يشرب شيئا.ندمت لأني سبّبت له كل ذلك الغضب.

- الموضوع مضى عليه زمن،وقد تجاوزت الأذى. وأقسم لك أن حتى الأولاد لا يعرفوا أين هو.. ماذا تعني "أنه هنا" هل قابلته؟غير معقول!.

- طبعا لم أقابله،وإلاّ لماذا أمي تسأل عنه بغضب؟ لكنه بعد الحرب وسقوط النظام،تابعنا بعض السياسيين

ممّن أتوا للمساهمة أو للاستفادة من الوضع لعلّهم يحظون بقطعة من الكعكة.رأيناه مرةً مع وفدٍ في أربيل، صاح الكل هذا أكرم وهللنا فرحين بل توقعنا ان نراك معه،وواصلنا الحلم أنكِ الآن في الشمال ولا تقدري الإتصال بنا بسبب الخطوط المقطوعة.صمتَ بعدها وجلس على المقعد وكأن الموضوع أتعبه، ثم واصل.

– انتظرنا زيارته لنا،بلا جدوى حتى سألت حياة فربما عن طريق زوجة قريبها تعرف شيئاً عن الخبر، لكنها هي الأخرى فوجئت بالأمر.ربما لم يخبر أهله ولم يطلع أحد من أقربائه عن موضوعكم،ثم اقنعنا أنفسنا أننا كنا متوهمين ربما هناك شبه بينه وبين من رأيناه، حتى صادفنا في قناة تلفزيونية أخرى لقاءاً سريعاً معه، باعتباره مسؤول عن مشروع إعلامي في آربيل وذكروا اسمه،تأكدنا أنه هو.

لم أفاجأ،وبنفس الوقت أكاد لا أصدق ما أسمع.إنه هنا،هل هذا معقول؟شئ لا يصدق.ربما هو هنا منذ زمن ولم يروه إلاّ بعد كسر أسوار التعتيم الإعلامي.كنت سمعت أن المرأة التي كان يراسلها كردية من آربيل، وربما لها دور في منحه مسؤولية المشروع إيّاه.

- إذن هو لم يختفي،بل هو هنا منذ زمن،ربما منذ عزل الشمال.مبروك عليه على الأقل وجد نفسه بعد الضياع معنا كل السنوات تلك.

تطلّعت له وقد تملكتني حالة خوف عليه.فقلت وأنا أبتسم وأُقبّله من لحيته.

- الموضوع انتهى،كلّ له حياته..الحقيقة لم أكن سعيدة معه تماما..لقد تغّير كثيراً،أو بالأحرى ظهرت حقيقته التي ربما كان يخفيها لانشغالاتنا بالوضع المضطرب..ثم قلت مازحةً لأغّير الموضوع،أو لأؤجله لوقت آخر "المهم لحيتك نغزتني أو- شوّكتني- حسب تعبير سماح حين كانت صغيرة..متى تحلقها؟

تطلّع لي ولمحت بريقاً لدموع في عينيه، قبّلت يده. ابتسمت له وأنا أعانقه.

- كم كنت أشتهي أن أجلس معك هكذا أتحدث إليك بحرية،أتصدق كنت أخاف منك..ليس خوفاً ولكن شيئاً من الهيبة.

- أنا بشوق أكبر لتحديثيني عن سماح وإخوتها،لا تتصوري فرحنا بكل صورة تصلنا لهم،أنتظر صديق

يأتيني بهاتفه المحمول لنتصل بهم..ولكن المشكلة بموضوعك الآن..لابد أن أراه،هل هذا معقول؟لا بأس أن كل واحد ينحاز لنفسه أو يفكر أن يعيش حياته ولكن ليس على حساب الآخر،وعلى حساب أولاده!هذه دناءة وسقوط.قال ذلك،ونهض واقفاً،وقد احمر وجهه غضبا. حاولت أن اهدأه.

– لم يكن قراره على حساب أحد فأنا الآن أسعد من قبل.صدقني،والأولاد كبروا وما عادوا بحاجة له..ثم ما جدوى أن تعيش مع شخص للمجاملة وأنت تتجرع المر كل يوم..ها قد جاء أحمد لنذهب نحضّر الفطور معا قبل أن تصحو أمي.

وجدت زوجة أحمد وإخوتي يحضّرن الإفطار ومعهن بعض القريبات،عانقنّي كما لو أنهن رأينني توا .

تهرّبت بعدها من إلحاح أمي للحديث عن السبب، وكيف يتصرف أكرم بهذا الشكل؟ ثم راحت تؤكد أنهم كانوا على حق برفضه.

– أمي لا داعٍ لكل ذلك..لقد أحببته حينها،وكان عندي استعداد أن أهرب معه لو بقيتم على إصراركم،ولكن تلك

حال الدنيا،تتغيّر من حال إلى حالٍ.ثم تابعت وأنا أضحك "المهم أرجو أن يتحسن الوضع هنا لنأتي أنا والأولاد نعمل هنا،وأعيش بينكم ما تبقى لي من السنين".

غمرني الكل بحب وفرح وأنا أرى الأمل في عيونهم يطل خجلاً خلف غلالة الخوف واللاثقة بما تحمله الأيام القادمة.وشعرت بإحراج وأنا أرى أني الوحيدة الغير محجبة ولم أغط شعري بشال.

كان البيت يعج بالأقرباء الذين أتوا توا للتحية حين رن الهاتف،فوجئت بليلى تطلبني "بنت حلال تذكرتني وسط المعمعة".فوجئت بها تقترح أن نذهب لعلاء فقد علمت من السائق أن والدته توفيت باليوم الأول أي بعد مغادرتنا له بساعات.لكني اعتذرت لها على ان أكلمها لاحقا لنلتقي.

الخوف والحذر جعلني أتردد من الخروج لما قد أسببه من أذى قد يلحق بإخوتي الذين أصروا على مرافقتي أينما ذهبت،في الشوارع التي زرعت موتا،ورعبا.ثم لا أقدر أن أكون بعيدةً عن أمي فقد قررت أن أعود بعد أسابيع، فلا بد أن أستنفذ كل أيامي معها.

.ربما هو تبرير للهروب من رؤية مشاهد تلك الشوارع التي صارت مرتعاً لكل أصناف المجرمين.أو هو هروب من لحظات الحزن والموت.

ولكن أين المفر،منذ الفجر تشتغل مكبّرات الصوت لتلوّن يومك كله بلون كئيب أسود حالك.ابتسموا بامتعاض من ضمنهم أمير،الذي لم يزل بلحيته وقد عرفت أنها دليله على التمسك بأهداب الدين،حين انتقدت،بالأحرى سببت كارهي الفرح والأمل بالحياة..واستنكرت تلك المظاهر وهذا الإصرار على الحزن وتكئيب الناس الذين لم يروا الفرح منذ عقود!.

– ماذا جنينا من الحياة الدنيا،لعلنا نحظى بشئ من الرضا في الحياة الاخرة .

– وهل تعتقد أن حبك للحياة هو كفر بالآخرة؟بالعكس كلما زاد إيمانك بالآخرة يزداد حبك وتقديرك للحياة..ثم ما الذي جنيناه من كفرنا بالحياة؟..بتمسك بأهداب الدين فنكتشف أنها صناعية!قلت الجملة الأخيرة بشئ من المزاح لتخفيف جدّية الموضوع،لكني لم أوفق بكسب أي إبتسامة منهم فتابعت "لماذا لا نتمسك بالعروة الوثقى،أي بما هو أهم وأجدى".

– وما هو برأيك الأجدى؟سأل أحد الأقرباء الذي رفض أن يصافحني بالرغم من تجشمه متاعب الطريق ليأتي لتحيتي،قدّرت إعتزازه بي لكنها أهداب الدين تلك، التي جعلته (يستحرم) مصافحة امرأة لم تلبس قفازا!؟ مما سبّب لي حرجاً لم أعرفه من قبل،بل شعرت بحزن وتمالكت نفسي بصعوبة كي لا أبكي،فابتسمت وكأني أرثي له، وبقي يتطلع لي بشئ من الإستنكار لما أقول.

– الأجدى أن لا نشوّه الدين وننفر الشباب منه.. إبتداءا من التدخّل بما يلبسون وكيف يحلقون لحاهم..إلى تحريم الموسيقى والغناء! ما الذي استفادت منه إيران من منعها الأغاني،والموسيقى؟وها نحن نتّبع خطواتهم الفاشلة

– إيران لم تُحرّم الغناء،فالخُميني حلّل الغناء على أن يكون فيه حزنٌ ووقار.

تمنّيت لحظتها لو أخرج أشم قليلاً من الهواء،فقد شعرت باختناق لا أدري من كلامه أو لأن الكهرباء قطعت منذ ساعات والمولد الكهربائي تعطل بعد نفاذ النفط.

– أرأيت؟إنها الدعوة للحزن،لماذا؟أذكر حين كنت طالبة سمعت امرأة تقول "لا يجوز للفتاة أن تضحك،هذا

يقلّل من هيبتها واحترامها" تصور أي كائنات سنكون لو حرمنا أولادنا من الفرح والضحك..وحتى لا نذهب بعيداً ها أنت ترى النتائج بأسرع مما تتصور،في هذا الكم من الحاقدين الذين يزرعوا الدمار والخراب ويقتلوا بدم بارد وبلا تردد ولا تأنيب ضمير..وباسم الدين.فالكآبة انتشرت مثل النار بالهشيم،ومنها يتولّد الحقد،والغضب والكره وهذا ما سيدعو الشباب عاجلاً او آجلاً للكفر بالإسلام وبكل رموز الحزن والحقد هؤلاء،إذا لم نسرع لإنقاذ الدين وإنقاذهم ممن يجرّونهم للهاوية.

لأول مرة أتحدث بهذا الحماس وقد لمحت عدم رضا بعيني أمير،بينما أبي كان سعيدا بي وقبّلني من رأسي.

- اتعبناك بتخلفنا،لا تنسي عقود من العزلة والبعد عن العالم لا تترك غير التخلف وما هو أكثر من ذلك".

- آسفة يا أبي،ولكني أعرف ما يفعل الحزن واليأس بالنفس إنه مثل السرطان يأكل الروح وهذه الدعاوي يُطلقها أناس حاقدون على العراق وناسه.عانقته وبكيت، ثم اعتذرت لهم لأذهب للحمام لأفرغ شحنة الغضب والألم هناك ولأطفئ حُرقة الأذى والحر.

معقول أن يكون أبي أكثر تحرراً بفكره من أمير؟ الذي كان بطلنا وقدوتنا في كل مايقول.عرفت أن الوضع بالجزائر،وتصاعد العنف الإسلامي هناك على يد الذين عادوا بعد صولاتهم في أفغانستان،من الكائنات التي شوّهت أرواحها،وصارت لا تعرف الرحمة..تدمر وتقتل وهم متلبسين حالة هذيان محاربتهم للصليبيين ولم يعو أن ضحاياهم من أطفال القرى ونسائها من المسلمين،أو من الشباب المحب للحياة من مطربين أو صحفيين.وأننا نعيش القرن الواحد والعشرين وليس العصور الوسطى المظلمة! فحوّلوا ذلك البلد الجميل المتفتح،إلى بلد مشوّه ليكون مرتعاً للتخلف والحقد.

الأبشع أنهم زحفوا للعراق ليمارسوا الطقوس الشيطانية ذاتها،والمصيبة يمارسوها باسم الدين أيضاً،وباسم الجهاد ليخدعوا به الشباب المغرّر به الغير واع إلى أن تلك الكائنات دُرّبت وبرمجت من قبل العدو الأكبر نفسه والذي يدعوا الجهاد ضده، ليستخدمهم للقتل وبتلك الصورة البربرية الحاقدة.تركت الماء ينساب على وجهي ليختلط مع الدموع التي شعرتها ساخنة لكنها لم تذيب تلك الصخور التي تجمعت فوق حنجرتي في مكان ما في رقبتي.

هل كل هذا الحزن هو الخيبة في ما رأيت؟أم هو إحساسي بأمير يبتعد هو الآخر؟

أم لأني عرفت أن أكرم هنا؟وعرفت أنه بخير ويدير مشاريع؟ولم يفكّر أن يتّصل بنا أو بأولاده؟هل يعرفوا هم أيضاً أنه هنا دون أن يخبروني؟

صرخت غضبا وضربت الحائط.فجأة انقطع الماء من الدش.تذكرت أنه يأتي من الخزّان فلابد أنه نفذ وقد تركته يجري هكذا دون أن أحسب حساب المشكلة تلك التي صارت مزمنة كما قالوا،بل ماعادوا يتذمّروا لشحتها،وقد اعتبروها من الكماليات إزاء المصائب الأخرى.شعرت بإحراج بل بذنب أني لم أفكر بهم،ولم أستخدم الماء بحكمة واقتصاد.

الحمد لله أن الجو كان حاراً،جلست على الأرض تمنّيت لو أبقى هناك إلى أجلٍ غير مسمى.هل نسي بغداد التي درس بها وعاش طفولته وشبابه،وتذكر الآن أنه من بلدٍ آخر اسمه كردستان؟لا أذكر أنه نطق بذلك الاسم إلا مراتٍ قليلة،لكنها كانت دائماً مصحوبة باسم العراق.

عاودني الغضب الذي توقعت أني نسيته.عاودتني رغبة الإنتقام منه،رغبة رؤياه يعاني الألم،والفشل.رغبة أن أراه الآن وأسخر منه وأعزّفه أنه لا شئ مهما فعل!

حالة من الهذيان تلبّستني،لم أقدر أن أسيطر على دموعي.كيف أخرج وأنا بهذا الحال،كيف أخرج بعيوني المنتفخة. فزعت لطرق على الباب:

- وهيبة..هل أنت بخير،هل انقطع الماء؟جائني صوت ابنة عمي،زوجة أخي أحمد أشبه بالهمس.

نهضت بسرعة وكأني صحوت من كابوس،ارتديت ملابسي وأنا أقول بسرعة.

- شكرا عزيزتي، انتهيت سأخرج حالاً.

عانقتني وهي تنظر لي بقلق "آسفة لم أقصد أستعجلك، لكني خفت أن الماء انقطع،وتخجلي أن تصيحي على أحدنا".

في صباح اليوم التالي وجدت أحمد يصر على مرافقته لعمل جولة قبل أن يهل ضيوف جدد.أسرعت وكأني طفلة ستذهب مع أبيها لمراجيح العيد!

أريد أن أرى كل الشوارع،أستعجل اللحظات لأزور كل الأماكن التي أشتاق لها،ساحة التحرير،كليّة الإدارة والاقتصاد،جامعة المستنصرية، ولكن من تعرفين هناك؟

لم أرض على اعتراض أمي وأبي على الرحلة لكني حاولت أن أعتذر.

- لن نتأخر.. كلها ساعة أو إثنين وسنعود..

- على الاقل نريها بغداد وماصارت عليــه، قبـــل أن تنشغل بالزوار والضيوف. وضح لهم أحمد وهو يسحبني من يدي. قبّلت أمي وانا أهمس بأذنها:

- ربما هو يريد أن يقول لي شيئا..لا تنسي انا بشوق لأختلي بكل منهم،أفتح لهم قلبي ويفتحوا لي قلوبهم.

هل تغيّر كل شئ أم أن الزمن لعب دوراً ليمحو مـــن الذاكرة كل مايعكر عطر المكان أو ما انتقته من الـــصور وفقا لمزاجها؟الحروب المتواصلة التي لم تتوقف لأكثـــر من عشرين عاماً،تركت النـــاس يـــصارعون الخـــوف، والحصار والطائرات وهي تمطرهم بالموت، ليتفرغـــوا لتوفير لقمة العيش لأولادهم.لم تعـــد الـــشرطة وأجهـــزة

المخابرات تشغلهم تجنبوها بالبحث عن ما يبعــد شــبح الموت جوعا عنهم.استأنست السلطة للحصار حيث تمتعت ببعض الراحة من عبث المشاغبين وقلقهم،وتفرغت لبناء القصور التي مازالت بعيدة لا يصلها الناس ولا يعرفــوا مواقعها،فاحتلتها قوات الإحتلال لما لها من ميزات وفّرت عليهم الكثير وحمتهم من الأعداء!.

الشوارع مرهقة غير حافلة بالتخريب الــذي طالهــا والإهمال الذي عانته،ما عادت تحفل بالأوساخ والمزابل. الأسواق مهجورة تركت جدرانها وزجاجها لينطق بما حل بها أثر القصف والتخريب والفرهود الذي سموه الحواسم.

تكاد العيون تصرعني وأنا أحتــضن ذراع أحمــد،لم يشفع لي صغر سنه،أو تقدم العمر بي لأكون له أُمــا ولا حتى غطاء الرأس الذي أردت منه حجابا. سحبت يــدي بهدوء وبشكل عفوي، تطلّع لي مبتسماً ثــم أعــاد يــدي بإصرار.

– لا تحفلي بهم،سنوات العزلة جعلت الــبعض مــنهم مثل الكائنات المحبوسة ثم أُطلق ســراحها فجــأة وبــلا مقدّمات ليجدوا كل شئ غريــب عــنهم مخيــف ربمــا

ومرفوض أيضا..إضافة للتخلف المزمن والتفكير العفن، الذي جعلهم لا يحفلون بالآخر ومشاعره بـل يحـاولون إلغائه من الوجود.. لن تسلم امرأة من عيـونهم المنتقـدة المستنكرة مهما فعلت.

- ولكن أنتم أيضا عانيتم من ذلك،أنـت وأصـدقائك وزملائك،بل معاناتكم اكثر لأنكم وعيتم على الكوارث،لا الماضي ولا الحاضر لكم فيه شئ من ذكريات مـشرقة، ولا حتى أيام من الراحة والسلام..مـع ذلـك تحملـون بنفوسكم الكثير من الأمل وحب الآخر والسعي من أجـل مستقبل أفضل.

- كيف ليس لنا ماضي؟ماضينا أنتم،وإن كنتم بعيدين، نتناقل مع الذين بقوا هنا من رفاقكم وأصدقائكم ذكريـات جميلة،وصور وأن كانت مضببة لحبكم للأرض والناس، تواصلكم معنا كنا نرى له معان عميقة وجميلـة، بقينـا نحمل بعض من أفكاركم وصار بعـضنا يقتفـي بعـض آثاركم وإن محتها الرياح،وغطّتها الرمال..وذلك له الدور الكبير بصمودنا بوجه القهر والحـصار والخـوف مـن الجدران التي تتصنت لنا.

وقف أمامي يتطلع لي مبتسما واحتضن كتفي.صـــمت لحظات مندهشا من دموعي التي لم أقدر أسيطر عليها.

– آسف لم اقصد ايذائك،أردتك أن تفرحي وأن تشعري أننا بخير ومظاهر الأذى لابد لها من الرحيـــل.أخفيـــت رأسي وقد اخذتني نوبة البكاء لمرحلة الإرتباك.فهمـــست بصوت متحشرج:

– لاأبكي حزنا..بل فرحا بك،وأسفا لأني حرمت مـــن أن أكون معكم في كل خطواتكم.

سحبني من يدي ضاحكاً واشترى لنـــا كأســـان مـــن الآيس كريم.رأيت به سامي وأسعد "هل أقدر أن أعرّفهم عليك يوما،هل ستسيرون في تلك الشوارع بلا خوف ولا حذر؟".لم أستطع أن أكلمه خـــوف أن تعـــاودني رغبـــة البكاء تلك،سرت وأنا أتأمل الجدران المتآكلة والـــشبابيك المحروقة أو المكسورة وأســـلاك الكهربـــاء المتـــشابكة والمتدلية من وفي كل ركن ومكان.

راعني منظر رجل يفترش الأرض ويعرض بضاعته علناً من رشاشات وبنادق ومسدسات! من خوفي لم أتطلع

جيداً فقد لمحت بعض الصواريخ اليدوية،ومجموعة مـن رجال وشباب يتجمعـون حولـه يتفحـصون الأسـلحة لشراءها،وهو غير مبال بمـدرعات ولا دبابـات جـيش الإحتلال التي مرت به وكأن شيئا لم يكن.لا أدري هـل ارتحت لموقفهم ذاك،فقد انتابني خوف ورعب لـو أنهـم اعترضو أو ضربوا الرجل وجرّدوه مـن بـضاعته،وقد رأيتهم يقتحمون البيوت بحثاً عن الأسلحة بشكل عدواني ليس فيه أي حرمة للأطفال الذين تنتقل بيـنهم الكـاميرا بعيونهم الجريئة البريئة الخائفة.فقد تـصورت للحظـات منظر التصادم بتلك الأسلحة ليقتـل الأبريـاء وبالـشكل العشوائي الذي عرف عنهم.فكّرت كيف أواجه الموقف لو أن أحمد جرى له شئ سيكون بسببي!. لذا ارتحت وقـد انزاح ذلك الكابوس عني.

– أرأيت،لقد مرّوا منهم وكـأنهم يبـاركون لهـم،أو يشجّعون الناس لشراء الاسلحة!لا أظن أنهم أغبياء كمـا يتصور البعض بل هناك خطة في رأسهم، بل سمعت من البعض يقول أنهم احيانا يبيعوا الأسلحة ولو بشكل غيـر مباشر.كان يتحدث بحماس وغضب وفي عينيه خوف من القادم. فهمست أخفف عنه:

- الحمد لله انهم ولوّا، الله يبعدهم ويكفينا شرهم..هيـــا نعود للبيت،خوف أن يأتي بعض الأقرباء ولا يجـــدوني، فقد رأيت ما يكفي،ولنسير وأنت تحكي لي عــن حياتــك ووضعك الشخصي.

أصرّ أن يوقف تاكسي لتقلنا للـــدار معترضـــاً علـــى موضوع السير لبعد المسافة والحر والخوف من مطبـــات الشوارع.فوجئنا أنه لا أحد يريد أن يأخذنا لحي البنـــوك، برغم أن المسافة ليست بعيدة.تحجّج البعض منهم بالخوف من الطريق إذا عاد متأخرا،أو أنه لا يريد أن يعود بـــلا ركاب! حاول أحمد أن يطمئنهم ولكن دون جـــدوى."مـــا العمل يا إلهي!" لم أستطع كتمان قلقي وأنا أرى إرتبـــاك أحمد في تلك اللحظات.حاولت أن أخفّف عنه وأنا أقترح عليه أن نواصل السير لعلّنا نُصادف من يأخذنا لهناك.

- كان المفروض أن أنتظر ابن الخال مظفر،اقترح أن يأخذنا بسيارته..لكني أردت ان أتمشى معك لوحدنا..أنـــا آسف.اخذت يده وقبلتها.

- لم الأسف إنه أسعد يوم،لولا تلك المناظر والمشاهد المرعبة،كانت فرصة لأنفرد بك،ثم مازال الوقت مبكراً لم تغب الشمس بعد فلمَ الخوف؟

كنت أقصد خوفي أنا،خوفي عليه وخـوفي ألاّ نعـود سالمين،خوفا ترائى لي ونحن نبيت هنـا فـي الـشارع الموحش.لماذا؟ لأن لا سيارة تقلنا فلا وجـود لحـافلات الركاب ولا الباصات،غير تلك السيارات المهترئة التـي عملوها للأجرة،الذين يأسوا مـن الوظـائف أو العمـل بالدوائر الحكومية.

كلما مرّت دقائق كلما تضاعف حجم القلق والخـوف، ماعدت أتطلع للشوارع ولا أسأل عنهـا أو أسـمائها،كنا نترقب السيارات لعل هناك من يوافق لإعادتنا للبيت بأي ثمن.

عاودني حلمي في المهجر،أن أصادف صديقا أو أحـد المعارف ليقلّنا بسيارته للبيت،ولكنا الآن هنا في ديارنـا، فهل من المعقول أن يشح الأحباب والمعارف،وأنت بينهم؟ شعرت بغربة موجعة،غربة عرفتها قبل الرحيـل ولكـن ليست بهذه القسوة،ولا تشبه غربتي حين رحل أكرم.

أخيرا فُرجت ووافق أحد السائقين على توصـيلنا لأن أهله يسكنون بحي جميلة "الحمد لله".

السائق من حديثي لأخي أني غريبة أو من العائدين تـــوا. وسمعت قصصا عن حوادث الخطــف والـــسرقة لمثـــل هؤلاء.

تذكرت علاء وما قالته ليلى عن إحساسه بالغربة، لابد ان أتصل بها الليلة، بالأمس حاولت دون جدوى لا أحد يرد، كل الوقت مشغول!؟.



خطا على الطريق

أرى العيش كنزا ناقصا كلّ ليلة......وماتنقص الأيام والدهر ينفد

طرفة بن العبد

كنت خائفا بعض الشئ مما سمعت من احتمالات سرقتنا أو قتلنا!فشعرت برضى بل بفرح حين أعلن السائق بأني سأكون بصحبة بعض النسوة من اللاتي جئن لمحطة تجمع الحافلات في عمان،حيث عشرات الباصات تتزاحم في الساحة.السيارات الكبيرة منها والصغيرة (جيمسي) G.M.C و(دولفين) او(الفيل..) كما يسمونها، لا أتذكر شكل سيارة الفيل..ربما هو الخلط بين الدولفين والفيل..مازلت أذكر حين كنا صغار في بغداد كنا نسمي فولكسواكن سلحفاة أو (الركة) الظاهر انهم مازالوا على ذلك لم يتغيروا.

في عيون السوّاق فرح غامر وضحك عريض يغمر الوجوه.."لهم حق..بعد أن انزاح كابوس صدام".قالت إحدى السيدات بهمس وهي تقف مع مجموعة غير بعيد عنا،تعليقا على كلام صاحبتها..التي عقّبت "أعتقد أن السبب الأكبر هو أننا غنيمة بالنسبه لهم،بل فرصه لن تتكرر، فالأجرة للنفر الواحد اليوم (٢٠٠ دولار) بعد أن كانت بالأمس القريب لا تتجاوز العشر دولارات". وافقتها الأولى على رأيها بصمت.

حقا، أكاد أ.ى يداهم تصفق، أو تفرك ببعضها تهيئاً لاستقبال النقود،بل لابد أن بعضهم يرانا (حزم دولارات)...بعد تلك السنين في الغربة،وربما سمعوا عنا الكثير حول عملنا وجمعنا للمال..ربما بسبب ما يصل بعض الأهل المحاصرين من أموال يبعثها أبنائهم وأقرباءهم من هناك في أقاصي الأرض..لا يدرون أن البعض بالغ بالعيش على الكفاف ليبعث لأهله بعض ما يكفيهم لبضعة أسابيع أو شهور.ومنهم من ندم على (فعلته) تلك وقد استغلها أقربائه بطريقة جشعة،معتقدين ان تلك الأموال (زائدة) فتصرفوا بها برعونة ولا مسؤولية..هل أقول الحمد لله أني لم أبعث شيئا أو بالأحرى لم أستطع إلا مرة واحدة. برّرت ذلك بأني لم أحظ بعمل يتيح لي أن أستقطع ما يستحق إرساله لهم.

أو ربما لأن صلتي بهم ضعيفة،بعد أن استطال زمن البعد،وقد فارقتهم منذ الصغر!.أو هي الأنانية فقد حلمت أن أسافر وأجوب العالم،لكن الله عاقبني على تفكيري قبل أن أحقق الحلم.ما الصله بالآخر؟،كيف نفسّر ذلك الخيط؟لا صلة لي بأحد..الجذور؟أين هي؟،ربما هو اختراع منّا لنضمن السلام والأمان.فمازلنا فلاّحين مهمت ابتعدنا عن الحقول،عن مدن الأجداد،حيث

الإحساس القبلي الذي يقرّبنا من القطيع وخوفها من الإنفراد بعيدا لئلا ينفرد بها ذئبا!

وربما لهذا السبب،الصلات في أوروبا ضعيفة بين الأقرباء، فالدولة ضمنت لهم ذلك فليسوا بحاجة للعائلة، إذن لا خوف عليهم ولاهم يحزنون!فسحة الأمان والإستقرار الاقتصادي جعلتهم بغنى عن هذه القرابه أو تلك..إذن أنا أوروبي من هذه الناحية!أو هكذا يتهمني البعض بسخريه ممن التقيتهم من أبناء (جلدتي).لذلك ابتعدت عنهم هم أيضا،وجدتهم رغم بعدهم الآف الأميال وعشرات السنين عن وسطهم مازالوا يحملون تلك الصفه المقيتة،الإنتقاص من الآخر والسخرية منه والتدخل بشأنه حتى في ما يلبس أو ما يأكل!التي لابد انها كانت أحد الأسباب في وصول العصابات للسلطة للتحكم بمصيرنا بذلك الشكل الكابوسي.أو ربما دفعت بعض أو شجعتهم على الهجرة.حتى قبل تردّي الوضع السياسي.أكاد أسمعهم أحيانا وهم يسخرون:" يضحك على نفسه بإدعائه الثقافة"..هذا الأملح،أنا متأكد أنه لم يقرأ غير قصص (يوسف السباعي).."

وكأنما أذا كنت .(أملح) كما يصفون الأسمر على شاكلتي،لا يمكن ان تكون لك علاقه لك بالأدب أو العلم! ما علاقة الشكل بالتفكير أو الثقافة؟ربما لو كان داروين بيننا لجعلوا منه معتوها!

صرت أتجنبهم جميعا،لم أُطلع أحداً على ما أكتب. تعلّمت لغات عديدة من كل بلد أقمت فيه،ولكني أتجنب استعمالها أمامهم أو إذا صادف وجود أحدهم..

فحاولت أن أختلي مع نفسي،وأكون بعيداً عنهم وأنشغل بالقراءة..أو الكتابة.

لن أنسى موقف أحدهم يوماً..وبالرغم من رغبتي بالضحك منهم،لكن الإحساس بالمرارة يقلب حالة الضحك إلى غضب..مازالت تلك اللحظات تجدد غضبي كلما تذكرتها.بعد أن ضاقت بي سبل الحصول على عمل معقول، رضيت بالعمل-ساعي-لدى أحدى المجلات،كان بعضهم لطيف معي،لكن أغلبهم يتصرفوا بمنتهى الغرور والصلافة،مع أنهم من المسؤولين يغّرون أنفسهم لحد الضآلة..كنت سعيداً بمطالعة كل ما يصلني من مجلات

وصحف.. وشجعني ذلك لأعيد ما كتبت. ولأواصل الكتابة فسلّمت المحرر يوماً بعض المقالات والتحقيقات، ووضعت عليها اسم الأستاذ الذي دربني على استعمال الكومبيوتر بعد تشجيعه وموافقته،لأضع ما أستلمه عن تلك الكتابات بحسابه،ويعطيني إيّاها لاحقاً.. كان الصديق الوحيد الذي أرتاح للتواجد معه.

في بداية الأمر،كدت أطير من الفرح وأنا أرى المقالات على صفحات المجلة.ينظر بعضهم باستغراب وأنا اسألهم عن رأيهم بالموضوع "إنه جيد، هل أعجبك"؟ يتساءلون بدورهم بشيء من السخرية!

لكن بعد شهور خفتَ الفرح كذبالة شمعة شارفت على النهاية،حتى صار كأنه لا يعنيني..فلم يكن هناك من يُعلّق أو ينتقد أو على الأقل يسخر مما أكتب.فكنت كمن يصرخ بأعلى صوته دون أن يسمعه أحد،كما في الكوابيس.فقرّرت يوماً أن أضع اسمي الصريح على المقال الذي كتبته وأعطيته للمحرر كالعادة.تسرعت وسألته في اليوم التالي عن الموضوع.فقال دون أن يتطلّع لي "أعطيته لقسم الطبع" وواصل قراءة الصحيفة

.التي أمامه.لفرحتي سألته دون تفكير "هل أعجبك؟" نظر لي من خلف نظارته وتساءل "وما شأنك أنت؟" فابتسمت.."إنه لي..أنا الذي كتبته"هنا خلع النظاره.. "ماذا؟هل لك أن تأتيني به من القسم؟".سألني وتعبير وجهه ينطق بخيبة من ارتكب خطأ فادحاً!.

كنت لا أؤمن بالحظ ولكن ما الذي يجعل البعض يتصرف معي بالطريقة التي لم أجد لها تفسير؟

لم أفاجأ بموقف محرر الصفحة ذاك..ولكن الغضب والقهر والإحساس بالخيبة والإحباط دفعاني لترك العمل بالرغم من حاجتي الماسة له.

لم أستطع تجرع مرارة الخيبة من تلك المواقف التي لازمتني على مر السنين.في المرحلة المتوسطة..كنت أقرأ الكثير من القصص،والروايات لم أفرّط بساعة واحدة..وتضاعفت رغبتي بالكتابة،فكتبت الكثير ولكن التردد جعلني لا أريها لأحد غير اخوتي الصغار وكنت أعوّض رغبتي بإشراك الآخر بمواضيع الإنشاء.ولكن أفاجأ بالأستاذ يعبّر عن إعجابه بالموضوع بطريقة أبشع من رفضه،فإمّا يتهمني بنقله من مجلة أو كتاب مابعد

أن عرف ولعي بالقراءة،أو يتهمني بما يهز ثقتي بنفسي أن يكون أحد كتبه لي!

فيختلط بداخلي شعور بالإفتخار بما أكتب،من أنه ممكن أن ينشر في كتاب ما،مع الشعور بالخيبة والقهر من عدم ثقتهم بي..أوعدم إيمانهم بقدراتي!هل هو شكلي؟ هل يجب أن يكون الكاتب جميل وجذاب؟لا أعتقد فبعض الكتاب المشهورين والشعراء،لا شكلهم،ولا شخصيتهم ولا حتى سلوكهم يطاق..ولكنه الحظ،ربما،أو هي الجرأة والذكاء أو الثقة بالنفس، والتي يحاول هؤلاء قتلها فيّ!

لكن الحمد لله..واصلت وبإصرار ومازلت،ربما لأن الكتابة ملجأي الوحيد أستظل بها من حمأة الأيام..

اقترب السائق منّي متطلّعا لي بنفاذ صبر،بسبب تأخُر السيدتان اللتان حجزتا عن طريق قريبهن الساكن في عمان. لماذا هو مستعجل؟فلستُ على عجلة من أمري، ولا أتوقع هناك من ينتظرني.

– الأفضل لنا التحرك مبكراً..حتى نضمن الوصول عصراً بأمان إلى بغداد،فقطّاع الطرق ينشطون ليلا،وقد

صارت الفوضى تعم كل شئ..ألم تسمع بحوادث القتل والسلب وحرق السيارات؟..صح إن البعض منها مبالغ فيه..أو مختلق،لكن لا دخان بلا نار.قال السائق بحماس وقلق وهو ينفث دخان سيجارته من فمه بحرقة شاعراً بالأسى على جهلي.

– بلى سمعت الكثير..فالأشرار تلك فرصتهم، خاصة الذين أطلق سراحهم القائد،قبل السقوط بعام ليضمن فوضى الإنتقام،أو الإنتقام الفوضوي...عقّبت لأوافقه الرأي.

– أو من الذين استفادوا كل تلك السنين من مأساة الشعب هناك،وقد ازدهرت تجارتهم،فازداد جشعهم..فهم الآن مهدّدين بوقف ذلك الينبوع لو استقر الحال في العراق.

علّق أحدهم بصوتٍ غاضبٍ عالٍ،وحماس اعتقدت أنه مبالغ به.كان يقف بقربنا، واعتذر عن مشاركته الحديث دون استئذان،ابتسمت دون تعليق.لكن السائق شجّعه،وهو يفتح معه حوارات سلسة،فالسائق كان من النوع البارع

في الحديث،وصوته جميل محبّب للسامع وأسلوبه لطيف وهادئ،على خلاف من عرفتهم..

– هل أنت مقيم هنا..أم عدت من بلاد أوروبا؟سأل السائق الرجل الذي تحدث..فبادر بمصافحته وتقديم نفسه.

– جبّار عبد الكريم..أعيش هنا منذ ثلاثة سنوات، أتيت مدفوعا بأسباب كثيرة..أنتم تعرفون أغلبها،من التي سببّت ذلك الإحساس بالإختناق الروحي وطبعا زادها الوضع الاقتصادي..فكانت هذه المدينة وقد فتحت أبوابها نافذة لنا نطل منها على عوالم حرمنا منها حروبا وحصارا..أو باباً للانطلاق للعالم الحر،أقصد أوروبا... ثلاث سنوات،لم أشعر بغير المرارة..فألأولاد لا يحق لهم الدراسة والتعليم..حتى لو جمعت دم قلبي ودفعت أجور تعليمهم..العمل،لا يحق لي حتى لو كان تطوعياً أو مجاناً،في بلد عربي شقيق!لا يحق لي الإقامة إلا إذا كنت (مليونير)،وفرص العمل لا وجود لها إلا في ما يدعو للإستغلال..في المطاعم أو الحانات وبأجرة بائسة لا تكفي حتى لإيجار غرفة..لم أشعر بالذّل بقدر ما شعرت هنا...

توقّف (جبّار) ليُشعل سيجارة اخذها من السائق وقد شعرت بصوته قد غلّفته غصة حزن،وغضب ابتلعها وتراءت بعض الدموع في عينيه..

- هانتْ..لا عليك، لست وحدك في المصاب..فهناك الكثير..وقد سمعت قصصاً يشيب لها القلب قبل الرأس. قال السائق وهو يتطلع شمالاً ويميناً بانتظار السيدات المسافرات.ثم واصل بمرارة:

- لا يوجد هناك عراقي واحد ترك بلده بلا سبب، إلا القليل من الأغنياء ربما،الأغلبية اجبروا إما لأسباب سياسية،والأسباب الاقتصادية لم تجبرنا إلا بعد الحصار فلا تدرون حجم الأذى الذي سبّبه للناس،كان أقسى حتى من الحروب ذاتها.

لا أدري لماذا لم أعلق على كلام (جبّار) أو حتى أواسيه! استرجعت بعض العبارات في رأسي ولكن ترددت من استخدامها خوفاً أن تخالطها كلمة إنجليزية أو فرنسية أو إيطالية ربما وقد صارت لغتي خليطاً بائساً من تلك اللغات التي والحق يقال لم أجيد أي منها بشكل متكامل،لكني أستطيع التعامل بها..وقد سمعت قبل

قراري بالسفر. أن أغلب الإخوة حاقدين على من يأتي من أوروبا،خاصة أولئك الذين يعتقدونهم أدعياء وهم يطعمون كل جملة عربية بكلمات من لغة البلد الذي أقاموا فيه.ربما هي مبالغة او محاولة لتشويه الوضع من قبل المستفيدين من الفوضى والوضع الكابوسي أو من الذين يتمنون استمرار الكوارث خاصة من العاملين في وسائل الإعلام بكل أصنافها،لم يكتفوا بزرع الشقاق بين أبناء البلد بل أرادوا أن تكون القطيعة بين الأهل وأبنائهم المغتربين.

تطلع لي جبّار بتساؤل،أراد أن أعلّق أو على الأقل أقول من أنا.. فالسائق يبدو حذقا،فلم يعرّفه بي..خوف عدم رغبتي بذلك..أو هو سلوك عفوي بتجاهلي!بالرغم من ترددي،وجدتني لأول مرة أقدم على مبادرة.. فرحت بها..وبقيت كلما أذكّرها أشعر بافتخار.مددت يدي له بابتسامة واثقة.

– اسمي علاء..خرجت قبل ما يقارب الخامسة والعشرون عاما..كنت صبياً..مراهقاً لم أكمل دراستي الثانوية..عشت في أكثر من بلد،كل واحد عشته ثلاث أو أربع سنوات لأنتقل لبلد أخر،في أوروبا،لم أعرف منهم

غير احترام الأخر والإحساس به..بلى لديهم من العنصرية الكثير..ولكن ...

قاطعني السائق الذي لم أنتبه لإبتعاده عنا،وقد أقبل فرحا،رمى عُقب السيجارة في الأرض وداسها وهو يحمل بيده الأخرى حقيبة كبيرة..

– حان الرحيل..أخيرا .

كانت هناك امرأتان بصحبة رجل في الستينات،بدا متعباً،ربما من حمل الحقائب..لم تكن المرأتان عجوزتان كما توقعت،إحداهما قد تكون بالأربعينات أو بداية الخمسين والأخرى أصغر وأقصر منها،كانتا أنيقتين برغم (المنديل الذي على رأسهما) والذي يبدو لا علاقة له بلباسهن.انتظرنا لحظات أخرى لحين وصول السيدة الثالثة.

سألت جبّار الذي كان ينتظر هناك:

– هل أنت مسافراً ايضاً..أقصد عائد للوطن؟..

– سأعود قريباً إن شاء الله فقط أريد أضمن سلامة الأولاد..أنتظر الإتفاق مع أحد السوّاق ليأخذ أقرباء لي

يبيتون معنا الليلة ليرحلوا غداً..المهم..سفر ميمون، رافقتكم السلامة. قال وهو يبتسم.

ساعدت السائق مع قريب السيدتين في وضع الحقائب المبالغ بحجمها وكثرتها،في صندوق السيارة، حيث اخذت حقيبتي لأفسح مجالاً آخر لأغراضهما وأحتل المعقد الأمامي بجانب السائق..تجنبت شراء هدايا فلا أعرف لمن أشتري وما هي أذواقهم أو أحجامهم! وممّا لم يشجعني أيضا على الشراء القصص التي سمعناها عن السلب،والنهب والقتل من أجل أتفه الأغراض.حتى أمّي لم أشتر لها شيئا وقد سمعت أنها مريضة جدا، تنتظر رؤياي لترحل بسلام.

هل سأكون السبب بموتها؟أم ماذا؟..غريب..لم أشعر بأي قلق ولا حزن،ولا حتى شوق..كأني بإحدى رحلاتي المتكرّرة على مدى الأعوام التي قضيتها في أوروبا.أم هي الأحداث المروّعة التي انتزعت مشاعرنا وتركتنا بلا روح!

تمنيت لو ينطلق السائق الآن.. تلبستني حالة من الجزع والضجر الفجائي! أريد أن أصل الآن (لأخلص).أخيراً

صعدت السيدات وقد ودّعن قريبهن،لم أسمع أو بالأحرى لم أصغ لحوارهم..

– الاخ علاء مثلكن، مغترب منذ ما يقارب الثلاثين عاماً.بادر السائق يعرفهن بي..

–أهلاً وسهلا. ردّدن معا.

– من أي بلد أتيت؟ تساءلت السيدة الثالثة التي التحقت بنا أخيراً،كانت الأكبرعلى ما يبدو وعلامات التعب ظاهرة على وجهها الذي مازال يحتفظ بجماله.

– من بلدان عدة.أجبتها باسماً،وحتى أقطع عليها رغبة الاعتراض أو التساؤل عن التفاصيل.سألتها وحضرتك ما بلدك (الثاني)..

– أنا أيضاً مثلك تقريباً،لففنا بلاد العرب (أوطاني) فشعرنا بالغربة الحقيقية،كنا نطمح أن نربي أولادنا بوسط قريب لأجواء الأهل والبلاد مع ذلك اشتد الخناق، فقررنا الرحيل الى أوروبا ثم استقر بنا الحال في كندا.. صوتها فيه حماس وانفعال كبيرين،لكنها صمتت بعد ذلك ولم أسمع منها سوى عبارات وجيزة،لتثبت أنها كانت تصغي للأخريات.

شدّني حديث الصغرى،والتفت لها وكأني أردت التاكد من كلامها،وهي تقول أنها من الذين هُجروا لإيران. فشعرت بشئ من عدم الإرتياح!هل هو بسبب الذكريات التي نسيتها؟أو حاولت نسيانها؟أم بسبب البعض ممن التقيتهم؟

حين كنا صغارا يمتعض بعضهم لو ذكرت أنه من إيران أصلاً ويحتج لذلك كأنك تتهمه.حتى الزميل الذي كنت ألعب معه في مرحلة الإبتدائية،كان يبرر حالة (التهمة بالانتماء لإيران) أنه ولد هناك حين كان والداه بزيارة للإمام الرضا،وأمه كانت حامل به.فأحاول أن أخفّف عنه الشعور بالإحراج "أنت صديقي ولا يهمني من أي ملّة أنت، ثم إن الإيرانيين إخواننا،فلماذا تشعر بالحرج؟"

بينما لاحقاً،حين تدهور الأمر بالعراق،صار الكل يبحث عن أصل جديد له.التركماني صار تركياً، والأرمني تذكر أنه من أرمينيا،حتى بعض الاكراد، لبسوا الثوب الإيراني ليكسبوا به قضية اللجوء،قبل مصيبة حلبجة.حيث انعكست الآية وصار الكثير من الإيرانيين

ذاتهم أو عرب من دول أخرى، يدعون أنهم أكراد من العراق ليضمنوا قبولهم في أوروبا.

ولكن الأدهى من ذلك هناك عراقيون عرباً من الذين ابتلى بهم العراق،من الذين خرجوا مثلي أو لأسباب اقتصادية،تنكروا للعراق..فلن أنسى تلك الليلة، كنت في بيت الصديق الوحيد الذي نادرا ما أبيت لديه، في حالات نادرة.

لا أذكر كيف بدأ الحوار الذي احتدم وتخللته لحظات انفعال.زارتهم عائلة من أصدقاء لهم قدامى،سألتهم زوجة الصديق أين تركوا أولادهم،فأجاب الرجل:

"مع جارتنا،سيدة كبيرة ووحدها وتحب الأولاد" تسائل صديقي "من أين هذه المرأة عربية أم عراقية؟"فكان الجواب سبباً للاحتدام ولمقاطعة ذلك الضيف"أنها تركية".

"والله؟..وكيف يتفاهم الأولاد معها، بالإنكليزي؟".

"لا إنها تتكلم العربية،إنها من كركوك".

هنا انفعل صديقي واحمر وجهه،لا أدري من الشرب أم من الغضب:

"وهل كركوك في تركيا،حتى تقولوا أنها تركية؟ لماذا لم تقل أنها عراقية تركمانية؟". وواصل بعصبية.

"اذا كنا نحن نتبنى تلك الآراء العنصرية،فلا عتب على صدّام غذن حين هجر البعض بتهمة التبعية الإيرانية؟أم لأن العراق الآن بمحنة،فالكل يحاول التخلي عنه".

سكتنا جميعا،لم يحر الضيف جوابا.فبادرت زوجة الصديق بتقديم صحن الحلويات وهي تبتسم لتخفف من قتامة الجو المشحون.

فعقبت زوجة الضيف مبررة الأمر بما هو أمرّ "ما الذي رأيناه من العراق؟..من كارثة لمصيبة".

هنا فوجئنا بابنة صديقي ذات الأربعة عشر ربيعا، تنبري بصوتها الناعم لتقول بعصبية "وأنتم ماذا رأى منكم العراق؟كلكم هربتم وتركتوه للكوارث،المفروض نحن من يقدم للوطن،لا أن نطالبه أو نتخلى عنه" ثم ركضت لغرفتها باكية.شعرت وكأني أرتفع عن الأرض، شعور بالافتخار هزّني،وإحساس بالفرح غمرني وأنا أعرف أن هذا الجيل الذي لم ير العراق،هو من سيدافع عنه ويعيد له عافيته.

لم أسمع بعض ماقالته..انتبهت لليلى السيدة التي معها،وهي تقدّم لنا بعض من صور إبنها وهو صغير"هكذا تركته..وهاهو الآن،رجلاً"قالت بافتخار، وهي ترينا صورة شاب وسيم يتكئ على نخلة في حديقة دار.

واسترسلت بالحديث عن ذكرياتها وتجربتها بالحياة.

لم تكن لي ذكريات كثيرة..لكن فجأة تراءت لي صورة.. صورة قديمة، رأيتها يوما..

إذن هناك البعض من الذكريات التي تعينك برحلتك وتخفف عنك عناء السفر!

كانت تلك المرة الأولى التي عرفت بها (الحب) كما قرأت عنه أو سمعت بعض حكاياه من جدتي..التي كانت كنزا من الحكايات،والتي بالرغم من محدودية تحركهم.. كانت ينبوعا لقصص جميلة وحِكمْ ترطب أجواءنا صيفا وتدفئنا شتاءاً.

لكل موقف نمر به أو نذكره هناك حكاية أو تعليق.لا أذكر من قال من أخوتي يوما،أو ربما أمي،"كل حلو

وفيه لولا" كنا صغار نتجمع بقربها يتكئ بعضنا عليها أو يتكوّر بحضنها كتجمّع الفراشات على زهرة نادرة برحيق عذب."شنو يعني- لولا؟" سألت أختي الصغرى فأجبتها ساخراً من جهلها "يعني حيث نقول..أنت لطيفة لولا جهلك".غضبت وراحت تضربني.

فضحكت جدتي.."عفية عليك..يعني كل واحد مهما كان جميلاً..لابد أن هناك شئ يعيبه" ضحكت علية أختي الكبرى وهي تعلق "يعني الحلو ما يكلمش"ومالت برأسها جانبا على طريقة ممثلة مصرية في دور شعبي.

فسرحت جدتي بنظرها بعيد وأخذتنا معها لأيام الشباب.

"بتنا يوما في دار شيخ من البدو في رحلة للعمارة وقد داهمنا الليل والتعب..فاستقبلنا أهل البيت وجاءت ابنتهم بالشاي قدمته لنا،كانت جميلة بظفائر سود وعينين جميلتين ووجه أبيض وبشرة شفافة كحب الرمان،كان ابن عمها يجالسنا ويتطلع لها بإعجاب وشوق واضحين، لم يرفع عينه عنها فكنا نتحدث عن الكمال..وقلنا (كل حلو وبه لولا)..فالتفت لنا ثم قال بحسره (والذي مابه

لو لا) شتكولون عليه؟..فعرفنا قصة حبه، وإصراره على الزواج من ابنة عمه رغم إعتراض أمها ".

بالرغم من كبر سنها وتعبها،كنت أشعر بها أقرب الناس لي،كانت الوحيدة التي عززت ثقتي بنفسي وتتوسل لي أن أقرأ لها ما كنت أكتب،فأشرح لها ما تعني هذه الكلمة أو تلك بلهجتنا.

كل واحد منا كان يشعر أنها تخصه بحب مميز. كنت أتأمل يوما ان أسجل كل ماتقوله،لأحتفظ بكنزها الثمين ذاك.لكنها رحلت بغفلة من الزمن وأخذت معها كنزها، لم نحتفظ بغير الشذرات القليلة التي منحتنا إياها يوما.

تذكرت جدتي حينها وأنا اتطلع لصورتها..أبحث عن (لولا) لأخفف من لهفتي للقاءها،وأهدهد ذلك الحلم الذي ظل يراودني زمناً..

كنا صغاراً لم نتجاوز السادسة عشر حين اقترح أن نتطوع بالجيش..بعد فشلنا بالدراسة وعدم رغبتنا بمواصلتها..بعد أسابيع وجدنا أنفسنا بالملابس الخاكي والبسطال،رغم إعتراض الأهل وإحتجاج الأم وسخرية الإخوة من الفكرة..

بعد شهور .قصيرة من التدريب،عرفنا خلالها لماذا يتهرب الشباب من العسكرية.وجدنا أنفسنا على الحدود بحرب حقيقية،نواجه عدواً حقيقيا..نحفر خنادق نشاطر بها الأفاعي والعقارب والخوف..

كانت المرة الاولى والأخيرة التي استلمنا بها رسائل الأهل،رسالتي كانت مقتضبة تحيات من الإخوة وأماني بالعودة سالما،مع الأمنية بالانتصار..وتلميح لقلق أمي وبكاءها المتواصل علي.

. بينما هو قفز فرحا وهو يحمل الرسالة مع صور صار يقبلها..

"ها خير انشاء الله.."تساءلت فتطلع لي بضحكته العريضة.."خير..طبعا خير.. إنها من أخي الذي في كندا مع صور لأولاده كنا مثل (التوأم) أنا وابنته الكبرى،بالرغم أنها تصغرني بثلاث سنوات،كل ما يشتروا لها شئ يشتروا لي مثلها وإلا ما يخلصوا من بكائي وصراخي..لم يخطر ببالي أن تصبح شابة بهذا الجمال".صار يتطلع لها مرات ومرات،ثم أعطاني

الصور إياهاءتطلعت لأخيه مع زوجته وأولاده.عائلة صغيرة جميلة..كل شئ فيها مختلف، ملابسهم والبنايات، الساحة التي يقفوا بها.

ثم صورة- شهد- ابنة أخيه التي سماها أبوها على اسم أمه..خفق فؤادي كجناحي طائر فاجأه المطر. الابتسامة كانت كأنها تعنيني أنا وحدي-عينان باسمتان بوجه ملائكي..كما رأيته في لوحات الرسامين الكلاسيكيين، فلا أعرف كيف شكل الملائكه؟

تمنيت لو أخبئها دون علمه،شعرت وقتها بدوران، بأذى وأنا أسلمه اياها بارتباك.خفت أن يقرأ إنفعالي على وجهي..

في اليوم الثاني جائتنا الأوامر للزحف قدما للهجوم! لم يسأل أي منا، كيف ومتى؟.

سرنا والخوف ينقّل أقدامنا فلا نشعر بثقل الجزم أو حقائبنا..ثم فجأة اشتعلت السماء نارا،فتعالى الصياح وإختلطت الأوامر..بين الإنسحاب والمضي قدماً إلى التموضع والاستعداد للرمي!

التفت،كان هناك جنودا قد سقطوا تو ا..بعضهم قتل في الحين..بحثت عن نادر.لا صوت..ركضت على الذين أصيبوا فصرخت.صرخة كأنها كانت من سماء أخرى،من كائن آخر،حين رأيت نادر هناك ممددا والدماء والغبار يغطي وجهه،حملته على كتفي وركضت غير عابئ بالصراخ الذي خلفي أو أمامي..ولا أدري الى أين؟.واصلت الركض حتى وصلت خندقاً ورميت نفسي مع حملي في داخله..

"نادر.. نادر.. تماسك يا أخي،سآتي بمن يساعدك.." كانت يداه باردتان،فركتها بين يدي لأدفأه،أخرجت من حقيبتي غطاء وغطيته أزحت الخوذة عنه..فأرعبتني كمية الدماء التي كانت تنزف من هناك وضعت يدي بمحاولة يائسة لمنع الدم من التدفق،رأيت وجهه صار شاحبا..صرخت عالياً بيأس.

لم يسمع أحد،تطلعت خائفاً لم أعرف هل انسحبوا أم تقدموا؟ وقف القصف.فنظرت برعب لجثث الجنود التي تناثرت.أردت أن أعرف إن كان بعضهم مازال حيّاً.. ولكن ليس من المعقول أن يتركوا جريحاً ويذهبوا..

اخرجت عدة الأدوية وحاولت تضميد الجرح،تطلعت لعينيه فعرفت انطفاء الحياة بهما،راعتني فكرة موته فصرخت وأنا أعانقه.. "لا ترحل... يا إلهي أرجوك ".

لا أدري متى نمت بعدها،فقد هدّني التعب من البكاء والصراخ والقلق.

صحوت صباحاً وقد لسعني البرد،شعرت بيداي لا تقويا على الحركة فركتهما ببعض،منحني الدفء قدرة لتحريك أصابعي..

تطلعت لنادر..لم أستطع أن أسيطر على حالة البكاء "كيف أوصل الخبر لأخيك..ماذا سأقول له؟سأخبره كم كان سعيدا بصوركم وأخباركم..كان يحلم بلقاءكم..لابد أن روحه معكم الآن"..

أخذت حقيبته وتركته بالحفره وأهلت التراب عليه "نم بسلام..يا أخي"..قرأت عليه الفاتحة..وحملت حقيبته على كتفي وتركت حقيبتي هناك.لا قدرة لي على حمل الإثنان..فإذا بمجموعة من جنود الأعداء..يتراكضون نحوي بعضهم يتفحص القتلى..بحثاً عن جرحى لقتلهم أو

لأسرهم فشعرت أنها النهاية..بحثت عن سلاحي أدركت اني نزعته أثناء معالجة نادر.فأغمضت عيني بانتظار الموت،دهشت وهم يأسروني..لم يقتلوني!!

حشرونا في معسكر قريبا من الحدود،خفت أن يأخذوا الحقيبة..فتحتها فأخذت رسائل نادر مع الصور وخبئتها في داخل قميصي..كنت أتحين أي لحظة لأتطلع إلى الصور..ويأخذني الحلم بعيدا للقاء بها وأحكي لها عن نادر وصداقتي به، فهو الوحيد الذي قد يشفع لي ويقرب (شهد) مني. أشركني البعض بهمسه عن فرصة الهروب،عن طريق اقناعهم بأننا–لم نكن أسرى..وإنما نحن رافضون للحرب على الأقل ليعاملونا بشكل أفضل، وقد سمعنا عن قتلهم لبعض الأسرى!!فلم أسأل كيف؟ تحمست أكثرهم للفكرة، صرت مؤمنا بقرب تحقيق حلمي بلقاءها..نهرب لباكستان ثم لأوروبا، ومنها إلى..كندا..لم يخطر ببالي أن أفكر بالمكان والناس هناك،كانت صورتها تغطي كل المشهد. ولم يخطر ببالي أن أكتب لأهلي أي إشعار بأني مازلت حيا،ولكني كتبت لأخي نادر،العنوان الوحيد الذي معي.

قدر الشباب حزني،وخوفي خاصة من هم أكبر منا فاعتبروني منهم،واستطاعوا أن يحققوا نجاحاً لا أعرف كيف؟،بالاتصال بمسؤولي الصليب الأحمر والأمم المتحدة.

هكذا بعد سنين من الإنتظار بين الخوف والقلق.. الخوف من العودة وتعرضنا للسجن لأننا لم نستشهد! ومن بقاءنا تحت سقف الإهانات والتعذيب النفسي والجسدي المتواصل..

كانت صورتها التعويذة التي منحتني صبراً وأملاً.

عرفت أن البعض القليل التحق بقريب أو أخ له في أوروبا عن طريق (الصليب الأحمر) بدعوة سميت (لمّ الشمل) فتلبستني فكرة أن أراسلها،فتدعوني (للمّ الشمل) بها حين توافق على زواجي منها..صرت آكل وأشرب ذلك الحلم وأنا أقّلبه وأضع له السيناريو تلو الاخر.حتى همس بأنني صالح،أكبرنا سنا في المعسكر..

– أخ علاء ألستَ جائعا؟هناك مقهى،أو هكذا يطلقوا عليه،السائق وأم سماح سبقانا إليه.همست ليلى بصوت أمومي،وافقتها،ولكني بقيت قرب الباب أدخّن سيجارتي..

"علاء مابك يابني؟لا تأكل و.لا تشرب،انظر للمرآه وجهك صار (بقد الفلس) كلنا في هذا الحال،لابد من الصبر وستفرج إن شاء الله..تعال وكل لقمة معنا".

قبل أن أذهب معه تطلّعت للمرآة التي علّقها أحدهم نسيت اسمه،كان مولعا بشعره..وتشذيب لحيته فقد كان وسيماً جداً.خفت حقاً وانا أرى الهالات السود حول عيني،ولحيتي الحديثة العهد تتاثر شعرها كما حشائش الثيل في حديقة لم يسبقها أحد.شعرت بجوع شديد، فأسرعت لمشاركتهم الأرز والمرق،الوجبة اليومية.. وجدته حينها ألذّ طعام ذقته في حياتي .

انسحبت بعيداً عن المقهى وقد احتدم نقاش لا أعرف عن ماذا!..لا أنكر كيف كان الإقتراح لاختيار فرنسا..فالبعض ادرج اسمي ضمن الموافقين على السفر إلى هناك، مأخوذاً بفكرة باريس مدينة العشاق،واللغه الفرنسية المحببة.لكنني كدت أقول لا..بل أريد الذهاب لكندا؟ ضحكت من نفسي وكأن الأمر بيدنا لنختار..

تأملت المقهى..وأنا أتذكّر مقاهي باريس الجميلة خاصة أيام الصيف والشمس.

تحمّست لتعلم اللغة حين عرفت أن كندا نصفها يتكلم الفرنسية ولا أدري بأي نصف تسكن شهد وأهلها..

كدت أقبّل الزميل الذي تعرفنا عليه وساعدنا كثيرا أيام وصولنا باريس..حين زفّ لي خبر عن إمكانية العمل في أحد المقاهي،في المطبخ لغسل الصحون وتنظيف المكان خاصة بعد الإغلاق.

لا أعرف وقتها كيف مرّ عام كامل دون أن أشعر به ولم أعدّ أيامه وساعاته،ربما لأن وقتي كان مزدحماً بين المقهى والدراسة.وعدت لهوايتي فكتبت قصائداً أو هكذا سميتها لذلك الحلم الذي به كنت أرى كل شئ ملوّن وجميل.أطرت صورتها وحرصت ان أخبئها بين كتبي، خوف ان يراها أحد الزملاء القلائل الذين يزوروني..

كم كان جميلاً ذلك النهار، حين قررت أن أعود للبيت وأكتب رسائل للأهل،أبعثها على عنوان مدرستي أو عمل أخي لعلها تصلهم،فربما يعتقدوا باستشهادي،أو مازلت أسيراً، أو مفقوداً!..

كان المقهى مزدحماً جداً في الداخل والخارج.. فطلب مني صاحب المقهى أن أساعدهم بتلبية طلبات الزبائن،

وأشار لطاولة جلست لها فتاة جميلة جداً كما شعرت من نظراته صوبها. فضحكت مهللا للفكرة..

حملت القهوة،ومسحت الطاولة وانا أسلّم"Bonjour مدام .فردّت بصوت دافئ وهادئ جميل.نظرت لها مبتسما، فخذلتني قدماي،تعثرت بالكرسي المقابل لها لأسقط على الأرض وأنا أتطلّع لها بذهول..

نهضت تساعدني على الوقوف،وهي تعتذر!

"لابد أنك متعب..هؤلاء إستغلاليين،يمتصون العامل، خاصة الأجنبي"..كان كلامها يأتيني من بعيد.فهمستُ بصوت واهن متساءل غير مصدق (شهد)؟

"ماذا!؟..كيف تعرف اسمي؟" تساءلت باستنكار.

افقت من ذهولي،وأنا أتأكد أني لم أكن أحلم،إنها هي، حقا هي..."أحقا أنت، شهد،ابنة أخو نادر؟"

تراخت ملامحها وابتسمت فرحاً "نعم أنا..من انت؟.."،ناداني صاحب المقهى، لكنها رجته أن يسمح لي بثواني..كنت على استعداد أن أرمي له بالمأزر (الطابلية)..أجلستني بقربها وقدمت لي كأس الماء الذي جلبته لها مع القهوة.شعرت بإحراج وأنا أتأمل وجهها

الطفولي، شعاع عينيها، أنها أجمل من الصورة. ياالهي كم أشكرك وقد عوضت صبري...

كانت تنتظر بلهفة أن أحكي لها من أنا وما علاقتي بنادر؟..

فحكيت لها ولم أتمالك نفسي من البكاء،عن كل الذي حصل باختصار.

نزعت عني (الطابلية) وأخذتها لصاحب المقهى طلبت منه أن يعطيني عطلة ولو لذلك اليوم،افهمته أني قريبها وكانت تبحث عني..

أخذتني من يدي للمترو...ثم تاكسي لبيتها الذي كان في ضواحي باريس..ارتبكت ولكني تركتها تسحبني كالمنوّم..أنه حقيقة وليس حلم،هذه يد شهد في يدي..

صاحت بصوتها الطفولي المنفعل..

"تعالوا..لدي مفاجأة لكم..ماما،بابا..كلكم تعالو.."كانت تحكي باللغة الفرنسية،لم أسمع لغة أجمل من تلك.. تطلعوا لي ببلاهة وتساؤل.."هل تذكروا الرسالة التي وصلت عن المرحوم نادر؟..تخيلوا،هل من المعقول أن

نلتقي به هنا؟..إنه علاء..صديق نادر والذي كان معه بلحظات الوداع".قالت الجملة الأخيرة بخشوع وهي تقاوم الدموع..فهب الأب يصافحني ثم يعانقني.وراح الكل يربّت على كتفي وكأنه يلمس من خلالها فقيدهم..

عرفت منهم أن الأهل لم يستلموا جثة أبنهم،فقلت معتذرا..ربما لأني دفنتها خوف تشوهها من قبل الغربان البشرية أو الطيور،ولكني كتبت الإسم والمعلومات الأخرى على لوح الخشب الذي وضعته شاهداً على القبر..تغديت معهم، تمنيت أن أبقى هناك، ولكني قبل العشاء اعتذرت لهم.لابد من الذهاب،أردت أن أختلي بنفسي،أن أغني،أرقص،أصيح بأعلى صوتي (لقد وجدتها)لن أركب سيارة ولا مترو..سأسير وأسير حتى لو وصلت في اليوم الثاني أو الثالث..

"لا تذهب الآن،سيأتي سمير ونوصلك بالسيارة"

سمير؟ربما إبنهم الأكبر،للأسف لم أحفظ من الأسماء غير اسمها.قلت بإصرار"..لا..لا،أريد أن أمشي فقد أكلت كثيرا..شكرا على الغداء الطيب..".

عرفت أنهم في زيارة،وهذا بيت شهد،حيث هي تدرس هنا. دخل سمير، يشبههم قليلاً،شاب وسيم طويل

وذو نظرات واثقة وثاقبة بعينين سوداوين تشعّان حياة...
وكأن هناك من صفعني ليصحيني..فمرّت بذهني أيام
العسكرية الأولى..

"سمير خطيبي.." قالت بفرح وهي تحتضن ذراعه
ويقبلها هو من رأسها..صافحني وهو يشكرني،فقد
شرحت له كل شئ بالتليفون...أثناء تحاوري مع الأهل..

جفّت شفتاي ولم أستطع النطق بحرف.قدّم لي الأب
كأس ماء.."سمير الابن الأكبر لإبن عمي الذي سحبني
لكندا أمه كندية سيدة رائعة كأنها منا.."

صعدت معهم بالسيارة..أتأمل الشوارع التي فجأة
صارت تمد لي لسانها ساخرة "من أنت لتحلم هكذا؟.." لم
أفق إلاّ على سؤالهم..لقد وصلنا منطقتك بأي اتجاه
الآن..أشرت لهم..حين وصلنا تمنيت أن يتركوني في
الشارع، ولكن وجدت نفسي أقترح عليهم التفضّل عندي
ولو لدقائق،في الشقة الاستوديو..التي هي عبارة عن
غرفة واحدة هي مطبخ وللنوم وللضيوف..

الحمد لله اني رتبتها صباحا..

قدمت لهم عصير،تأملتْ المكان وهي فرحة. وقالت للمجاملة "شقتك جميلة.."فضحكت،ونطقت بصعوبة:

"بوجودك"..

"لابد أن تأتي لزيارتنا، حتى بعد سفر الأهل.. تزورنا أنا وسمير..سنتزوج بعد تخرجي..أي العام القادم"..

"ألف مبروك" قلت ذلك وأنا أدير وجهي مخفيا انفعالي وصرت أقلّب في الدولاب الوحيد فوجدت حقيبة نادر..التي مازلت أحتفظ بها ثم أخرجت الصورة من بين كتبي ووضعتها بين الملابس..

مددت يدي وأنا أقاوم دمع استعصى عليّ.. قدّمت لها الحقيبة "هذه حقيبة نادر..احتفظت بها..لأني توقعت أن أراكم يوماً ما.."أخذتها مني وهي تتأملها،لم تفتحها احتضنتها كما تحتضن الأم الوليد..وقبّلتها.

ثم فجأة أعطتها لسمير..وعانقتني،اكاد يغمى علي من المفاجأة..أو من الفرحة..

"لا أدري كيف أشكرك..عشت العمر أحلم أن ألتقي بعمي..ولكني أشعر وكأني التقيته الآن..انت حققت لي تلك الأمنيه أو الحلم.."

لم أتمالك نفسي..من البكاء،هل لذكرى نادر..أم لفقداني صورتها..أم هو الوداع لكل تلك الذكريات..؟

"لا تقلّبي مواجعه..كفى" قال سمير وهو يحثها على الرحيل...ليعودا للبيت.

لا أدري إن كنت نمت ليلتها،لم أذهب للعمل لإسبوع كامل..حتى فاجأتني هي وأهلها،جاءوا لتوديعي لأنهم يأسوا من مكالمتي لهم.."أي شئ تحتاجه،سمير هنا يساعدك.."

"سأسأل لك عن عمل أفضل" قال سمير بزهو..فقلت" شكراً لكم..أفكر أن أذهب لإيطاليا.."

فساعدني سمير وشهد بالذهاب لايطاليا،اشترو لي بطاقة للذهاب بالباخرة..درجه أولى،وقد تذكّروا رغبتي بالسفر بالباخرة..في لقائي الأول بهم..

بقى فراغ تلك الصورة محفوراً بلوحة أيامي لسنين، لم يملأه ترحالي المتواصل بين دول أوروبا..أو استقراري بلندن،ربما هذا ماجعلني أتعامل مع الحياة بلا حماس ولا حلم..

لم يصلني أي خبر من الأهل،بعد محاولتي عن طريق الصليب الأحمر..

أخيراً انطلقت السيارة بعد انتظار ساعات،وتأخير بدون سبب منطقي،كنّا سنقطع نصف المسافة لو أنهم سيّروا الأمر بشكل معقول..

– لم تر شئ بعد...قال السائق وهو يضحك بمرارة.
لم أعلّق بل اتكأت برأسي على النافذة أحاول التمسك بتلك اللحظات التي اعتقدت أني نسيتها،ومواصلة عيشها من جديد وقد استجدت فجأة ..

كانت الساعة قرب الثانية صباحا،حين رنّ جرس التليفون.لحظات وأنا أقاوم اليقظة لظنّي أني مازلت نائماً وأن الرنين ذاك في الحلم.

ثم نهضت فزعا وركضت للتليفون قبل انقطاعه..بعد تردد لثوانٍ من أن يكون لأحد الإخوة–السكارى–الذي لا بد انه لم يجد من ينادمه..فوجد بتليفوني ضالته!

الصوت بعيد ومتقطع "علاء..أريد التحدث للأخ علاء..علاء دواش.."

"من؟..أنا علاء.." فجاء الصوت مشككا،حتى كدت أفقد أعصابي وأغلق السماعة"يا أخي أنا علاء..من أنت؟ تكلمني في هذه الساعه المتأخرة لتشكّك باسمي أم ماذا؟..".

"لك علاء..يا إلهي...كم أنت كريم يا رب..أنا حاتم..أخوك،إلاّ تذكرني..شلونك"..لثواني كنت مثل الأثول..ثم تذكرت صوت حاتم،بتعليقاته،بشجاره معنا وانتقاده لكل مانفعله فصحت بأعلى صوتي..من دون وعي،حتى يسمعني"حاتم..حبيبي..زمن وأنا اكتب لكم ولم يصلني جواب.."

كان يبكي،وصوت آخر يحاول تهدأته.."فعلا الحي وفي الحي يتلكئون".

عرفت أنه يهاتفني من بيت أحد أصدقاءه،بات هناك فقط ليكلمني،ليس لديهم تلفون بعد..عرفت انهم أنتقلوا من مدينة الثورة...للبياع،ولم تصلهم رسائلي جاءهم إشعار بوفاتي!واستلموا حقيبتي وذهبوا ليعاينوا (الجثة) فكانت لشاب آخر وسيم لا علاقه له بملامحي،اقتنعوا بالبداية

-أني مفقود-وحين لم يسمعوا خبرا،أقنعوا أنفسهم بموتي..ربما ذلك منحهم شئ من الراحة،راحة من القلق والانتظار.

أخذت رقم صديقه لأكلمهم لاحقالم أنم وقتها..انتظرت الصباح بفارغ الصبر..

شربت ثلاث أكواب للقهوة،اتصلت بالمؤسسة أعلمهم بتغيبي لذلك اليوم..أستعجل الساعات وأعد الدقائق.

صرت كلي أذناً تتصنت لرنة التليفون التي بالأمس القريب كانت تضايقني..وأنا أهيئّ مقدمات للحوار أو بداياته..

حضّرت كأس ماء إحتياط،فلا أدري ما الذي سأقوله لأمي..هل أهنّئها على عودة ابنها من العالم الاخر..ربما هم لم يفاجأوا مثلي،أي لم يفاجأوا بالعثور عليه حياً،كما فوجئتْ أنا بموتي..فقد سمعت حالات تصلح أفلاما ويستغني بها كتاب السيناريو عن البحث عن قصه ما لفيلم أو مسرحية لأعوام.عن المفقودين الذين لم يعودوا.. والأموات الذين عادوا..ونادراً الذي دفن يحمل أسمي.. وأهله لم يستلموا غير بعض ذكرياته.. ورسائلهم له..

لم أفتح التلفزيون وقتها لأتشاغل به،بل رحت أدور بالمطبخ الصغير،وجدت نفسي أنظفه لأول مرة منذ انتقالي للسكن.فوجئت بكم الدهون المتراكمة،ولون الكاونتر الذي نقشته دوائر كؤوس الشاي والقهوة،بل وجدت صحونا تختبئ في الزوايا لم أنتبه لها،تقبع هناك منذ شهور،ربما..

تطلّعت للساعة(كيف فاتت كل تلك الساعات) ركضت لأضرب الرقم مرة ومرات،لم أحسب حساب سوء الخط. أخيراً جاء صوت لم أعرفه ارتبكت ونسيت أن ألقي التحية فصحت بأعلى صوتي:

- حاتم؟

فجاء الصوت يحيي ويرحب على عجل،وهو ينادي على حاتم.

بكت أمي وهي تمطرني باسئلة تكررها دون تغيير، لا تخرج عن نطاق "شلون يمة،زين؟شلون صحتك، مرتاح،أنت نسيتنا؟"

أعتذر لها وأنا اؤكد محاولاتي،لكنها تعاود الأسئلة ذاتها.لم يأت أحد من إخوتي غير حاتم،اكتفوا بالسلام.

سأل حاتم عن عملي وفيما إذا كنت مرتاحاً من هذه الناحية.طمأنته،فحكى لي عن سوء حالهم وأولاده بلا عمل ولا دراسة،وإخوتي كلّ "ملتهي بنفسه" فوعدته بالمساعدة!

انتهت المكالمة..لم أشعر بها عدا صوت أمي الذي بقي عالقاً بذهني،كنت أنتظر أن أبكي معها،بل أصرخ، لأبثها كل الشوق الذي عشته،كل الألم الذي تراكم بالروح حتى صارت صدأة مثل آنية المطبخ المهملة.لكن لم تنفع دموعها بإزاحة ذلك الصدأ.استلفت مئة دولار،وقد سمعت أنها صارت تساوي آلاف عراقية،من الصديق الوحيد واستعنت به ليبعثها لهم على معرفته.بعد أيام اتصلت بهم لأعرف عن استلامها.فوجئت بسلام أخي الذي كان عتاب اختلط مع الشكر الذي بدا شاحباً إزاء الجهد الذي بذلته.كان يتأمل أن أرسل له مبالغاً،ليقوم بمشروع كبيريشغل أولاده وإخوته.فلمست خيبة بصوته حين عرف طبيعة عملي وتردّي حالتي المادية.قلّت الإتصال بهم حتى صار نادراً.ثم تلاشى وأنا أغرق في عالم الكتب الذي عوّضني عن بعض ما أفتقده.

"لماذا لا تعاود الكتابة للمجلة إيّاها أو لإحدى الصحف". سألني صديقي وهو يتابع وضعي الاقتصادي. "على الأقل لتساعد أهلك بين الحين والآخر".

إنه على حق،ولكن من ينشر لي ،فمهما كانت موهبتي بالكتابة،فأنا لم أخرج من معطف (الساعي)،وليس لي معارف من المشهورين أو المؤثّرين.فأقترح أن أعاود النشر باسمه وقد عُرفت به بالبداية .

"ما الذي يضيرك،ألا يعجبك اسمي؟أغلب الكتّاب يكتبون بأسماء مستعارة.وتأكد أنهم لن ينتبهوا للأمر ولن يتذكروا ما حصل بينك وبينهم..أو أكتب للصحف الأخرى".

ترددت زمناً،ثم ارسلت بعض المقالات،والبحوث للمجلة ذاتها،فوجئت بنشرها،ثم ارسلت قصصاً لصحف أخرى.حتى جائني في ذلك النهار.

"لقد اتصلوا بي من إحدى الصحف،فأضطررت أن أكلمهم باسمك،وطلبوا مقابلتك..لديهم إقتراح أن تتولى مسؤولية إحدى الصفحات،وأن تجلب معك سيرتك الذاتية أي سي في CV ".

ارتبكت،كيف أذهب لهم،وماذا لو عرفوا طبيعة عملي السابق؟حتما سيغيّرون رأيهم،بل ربما سيمتنعون عن نشر أي مادة أرسلها لهم بالمستقبل،وليس ببعيد أن يؤثّروا على الصحف الأخرى،وأضيّع المشيتين.فطلبت منه بعد تردد"إذا اتصلوا بك مرة أخرى،قل لهم أنك ترحب بالفكرة وتشكرهم لكنك ستسافر وحين تعود ستتصل بهم حتما".

فقد قررت حقاً لو عدت سأتصل بهم وأحكي لهم عن سر الإسم أيضاً،من يدري قد يشفي الحظ وتفتح نافذة القدر التي صدأت انغلاقاً،وتتعدل الأمور معي.

عرفت أن الأهل بعد الحصار باعوا البيت وأجّروا بيتاً أصغر في الشعلة،ثم عادوا للثورة التي صار وضعها أسوأ من قبل بعد الإهمال المتعمد للخدمات فيها والذي كانت تنافس به المدن والأحياء الشعبية الأخرى.

بالمقابل حصلت طفرة لبعض الأقرباء بوضعهم الاقتصادي،انتقلوا على أثرها للأحياء الحديثة الأفضل من ناحية المظهر،أو الراقية بل بعضهم قيل أنهم صاروا

يسكنون دورا أشبه بالقصور.

تملّكني خوف أو قلق،وأنا أتخيّل نفسي أن أشعر بغربة أصعب من غربتي في أوروبا، حين أصلهم.

لم يعد ذلك الحلم يعاودني وقد تلاشت تلك الصور التي رافقتني بالسنين الأولى،وأنا أتخيّل عودتي لهم واستقبالهم لي والفرح الغامر الذي سيشملنا،والعناق الذي كنت أشعر بدفئه على البعد.

هل حرماني من شهد أو من الحب والاستقرار،قتل مشاعر الحب والشوق لهم؟أم هو الهروب من المسؤولية إزاءهم؟قد يكون تكرار تلك المشاهد أتلفها كما تتلف الأفلام القديمة من كثرة الاستعمال،أو ربما هو تردّي الوضع الذي لم يترك مجالا لغير القلق والغضب.

شعرت بضيق من الحماس الذي أظهرته ليلى في مسألة التفتيش،ذكرتني بالكثير من الذين التقيتهم من الأدعياء أو المدعين،لا يفكرون بمنطق،وكأنهم مراهقون يبحثون عن بطولات.بلى،البعض منهم استغل عدم معرفتنا بهم أو بتاريخهم وصاروا يخترعون قصصا لمغامرات وبطولاتهم لسجون سمعوا عنها فقط من

آخرين ضحّوا فعلا بسنين من عمرهم بأقبيتها من أجل مبادئهم أو قيمهم.

ربما الخوف من التعطيل جعلني لا أطيق إقتراحها، فلسنا وحدنا بهذه الحال،ثم كيف نغيّر من وضع اعتادوا عليه عقودا وسنوات،ومتى؟الآن في عز الأزمة والفوضى! وتحت حرابهم.

نعم إن ما قالته صحيح،ولكن ليس الآن وقت تطبيقه. على الأقل حين تهدأ الأمور أو ربما حين يكون هناك حكومة معقولة،أفضل من السابقة،وأقوى من الحالية،أو على الأقل قادرة على حماية الناس وفرض القانون، وهذا قد يتم بعد سنين.هدأ اضطرابي قليلاً بعد أن ابتعدنا من نقطة الحدود.وسارت السيارة في الشارع الذي صار واسعاً وبجانبين يحيطهما سور حديدي خُلعت أجزاء منه،اعتقدت أن السائق كان يمزح حين قال-البعض سرق حديد هذا السور..تصوّروا أن السرقات شملت كل شئ،ربما البعض لو يقدر على الإستفادة من حصى التبليط، لسرقة الآخر.على جانبي الطريق هناك مساطب أسمنتية وحولها مقاعد أسمنتية أيضاً،فكرة جميلة

للإستراحة بهذا الطريق الطويل.ولكن من يقدر على الجلوس عليها بمثل هذا الحر..لا بد انها بنيت أثناء الحصار،بعد أن صار طريق الأردن هو المتنفس الوحيد للدولة والناس. وكذلك لنقل شاحنات النفط للأردن مقابل السماح لبعض البضائع بالمرور.

لذا قوات الإحتلال تتابع تلك المسيرة ذاتها وتحرس عشرات الشاحنات،التي توقفنا لتدعها تمر بسلام تتهادى للوصول للإخوة الأردنيين هناك.لم يعبئوا بشاحنات نقل العمال المتعبين،لم يفكروا بحراستها،فتلك الشاحنات أهم! مقابل مرور البعض من الإنتحاريين،بدل البضائع،لا لقتل المحتلّين بل لقتل المتعاونين مع الإحتلال،من طلبة وعمال أو أطفال المدارس الذين واصلوا الدراسة في هذه الظروف!أو لتخريب أنابيب النفط لتواصل الشاحنات رحلتها اليومية.

حاولت أن أنام مثل الباقين قبل أن تأخذني تلك الأفكار لبحر الغضب الذي لا أدري كيف أعوم به.

التفت إلى السائق.

– يا معود لتنام،خلينا نسولف..راح أسمعك بعض الأغاني..أنا منذ الأمس لم أقدر لأن أنام غير ساعتين. قال السائق وفي لغته تأنيب وعتاب.

– هذا خطأ لابد أن تأخذ كفايتك بالنوم،على الأقل لتواصل الرحلة بأمان. قلت مؤنبا أنا الآخر.

شغلني انفعالي ونحن نقترب من الأحياء الخربة والفقيرة عن تأمل الشوارع لمعرفة ما الذي تغير فيها. فلم تسعفني الذاكرة بالتعرف على أي منها ولا أي من الأحياء التي مررنا بها.أهذا ما قصده البعض حين قال "إذا عدت لبغداد لن تتعرف عليها وستتيه في شوارعها ولن تستدل على بيتكم حتى".

بعض الشوارع الرئيسية صارت أكثر اتساعا، لتتناسب طرديا مع الإهمال الذي كان واسعاً أيضاً وليشملها جميعاً،فالمزابل تكاثرت بشكل غير معقول في أغلبها. هتفت نداء:

– الله ..انظروا لذلك الشارع إنه جميل ونظيف.

تباطأ السائق لنتطلع للشارع النادر وكأننا وجدنا تحفة نادرة وسط الفوضى تلك.كان على خلاف الشوارع

الرئيسية نظيفاً خالياً من المزابل،ولكن خالياً تماماً من المارة أيضاً أو الأطفال الذين لا مكان للعبهم غير الشارع.

ربما لأنها الظهيرة والحر لا يطاق،أو الخوف من الإنتحاريين الذين يترصدون الأطفال وتجمّعهم في الشوارع،والتي تشترك أغلبها بتكاثر المسلحين بلباسهم الأسود فبانوا كالغربان بنظرات حاقدة قاسية،أو شباب بقمصان مقلمة وسراويلهم عريضة متربة،اشتركوا جميعا بتلك الوجوه المتعبة،القلقة الخائفة.ويجمعهم أيضاً حملهم للسلاح بكل أنواعه يخفون خلفه علامات خوفهم فيروّعون به الصغار أو النساء في الشوارع والأسواق. وكأنهم يكملّون أو يشاركون قوات الإحتلال التي تجوب الشوارع بجنودهم الذين يخفون وجوههم تحت الخوذ الثقيلة في هذا الحر القاتل ليخفوا خلفها خوفهم ربما.أن تراهم وجها لوجه،ليس كما في صورهم التي نقلتها لنا شاشات التلفزة التي وجدت في أخبار العراق مادة دسمة.

على جانبي الشارع تصطف البيوت متشابهة تقريباً بالواجهات البسيطة والشبابيك الصغيرة التي تطل على

الشارع مباشرة ككل البيوت في الأحياء الشعبية، وتشترك معها بحيطانها التي تآكل طلائها الأسمنتي وصبغها فبانت الجدران كوجوه تناثرت بها حبة بغداد كما يسميها البعض ربما لتفرد أهل بغداد بهذه الظاهرة، في العقود القديمة.فكثير من الوجنات أو الأنوف تآكل جزء منها أثر مرض جلدي أو مايشبه حب الشباب لكنه يترك ندبة تكبر أو تصغر من شخص لآخر.

-الشارع حسب ساكنيه، فالناس بعد يأسهم من رجال الأمانة المسؤولين عن تنظيف الشوارع اعتمدوا على أنفسهم، كما هو في تنظيم المرور.علّق السائق ليمنحنا معلومة نجهلها. تذكرت أمهاتنا حين كنا صغارا وهن يلجأن لتجميع المزابل وحرقها للتخلص منها بتلك الطريقة وقد يأسوا من الدولة لتقوم بهذه المهمة،إذن هو إهمالا مزمنا بالنسبة لتلك الأماكن.

كان المفروض برؤية الصغار وهم يساهمون فرحين بتنظيم المرور،أن يخفّف من حجم قلقي الروحي واضطرابي الذي تضاعف ونحن نقترب أكثر،وكلما تكرّر السؤال لنستدل على الطريق. فقد انتابني خوف من

أن لا أجدهم أو لأستدل عليهم.فمازالت الشوراع بلا أسماء ماعدا القليل منها وأخرى باسماء عفوية..

حاولت أن أتخيل طريقة استقبالهم لي وهذا ما زاد من حماسي وانفعالي،لكن العراقيل التي اعترضت السائق وكثرة ما طرح السؤال ذاته وهو يسأل عن بيت حاتم أبو حيدر،أخمد شعلة الفرح وحتى صورة الارتباك والانفعال

- كان الأفضل لهم البقاء في البياع،بدلا من العودة لهذه المدينة المغضوب عليها.

قلت بإحراج وكأني أعتذر للسائق وللزميلات،ليتني لم أقترح عليهم فكرة مصاحبتي.

- يامعود ولايهمك،كل أحياء بغداد الآن على هذه الشاكلة،بل بعض الأحياء لا يمكنك أن تدخلها بعد انغلاق المجاري "فأطلقت الأرض أثقالها" ولم تجد من يسأل مالها.علّق السائق ضاحكاً، ثم تابع بشئ من الغضب:

- الشوارع محتلّة من قبل الدبّابات وجحافل الذباب مع أكوام المزابل التي لا يعرفون أين يرمونها.فصار الناس يخافون من دخولها ليس فقط بسبب الروائح بل خوفاً من الأمراض،أو من المفخّخات التي تترصدهم".

أخيرا وصلنا شارعنا،استقبلنا عشرات الصغار بأسمال متسخة،قليل منهم ارتدى ملابس نظيفة،أحاطوا السيارة كأسراب النحل.

ثم لمحت أخي يركض بدشداشته الرمادية،عانقني وهو يبكي،ثم غمرني الكل بعناق وقبلات حميمية.

عرفت إخواتي والقليل من الأقرباء،انتابني حرج وقد استعصت عليّ الدموع التي حوّشتها لتلك اللحظة، والحرج الأكبر كان وأنا أرى عيون الصغار تتطلع لي، تنتظر شيئا من هذا الذي أتاهم من بلاد الهدايا واللعب التي يحلموا بها.

نزلت ليلى بعلبة من الشوكولاتة ووزعتها على الصغار،شكرتها على تلك البادرة ثم سألت أخي عن أمي، نظر لي بابتسامة مطمئنة، ثم أصرّ أن ندخل جميعا لشرب شئ ما.هرعت للداخل تتبعني ليلى وبعض من الجموع.لمحت أمي شبه نائمة،فتحت عينيها بصعوبة حاولت رفع رأسها دون جدوى.يحطنها مجموعة من النساء أطلقت إحداهن هلهولة تعبيرا عن الفرح فابتسم البعض والأخريات صرن يمسحن دموعهم بأطراف

العباءة.تمنّيت لو أنفرد بها أتأمل ملامحها لأعانقها بهدوء بعيدا عن تلك الغوغاء،فقد شعرت بحرج وقد سيطرت عليّ حالة بكاء لم أعرفها من قبل حين عانقتها.

انتبهت ليد تربت على كتفي،كانت ليلي تبكي،وهي تستأذن للرحيل لم أنتبه فيما إذا نزلن الأخريات أم لا. خرجت مع أخي لأوّدّع ليلى،وشكرتهن مودعاً وقد وعدن أن يتفقن مع السائق ليأتي بهن في وقت آخر.تأمّلت أمي كانت أشبه بهيكل عظمي،تتمدد على فراش عبارة عن بعض من الأغطية غلفت بشرشف أبيض بورود كبيرة تطلّعت لي كما لو أنها لم ترني منذ لحظات ثم فوجئت بها تسأل بصوت واهن لم أسمعه بوضوح "من هذا؟".شرح لها أخي "هذا علاء،الذي تنتظريه من سنين".

عانقتها مرة أخرى وأنا أعتذر لها،قبّلتني وهي ممدّدة فوجئت وأنا أراها قد تعالت أنفاسها فجلست بجانبها قلقا. تأمّلت الموجودين مبتسماً وصرت أسلّم علي الذين ينتظرون تحيّتي،بعضهم كان يبكي،إخوتي وبناتهن وأولاد أخي إضافة للجيران الذين تقاطروا يتطلعون لي بفضول كما لو كنت آتٍ من كوكب آخر.

شدتني عينان شهلاوان كانتا تتطلعان لي بخفر وظل إبتسامة يعلو شفتيها الممتلئتين التي تزيّن وجهها الخمري ببشرة صافية نقية كالحرير،ربما هي ابنة أختي أو ابنة أخي الذي كانت زوجته جميلة جداً لدرجة تسائلت بمزاح ما الذي اعجبها به؟ناديتها "هذه سمية بنت أم سهيل جارتنا وصديقة أهلنا" شرح أخي ليعرّفني بها.

فمددت يدي أصافحها لكنها ترددت واحمر خدّاها "سلّمي على أخوك يمة هذا مو غريب" شجعتها أم سهيل.

اقترح أخي أن أدخل الحمام لأغتسل لحين إعداد الغداء فاستأذن بعض الجيران على أن يأتوا لاحقا ووجدتني أودع سمية وأمها وأنا أسير معهما باتجاه الباب الذي لمحت أنه بألوان عديدة لون الحديد الصدأ وبقايا لون أبيض يطل منه لون أخضر قديم.لوّحت لهما بيدي لأكتشف أن الكل كان يتأملني ضاحكا على تصرفي.

"حاول أن تتعرف على ابنة حلال من قريباتك..آن لك أن تتزوج لم تعد صغيرا فقد تخطيت الاربعين".

ابتسمت وأنا أتذكر كلام أبو نافل،هو الوحيد الذي يلح عليّ في هذا الامر.اقترح ذلك بعد أن يأس من إمكانية

تعرفي على رفيقة للدرب في الغربة.سألني يوماً:: "ما رأيك بوداد؟"

أذكر أني تطلّعت إليه بعصبية وغضب لماذا يعتقد أني ملهوف ويائس وأريد أن أرتبط بأي امرأة؟

- وداد..لابأس،إنها أرملة ومتوسطة الجمال،وأحب أطفالها وأعطف عليهم. لكنها مغرورة وترى أنها تستحق من هو أفضل مني،بل شعرت أنها تتصور أني أريد الارتباط بها،لأن ليس هناك من تقبل بي!وهذا ما جعلها تعاملني بشكل فيه خشونة واستعلاء.في المرّات القليلة التي زرتهم بها أخذت لأولادها هدايا بمناسبة العيد أو غيره،كانت تشعرني بارتباك وهي تتطلّع لي بطريقة كمن يقول "نعم ماذا تريد؟".

وفي إحدى المرات لمحت شئ ما في شعرها ربما كان صبغة أو شئ ما لم أميزه فتطلعت لشعرها ومددت يدي محاولا إزاحته،فاذا بها تبتعد بعصبية "ما الذي تفعله؟..ألا تستحي؟..تفضل مع السلامة،هي هم عايزة".

كنت أنوي الإعتذار،لكن تعليقها الأخير ذاك جعلني أحاول الضحك فلم أستطع "من تتصورين نفسك؟،هناك

اتساخ بشعرك القبيح..أردت أن أزيحها هذا كل ما في الأمر".قلت ذلك بغضب وشددت على كلمة قبيح،ثم خرجت مسرعا وأنا أصفق الباب خلفي بقوة.

في الطريق حين هدأ وحش الغضب ندمت لرفع صوتي أمام صغارها،ماذنبهم؟وندمت على استخدامي لذلك التعبير.والحقيقة ماكان يجب ان أغضب هكذا،فربما لها الحق في تصرفها!لكن أعتقد أن تراكمات سلوكها هي التي دفعتني للتصرف بذلك الشكل.

لم أقل له شئ من ذلك ولكني قلت "لو تبقي وداد المرأة الوحيدة على وجه الأرض،لن أقترب منها..أنا سعيد بحياتي،وإذا فكرت بالزواج سأفعل ذلك حين أعود للعراق،على الأقل نسبة النساء هناك ازدادت بعد توالي الحروب".لكنه إزداد الحاحا حين لاحظ وجود شيرلي.

ارتاب منها ونظر لي بلوم وعتاب "ألا تخاف أن تنقل لك مرضاً من ذاك الذي يؤدي للجحيم؟" ارتبكت وقتها وبرّرت موقفي "انها مسكينة فقط أردت أن أساعدها.. ليس بيننا ما تفكر به".

لم يكن يعرف عن مغامرتي تلك التي كلفتني الكثير.

فقد مررت بلحظات لم أسيطر على إحساسي بالخوف من الوحدة والذي كثيرا ما يتضاعف حين أمرض ولا أجد من يمرضني أو يخفّف عني الإحساس بالوحشة. سيطرت علي رغبة أن يكون لي علاقة مع أي امرأة، المهم إنسانة أتحاور معها،أخرج معها نجلس سوياً في مقهى أو حانة.لا يهمني شكلها أو عمرها،المهم أن تبادلني الاحترام والاهتمام.

صرت أتطلع بوجوه من أصادفهن بالشارع أو في القطار.

أخيرا خطرت لي فكرة أن أساعد إحدى الشابات اللاتي يفترشن الشوارع ليلاً يستجدين بضع قطع من النقود.كن قليلات جداً قياسا لأعداد الشباب،الذين لم أجد تفسيراً لتكاثرهم وقدرتهم على تحمل البرد في الشتاء وهم يقرفصون يلتحفون أغطية يرميها أصحابها أو يلتقطوها من حاويات الملابس التي تعود لبعض المؤسسات الخيرية.

بالرغم أن الدولة توفر لهم مساكن جماعية مؤقتة لحين ترتيب أمورهم. لكن إدمانهم على الخمر الذي يمنع

شربه في تلك الاماكن هي التي تجعلهم يعودون لأحضان الشوارع.

وجوههم ملأى بالقروح والأوساخ،ترى جباههم في أكثر الأحيان مشجوجة أثر سقطة على الرصيف أو اعتداء أحد السكاري من زملائهم .

لم أعط أحداً منهم أي نقود،فهم يهرعون بها لشراء الخمر الذي ربما السبب لاضطراب توازنهم الانساني، وإن كان هو من يجعلهم يحتملون النوم على رصيف الشارع بوحله وأوساخه وفي عز البرد.

لكني صرت أتعاطف مع الفتيات وأمنحهن نقوداً لعلي أجد فرصة للحوار مع احداهن.وبعد تردد طويل، استهوتني فكرة وضحكت لها،أن أنقذ إحداهن،من يدري قد ينصلح حالها وتتحدث عني ويصل الأمر للصحافة أو التلفزيون ليقابلوني،بذا أصبح مشهوراً،وتنفتح ابواب السماء التي صدئت بعد طول انغلاق.

في أحد شوارع كوفنت كاردن،التي تمر بها ليلاً فترى عشرات المشردين،يفترشون الأرصفة ومداخل المحلات المغلقة، كأن الارض تلفظهم في الليل، بينما لا

أثر لهم في النهار.كانت تقرفص وتلم ركبتاها بيدين مرتعشتين.بجانبها حقيبة كبيرة نسبياً ممّزقة من جوانب عدة. لم تمد يدها ربما من شدة البرد.

مرّت بقربها بعض الفتيات تطلّعن لها بازدراء وابتعدن،ثم اقتربت منها سيدة أنيقة وصارت تحاورها، فبكت هي، ثم مدتها السيدة بورقة خمس باونات وابتسمت لها مودعة.

اشتريت كوباً من الشوكولا الدافئة ومنحتها إيّاها. تطلّعت لي بتردد ثم أخذته وشكرتني،شربته بسرعة "أفضل من البيرة، أليس كذلك؟"هزّت رأسها موافقة وهي تشكرني.عرفت أن اسمها شيرلي،أمها متزوجة من رجل شرس وسكّير،لم تطق البقاء معهما، فكانوا يطالبوها بدفع أجرة السكن ومصرف أكلها وشربها،مع إنها من النادر ما تأكل في البيت.صاروا يستولون على راتبها.قررت السكن بعيدا عنهم.لكنها بعد شهور فقدت وظيفتها ولم تتمكن من دفع أجرة الغرفة التي كانت تستأجرها،فعادت لأمها التي اعتذرت لها لأنها أتت بمستأجر ليشغل الغرفة التي كانت تسكنها.

فقرّرت أن تفعل مثل باقي المشردين حتى تجد عملاً. لتصطدم بواقع آخر انها لا يمكنها أن تجد عملاً وهي بلا سكن.وحين توالت الأيام تلاشى أملها بالحصول على عمل بعد أن صار مظهرها بعيد عن الوسامة أو النظافة ووجهها يعلوه الحزن والبثور،وقد فقدت إثنان من أسنانها الأمامية. اقترحت عليها أن تأتي معي لتغتسل وتعيش هناك حتى تجد عملاً.نظرت لي بارتياب ثم عانقتني فرحة غير مصدقة إقتراحي.كانت الرائحة التي تنبعث منها منفرة، خليط من العرق والبيرة وغيرها.

اكتشفت أنها جميلة رغم أسنانها التي فقدتها أثر ضرب أحد السكارى لها وهو يحاول سرقة نقودها. اتفقت معها أن لا تفتح الباب لأي كان في حالة وجودها بالبيت وحدها. ارتحت لوجودها معي بالرغم من عدم وجود حوار جاد معها، فقد لاحظت انها صارت تهتم بترتيب المكان وتشتري أحيانا باقات من الورد تزين بها الطاولة.

مرّت شهور ولم تفكر بالبحث عن عمل، وأنا اعرف أن فرصها أكثر من فرصي أنا. اقترحت عليها أن تبذل

جهدا للحصول على أي عمل ما،على الأقل للتمكّن من استئجار مكان خاص بها.فبالرغم من ارتياحي لها خفت من موضوع ارتباطي بها،بل سئمت من فكرة وجود شخص آخر يشاركني السكن.شعرت بالحنين لحريتي، للهدوء الذي كنت أشكو منه.لا بأس أن تزورني وتبيت معي أو أزورها،ولكن أن تبقى معي كل الوقت،شئ لم أكن أعرف من قبل أني لا أحتمله.بل صرت أنتظر لحظة خروجها بفارغ الصبر،بالرغم من محاولتها لإرضائي.صرت أمارس الجنس معها بشكل روتيني،بلا رغبة ولا شوق فقط لإشباع غريزة جسدية.

تضاعف ذلك الشعور حين صارت تتدخل بكثير من أموري الشخصية.فحين تلاشى لديها الفضول للتعرف على الموسيقى التي كنت أسمعها،صارت تسخر من الأغاني العربية،تسخر من صوت أم كلثوم وتشبهه بصوت البقرة!ثم حاولت فرض ذوقها بالموسيقى والغناء لدرجة إغلاقها المسجل كلما وضعت كاسيت لأغنية عراقية أو عربية.بل تجاوزت الأمر الى التدخل وبشكل أناني حتى بطريقة ونوع غذائي.

لمحت شئ من الغضب والعتاب في عينيها حين قلت لها "سنبقى أصدقاء بل أكثر من أصدقاء،فقط أريدك أن تعتمدي على نفسك".حاولت أن أطمأنها وأخفّف عنها وأنا أحيطها بذراعي وأقبّلها من وجنتها،وقد انتابني إحساس بالأذى عليها لكني لم أعد أحتمل فكرة بقائها معي أكثر.

بعد أسبوع عدت للبيت من العمل،فوجئت باختفاء التلفزيون والراديو المسجل والكاميرا التي كنت أعتز بها،مع أغطية صوفية كنت اشتريتها بإحدى سفراتي لإيطاليا.والأكثر رعبا سرقتها للنقود التي جمعتها لشراء بطاقة سفر لرحلة لأسبوعين على إحدى البواخر،كنت قد فكرت أن آخذها معي!.

جلست لحظات ذاهلاً أحاول أن أركز فيما يمكن أن أفعله.لم أصدق أنها هي بالبداية فقد انتظرت عودتها لتندهش مثلي.بلّغت الشرطة عن الأمر قلت لهم عنها "أعتقد أنها خرجت تبحث عن عمل" لكنها لم تعد.

فأيقنت مثلهم أنها هي التي فعلت ذلك "لماذا؟".لا يجوز ان تثق بمثل هؤلاء،قالوا لي ناصحين.أفهمت

الجميع .أن لصوص كسروا الباب وسرقوا بيتي.غيّرت قفل الباب خوفاً أن تأتي وتسرق ما تبقى.أو خوفاً أن تأتي بأصحابها ويقتلوني، بلى وصل خوفي لتلك الحدود.

ولكني في أحيان أخرى انتظرتها لتعتذر "لم يكن أمامي غير تلك الحاجات لأبيعها لكي أشتري ما أحتاج..أنا آسفة جداً سأرد لك كل ما أخذت".لكنها اختفت تماما.أعرف أن ذلك بعيدا عن المنطق،لكني لم أجد تفسيرا لسلوكها.فحسمت الأمر على أنها كانت تمثل عليّ،وربما قصتها كلها كانت مختلقة وأن كانت قريبة من واقعهم.خرجت من الحمام وقد شعرت كأني أزحت أثقال السنين الماضية وغبارها.فالحر كان فوق طاقة البشر لاحتماله،اعتقدت أن حالة الإختناق والصعوبة بالتنفس سببها الحزن والقهر،لكن أيقنت أن الحر وانقطاع الكهرباء،لهما دور كبير بما يمرون به من غضب وألم. أتاني ابن أخي بمهفة من الخوص،تذكّرت المراوح اليدوية اليابانية لدى بائعي الأرصفة الذين تكاثروا في الآونة الأخيرة في لندن، شعرت بندم كبير لأني لم أشتر لهم بعضاً منها.

صرت أفكر بسمية وقرّرت أن أسأل أخي عنها في الأيام الآتية،أرجو ألا تكون مخطوبة أو ربما متزوجة.

قرّرت أن أبقى هنا،بلى أقدر أن أعمل مترجماً،على الأقل لأنقاذ بعض الناس من تهور القوات الأجنبية التي يدفعها جهلها وخوفها لقتل الأبرياء بشكل عشوائي بحجة حماية أنفسهم.

لم أكن أتصور أن الناس صاروا أكثر جهلاً وتخلفاً مما كانوا عليه! قبل عشرون عام كانوا أكثر ثقافة ووعياً مما هم عليه الآن!فمقابل الأمل والحماس لدى البعض، هناك من هو مستسلم ويبرر ما يجري على أنه عقاب من الله لنا،لكل الناس هناك،لأنهم لم يؤمنوا بما فيه الكفاية! واليوم يحاولون أن يصلحوا خطأهم بالإكثار من الحسينيات والتدخل بشؤون الآخرين وفرض الحجاب عليهم بقوة السلاح.

الخراب شمل كل شئ،تراه في الشوارع كما في الوجوه وفي العيون التي أزمن الخوف بها،ولم يقتصر على ذلك بل بعض النفوس أيضاً. شعرت بارتباك وأنا أجد أنهم بذلوا جهداً كبيراً لإعداد أصناف عديدة للغداء

وقد ساهم الجيران ببعضها "عسى الله أن يوّفقني لأعوّضهم" لم أعرف كيف أعتذر لهم عن تقصيري، ولأتفادى الحرج احتضنت يد أمي،ابتسمت لها وأنا أقبل يدها لمحت دموعاً في عينيها همست لي أن أقترب من وجهها لتقبلني، قبّلتها لكنها فجأة أحنت رأسها جانبا!

فصرخت زوجة أخي.التفت لها مرعوباً لاعتقادي أن شئ ما جري لها "ما الحكاية؟".

لكنها ترامت على أمي وهي تصرخ "لاحول ولا قوة إلا بالله..كأنها كانت تنتظر لحظة رؤياك لتودعنا!".بقيت مذهولاً كمن يشاهد فيلم تجري أحداثه أمامي ولا يعنيني منه شيئا.بقيت متمسك بيد أمي ثم أخذني أخي من يدي وهو يبكي ايضا ليبتعد بي.أنقدت إليه في أول الأمر،ثم كأني صحوت،تخلّصت من يده لأعود لأمي،أزحت النساء عنها وعدت أمسك بيدها،قبلتها وأنا أهمس لها "اعذريني".

أبواب الذاكرة

وقفت بها من بعد عشرين حجة...فلأيا عرفت الدار بعد توهـــــم
فلما عرفت الدار قلت لربعها.... الا انعم صباحا ايها الربع واسلم

زهير بن ابي سلمى

الشوارع كما الوجوه،كانت ذا نظرة خالية من الفرح، كأنها مفرغة من روح الحياة أو هكذا شعرتها.ربما هو عدم ارتياح من أول نظرة.

قد أكون مخطئة،لكن كل شئ هنا يشعرني بشئ من النفور.التعب البادي على الوجوه من النوع الذي ينتقل لك فتشعر بتعب وإحباط،وأنت بحاجة لشحنات من الأمل والإصرار.

شئ ما في نظراتهم كأن فيها خوفا وقلقا ولكن لاعلاقة له بخوفنا !

ثقلت خطاي وأنا أسير خلف نداء وقريبها....

صار صوته يرافقني نقيا عذبا وكأنه سمع ما سأقول له عن هذه المدينة...

كان يحكي عن المدن التي زارها والإنطباع الذي تركته في الذاكرة "المدن مثل النساء" قال وهو يضحك "وحتى لا تزعلي،هي مثل الرجال أيضا،مثل الكائن البشري.. فهناك مدن يصلك دفئها فنرتاح لها من أول نظرة، لبساطتها وربما للإبتسامة حتى لو كانت حزينة،

في عيون أهلها.كأن هناك حواراً بينك وبينها يجري بسلاسة وإرتياح..

مدن نحبها من أول نظرة وأخرى تستثقلي السير بشوارعها فتسرعي لعلك تنتقلي بسرعة لعالم اخر.." "أي المدن أنا بالنسبة لك؟" سألته ونحن نسير في حديقة الهايد بارك؟ فتنتفض زهور روحي بانتعاشة الطير وهو ينفض جناحاه عن ماء الربيع،وأنا أسمع صوته يرافقني من جديد:"أنت بغداد.." قال بسرعة وتأكيد..وسرح بنظره بعيدا وكأنه يتطلع لبغداد من بين تلك الأشجار.

جلس على إحدى المصاطب وكأن الرؤيا أرهقته. وجلست بجانبه وأنا أتأمله بانتظار أن يكمل جملته وأن كانت كاملة.

لكن الفرح الذي غمرني ألح علي باسئلة "هل أنا بغداد المتعَبة أو المتعبة بكسر العين،هل أنا بغداد القديمة أم "بغداد الجديدة؟" حاولت أن أسيطر على تلك الرغبة وبنفس الوقت خفت أن تأخذه الرؤيا بعيدا ويغرق في هموم الذكريات المريرة. فلمست يده..

"أنت بغداد الصبورة..الصامدة"ثم تطلع لعينيّ وأحاط كتفي بذراعه" والتي مازالت تحتفظ بغنجها وطفولتها".

أغرورقت عيناي فرحا فعانقه،قبلني وهو يمسح دمعتي بشفاه الدافئة..

أسرعت الخطا وأنا أمسح دمعة أطلت بلا إرادة مني فأغلقت تلك النافذة،على أثر صوت نداء وهي تقول فرحة:

– لقد وصلنا، ها هو السائق قد جاء ليساعدنا..

" نداء.. سأذهب لبغداد، لابد أن أراهم قبل أن يتلاشى الأمل بلقائهم، قبل أن يستولي الموت على كل أحلامنا.. أريد ان أراهم، أو أودعهم أو على الأقل أموت معهم... أريد أن أرى إبني...".

" ليلى..ما بك؟عوّدتنا الصبر،فاصبري قليلاً حتى تهدأ الأمور..".

فأجبتها غاضبة وأنا أدور كالجريح الذي يدور على نفسه ولا يستكين ألمه ولايعرف الهدوء بعد تصاعد حمم الخوف والقلق..

"أصبر؟..كيف ذلك..كيف أهدأ؟..ومتى تهدأ الأمور؟ وما لفائدة من الذهاب؟..أريد أن أكون معهم،أشاركهم ما هم به...".

وهكذا حسمنا الأمر فأصرّت أن تأتي معي،وقد تركت أولادها مع أبيهم.

– وأنت أين تركت الأولاد؟.سأل السائق،الذي ربما لم ينتبه لكلامي وانا أصر على الرحيل لرؤية إبني..

– لدي إبن واحد،وهو هناك تركته صغيرا..خفت عليه من مشقة الترحال،وأمي متعلّقة به وهو يحسبها أمه..كان يناديني باسمي ويناديها (ماما)..

حسبتنا نعود بعد أشهر أو سنة على أكثر تقدير،وإذا بالعمر كله يسرق منا بغفلة وتتوارى السنين،ويكبر ابني ولا أعرف عنه غير صوته الذي تغير،وصوره التي تصلني بين الحين والحين..ساد صمت لم يشوشه غير صوت محرك السيارة التي صارت تسرع في الشارع الضيق الخالي إلا من قليل من الشاحنات وسيارات قليلة بعضها بلا أرقام..اخرجت بعض الصور لأريهم ابني،كما لو كان معي أعرّفهم عليه بفخر وإعتزاز.

اتكأت برأسي على زجاج النافذة التي صارت تطل على ماض اختصر كل السنين.

- لم يعد إبن الثلاث أعوام الذي قبّلني ليلة الوداع وراح يركض يلعب مع الصغار..أنا ذاهبة لرؤية ذلك الصغير،تلك الصورة التي طغت على كل الصور التي وصلتني..

كنت أحكي وصوت إبني يأتي من بعيد كأنه صدى لتلك الأيام..

صمّمت أن أخرجه من ذلك الجحيم،حاولت عن طريق المعارف والأصدقاء لأستدل على طريقة لتهريبه كما فعل الكثير مع بعض من اهلهم،بالرغم من عدم حماسة أبيه للفكرة،ربما لعجزه مادياً أو شعوره بالتقصير أو ربما هو الندم على الرحيل الذي صار يؤرقنا جميعا، وإن لم يكن لنا خيار آخر.. مع ذلك قرّرت أن أخرجه حتى لو بعت كل ما لدي أو أدخل في متاهة الديون من البنك.لكنه فاجأني أو صدمني وهو يرفض حين حاولت إقناعه للخروج من ذلك الجحيم،على الأقل حتى يخف شعوري بالتقصير إزاءه والندم.

وإذا بي أمام رجل لاعلاقة لنا به،رجل سبقنا بالتفكير،صقلته أيام الحروب والحصار،فيزداد تعلقا بالأرض والمكان والناس (ملح الأرض) كما قال.

أين قرأت هذا التعبير؟

إنشغلنا نحن عنهم بالسياسة التي قرّبتنا من الكتب والنظريات أكثر من اقترابنا من الواقع..

"آسف ماما..لا أستطيع ان أترك أمي.." قال ذلك في صوت خال من التردد ثم واصل بصوت هادئ:"لابد أنك تعودت الحياة بدوني،فلا داعي لأسبّب لك أي إرباك.. والحقيقة أنا أيضاً إعتدت العيش بدونكم،بالرغم من شوقي ولهفتي للقياكم،خاصة وصوّركم تحفز بي تلك الرغبة..الموضوع لا يخصني أنا،إنه يشمل الآلاف أو الملايين..ماذا عن هؤلاء؟كيف نساعدهم؟..وعلى العموم وضعي أفضل بكثير من وضع كثير من الشباب، ومن بعض أصدقائي،ومعارفي". أضاف بعد تردد ليقطع علي طريق الإعتراض.

صمتّ لحظات وانا أمطره باحتجاجاتي...

"صديقي استشهد أبوه في إحدى معاركنا بالدفاع عن (البوابة الشرقية) بعد بضع سنوات وبتشجيع من الحكومة (الحكيمة) تزوجت أمه من زميل لها مصري..لتحصل على المكافأة، التي خصصتها الحكومة لأرامل الشهداء، على أمل أن تحسّن وضع إبنها المادي،فاذا بالزوج يستولي على المال ويرحل (بليلة ما لها قمر)" قال الجملة الأخيرة وهو يحاول أن يخفّف من المأساة أو ليموّه على من يتصنت للحوار..

"أصيبت الأم بالسرطان بعد ذلك وتركت الإبن مع خالاته،فأعمامه قاطعوه بعد زواج الأم ولم يشفع لها ما مرت به..المهم أنا بخير،على الأقل مطمئن عليكم ولدي أمل برؤياكم في يوم ما.."

أخفيت وجهي بزجاج النافذة لأداري الدموع التي لم أسيطرعليها وأنا أفيق لسؤال ملح لا أدري من هو صاحبه:

- وأبوه؟

قلت بشكل آلي.

- أبوه؟... سافرت مع الأب الذي كان ملاحقا.اختبأ في بيت أحد الأقرباء، وكنت أزوره خفية، حتى قرّرنا الرحيل قبل أن يكتشفوا مكانه ويرحلوه للعالم الأخر أو يخفوه مع من اختفى ليومنا هذا...

- لابد أنكما تزوجتما عن حب..سأل السائق بشئ من الفرح والفضول.

الحب!أخذتني الكلمة لأيام بعيدة، كلمة انتظرتها كانتظار الأرض لماء السماء،وجاءت مرّات ولكن محمّلة بخيبات مع ذلك بقيت أنتظرها لم أحقد عليها ولم ينتابني اليأس...

- ربما..قلت وكأني أحاول استعادة تلك الأيام.كان صديقاً لأخي ويكره زوجي،بل حاول تحذيرنا منه..ممّا جعلني أتشاجر معه وانقطعت عن زيارة أخي وقتها بسببه..

التفتت لي العيون مستفسرة.

- بلى كنت متزوجة قبلا،كان زميلا في قسم البدالة، بسيطا وخجولا وصموتا،أو هكذا اعتقدت بالبداية..من عائلة غنية..اهتم بي بصمت حتى صرت أهتم به علنا.. كنت أمر

بمرحلة التحدي.فوجدت نفسي بعدها زوجة في بيت كبير لوحدي،لا أذكر أني تمتعت به..فقد كان يصرعلى زيارة أهلي ليستمتع بحوارات أخوتي ونقاشاتهم التي لا تنقطع كما كان يقول.كنت أشعر بصداع من الحوارات المتداخلة التي صرت أتمنى لو ادفع عمري لأستعيدها ولو ليوم واحد.عيناي تتعلق بتلك اللحظات التي صرت أعيشها والفرح يمحي صدأها..

– كان يقول أنه يشعر بالحياة في بيت أهلي،فكنت أفرح وأشعر بفخر.على عكس بيتنا باردا كان،والصمت فيه يشبه الموت.

ثم صرنا ندعوهم بين الحين والآخر كان يكتفي بالاستماع لهم دون تعليق! صرنا أنا وإخوتي نحلل شخصيته ونطريها."فاروق من القلة الذين يحسنون فن الإصغاء،ويفسحون المجال للكل بطرح وجهات نظرهم دون تشنج أو سخرية".

"الإصغاء..حقا أنه فن وحكمة،هنيئاً لك زوجا كهذا"

" ربما هو تعويض عن قصور في الشكل".. هاهاها. يعلق أخي الصغير مازحاً، نأضربه على يده.

" أو... ربما هو من رجال الأمن السريين،يصغي للكل ليسجل الآراء التي تفيده بالتقرير الذي لابد أن يقدمه شهرياً، فكيف نفسر عدم تعليقه على أي موضوع؟".

التفت الجميع بدهشة واستنكار،لكامل أقرب أصدقاء أخي الأكبر الذي كان كأنه واحداً من العائلة..(هل أنت تمزح؟..أم تتكلم جد) نظرت له غير مصدقة وقاحته بالتجني على زوجي..ربما رأى الغضب في عيني والخوف على وجهي فنهض مبتسماً، ثم أحتضنني وهو يردد بهدوء:

" أنا أمزح لماذا تأخذي كل شئ بجدية؟" ثم ضحك وهو يقول "هل تعتقدي فعلا أنه حكيم وذكي كما قال البعض، كنا نمزح أليس كذلك؟" سأل الآخرين تهرباً من باقي الحوار..

كان تعليقه ذاك أشبه بشرخ في إسطوانة،ما عاد ينفع بها إصلاح،ولكني رفضت الفكرة،واعتبرتها من ترهات كامل خاصة وقد صار الكل يتهم الآخر لأتفه الاسباب. حتى قبض على أخي وابن عمي..لماذا؟تسائلنا فلم يكن

لهم أي نشاط سياسي عدا النقاشات والحوارات العائلية التي استغلت الإنفتاح النسبي أو المخادع في تلك الفترة في السبعينات من القرن الماضي.

إنشغل فاروق مثلنا بالأمر،وصار يجري بعض الإتصالات مع معارفه ممن لهم علاقات قد تنفع بالتدخل، وقد رأى أن أمي لم تنقطع عن البكاء وامتنعت عن الأكل.. بعد شهور افرجوا عن أخي محطما جسديا وآثار السياط والتعذيب على ظهره وقدميه.حاولت أن أطمئن نفسي أن كامل لم يكن محقاً باتهام فاروق!وسط تساؤلاتنا:لماذا؟وكيف؟ومن؟صرنا نشكك بأصدقاءنا حين ذكر أخي بعض العبارات التي واجهوه فيها.. ثم صرنا نلوم أخوتنا الصغار ربما هم بشكل عفوي نقلوا بعض العبارات لأصدقاءهم..

لكن إبن عمي لم يظهر له خبر حتى هذه اللحظة.كنت أتحدث بحماس فحاولت ان أخفض صوتي وأنا أواصل الحديث.

انتبهت لفاروق صار يتردد في الذهاب لأهلي أو اللقاء بإخوتي،فاعزت ذلك للخوف من أن يناله العقاب هو الآخر،بعد إطلاق سراح أخي،خاصة وقد شمل العقاب الجماعي حتى الأصدقاء البعيدين،كما كان يوحى.

حاولت أن أصمت وأخذتني ذكرى الأيام تلك لتفتح نافذتها من جديد.

في يوم كنت بزيارة لأهلي،برّرت لهم عدم وجود فاروق معي بكثرة مشاغله.كان كامل هناك، فطلب أن يكلمني على انفراد..

" ليلى..أنا آسف..لا أدري ماذا أقول أو كيف أوصل الأمر لك؟"

"ماذا؟ تكلم..هل قبض على آخرين،هل سمعت خبرا عن ابن عمي؟امطرته بأسئلتي التي لم أخلصها من شحنة الخوف والقلق.

"بلى سمعت عن البعض ممن قبض عليهم..ولكن الأمر أخطر من ذلك،لقد تأكّدت عن طريق بعض الرفاق، أن فاروق..هو فعلا من الجماعة إياهم!!.

"ماذا؟صرخت بوجهه. "ماذا تعني؟..عدت لاسطوانتك القديمة إيّاها؟ إذن لم تكن تمزح وقتها!"

أشاح بوجهه عني.

" لا..لم أكن أمزح..كنت أشك،لم أكن متأكداً حتى وصلتني المعلومات الآن.."

شعرت بقلبي ينبض سريعاً كالطبول ولكن في معدتي، أحسست بحالة غثيان، فصرخت به بحدة:

" طبعاً..صارت هذه شمّاعة نعلق عليها كل أسباب عجزنا،بل صار كل من يكره أحداً يتّهمه بالعمالة أو التجسّس،كرجال الأمن الذين يتهموا كل من له خلاف معهم، بسبّ الحكومة أو العداء للسلطة والثورة!!".قلت بعصبية وأنا أشيح بوجهي عنه.

تنهد بقوة ليخفف من انفعاله.. وقال بشئ من الهمس..

" أنا لا أكرهه.. نعم لا أرتاح له،ولكن المهم لا أريدك أن توحي له بأنك على علم..فقط كوني حذرة،ألاّ تذكري أمامه بعض الأمور التي قد تفسّر بسهولة حسب رغباتهم..".

تهالكت على المقعد القريب.. كما لو أن ساقاي لم تعد تحتمل ثقلي (إذن هو جاد بما يقول.. هل هذا معقول؟ كيف أعيش مع شخص أحذره ولا أحترمه،شخص يترصد كلماتي لماذا ؟؟) ثم انخرطت بنوبة بكاء لم أقو حينها على ازاحة يده وهو يمسح على شعري،لم أقو على الابتعاد عنه وهو يقبل رأسي.

أعرفه منذ الصغر وأثق به كثقتي بأخي.. فصرت أستعيد موقف فاروق من إبن عمي، الذي سخر منه يوما لا أذكر الموضوع وقتها ولكني ارتعبت لتفسير عدم تدخله لإطلاق سراحه أو معرفة أي خبر عنه..

بعد شهور كنت خلالها كمريض يعيش منتظراً لحظة النهاية.خلالها صار هو يتجنبني وشئ من الفرح على وجهه،معتقدا أني حامل فارتحت لذلك التفسير،حتى فوجئنا بأمر تسفيره وأهله لإيران!

لم أفكر يوما أن أعرف ما مذكور بهويته-تبعية إيرانية-أم عثمانية؟ لم يشغلني ذلك الأمر يوما،وهو يؤكد عراقيته إلى جدنا نوح،وأعرف أن بعض أقربائه موظفون كبار بالدولة ومنهم في مناصب هامة بالجيش!

كنت أعرف أن البعض على أيام العثمانيين ادعى التبعية الإيرانية تهرباً من العسكرية!

هاهم يبيعوه بالرغم من خدمته لهم كل حيات! ويرمون به على الحدود بعد مصادرة ممتلكاته!.

لكن،مهلا،كيف يرّحلوه وهو الشاب في الثلاثينات من عمره؟ونعرف أن كل الذين هجروا كانوا من كبار السن والأطفال والنساء فقط. فقد تم حجز أبنائهم مافوق الثامنة عشر حتى الأربعين؟. صرت أشبه بالمجنون الذي يخلط الأفكار تباعا، صار كل شئ مراً حتى الماء.. لم أسأله أو أحقق معه، ماعاد يهمني شئ..المهم أني لن أرحل معه..رحّب أهلي بالقرار بالرغم من حزنهم عليه وبكاء أمي وهي تودعه، فلم أقل لهم شئ مما يؤرقني إلا بعد سنوات من سفره.. فوجئت بالدائرة بمن يأتيني بأمر رسمي فيه طلب لمقابلة الرئاسة...ماذا؟..لماذا؟..ما الذي فعلته؟ تساءلت بصوت فيه غضباً أكثر منه خوفا"خير إن شاء الله.. أكيد خير" همس الموظف ضاحكا."أعتقد أن هناك تكريم لك لأنك ابنة أصيلة لعراق الثورات،حيث رفضت مصاحبة زوجك الإيراني"."ما الذي تقول؟أولا تشجّع الرئاسة على الزواج من الجنسيات الأخرى، لماذا

التكريم على طلب الطلاق؟الموضوع كان لأمر شخصي، ولا علاقة له بالجنسية،إضافة إلى أن زوجي عراقي الجنسية وحتى جواز سفره عراقي..".

تمالكت أعصابي،وانا أتصور أن زميلي ذاك قد ينقل ما أقول بطريقة تسهل تأويل كلماتي وستكون كارثة لا عليّ فقط، بل على أهلي وأقربائي! فتابعت بشكل يوحي بالاعتذار .

"أقصد ان الإنفصال كان بسبب عدم الإنجاب..على كل حال شكراً للالتفاتة الكريمة" قلت ذلك وقد شعرت بمغص، وعاودني الاحساس بالغثيان.أخذت إجازة بلا راتب تهربا من الموضوع..الحمد لله كنت محظوظة لانشغالهم بالحرب ولم يتابعوا الامر معي.

– هل التقيتيه فيما بعد؟.سأل السائق الذي كان يصغي بصبر أكثر من الجميع،الذين ربما سمعوا من هذه القصص الكثيرما عدا نداء التي كانت تصغي كما لو أنها تسمع القصة لأول مرة.

حكيت لهم عن تسفيره لايران ولم تفلح محاولاتي باختصار القصة.

– لا طبعا.. لم أسمع منه بعدها.. بقيت مدة أشك في موضوع تسفيره، بل حسمت الأمر مع النفس أنه ذهب بمهمة للتجسس على من رحلوهم أو على من رفضوا الحرب تلك وفروا من الجيش وصاروا أشبه بأسرى لدى إيران!عرفت بعد سنوات أنه تزوج هناك واطلق لحيته.

بقيت زمنا أكره الرجال،رغم شوقي الكبير لكلمة فيها شئ من العواطف، كلمة عدت أنتظرها من جديد مع أني أصبحت مطلقة وحظوظي بالزواج أو الحب نادرة!

. صرت أختلي بنفسي لساعات لا أعمل شئ.. تهزني أخبار إعتقالات أو إختفاء أحد الأقرباء أو الأصدقاء.

لا أدري متى اكتشفت تعلّقي بكامل أو حبي له؟أذكر أننا في حفلة لتوديع أحد الاصدقاء،غنينا وبكينا فاقترب مني وراح يمسح دمعي فعانقته لأواصل البكاء.

بعد الزواج عشنا سعادة مغلفة بخوف وقلق،فهو لم يكف عن النقاش والجدل،فألح البعض عليه أن يسافر. لكنه أجّل الأمر لأني كنت حامل، قدم استقالته واختفى لدى أحد أقرباءه في الجنوب. بعد ولادتي صرت أزوره

مع ابني بصحبة أمي بين الحين والآخر. حتى تم تهريبنا عن طريق الشمال لتركيا.

كان الخوف حينها أثقل أحمالنا.عشنا غربة مركبة شعرتها أكثر مرارة من الغربة في أوروبا،واثقلها أكثر فراق ولدي وأهلي.

لم يخفف عنا غير وجودنا في أوربا التي عرفنا بها ماذا تعني الحرية والأمان.فعاد لنا الحماس للنشاط السياسي وصرنا نشارك بكل مظاهرة أو فعالية سياسية.

كنت وكأني أريد التعويض عما أفتقده أو افتقدته، فصرت أشارك بأي إجتماع أو لقاء ضد الحرب.عرفت من خلالها أن ديمقراطيتهم وإن كانت أشبه بغلاف ملون، لكنها بمثابة قارب للنجاة،نجدف بالكلمات والشعارات التي تمتص شحنة الغضب وتذيب أحجار الأذى المتراكم في الصدور.لم أنتبه وقتها لكامل الذي أنحسر حماسه، ولجأ للخمر الذي صار ملاذه، والذي بسببه صار يتهرب من البيت بحجج واهية.بعدها صار لا يبال حتى بإختلاق حجة ما أو كذبة بيضاء من التي أدمنها ايضا.

شعرت بشفتي جفتا فرطبتهما بجرعة ماء من القارورة التي أحملها في حقيبتي.

عاودني الإحساس بالمرارة وأنا أستعيد لحظات وجودها معه حينها كنت ألمح تغيير ملامحه وابتهاجه والحيوية تملأ روحه وجسده..

لماذا المرارة وقد مر على الموضوع سنوات طويلة!

– أين سرحت؟ معك حق..ولكن لمَ لم يأت الأستاذ كامل معك؟

ابتسمت لأخفي لون الحزن الداكن على وجهي..

– كامل؟..الله يذكرة بالخير..لقد رحل هو الآخر.. اطمئنوا..الحمد لله مازال حيا يرزق،بل صار أكثر صحة وحيوية،رحل لرفيقة درب أخرى،يعيش معها بثبات ونبات..قلت الجملة الأخيرة بصوت عال مصحوب بضحكة غريبة عني.أردت بها أن أضفي شئ من المزحة على الموضوع ولأغلق بعض دواليب الخيبات التي نثرت أوراقها علي.

– الحمد لله.. الله عوضها خيرا بأبي صادق.. الله يخليه، لم أصادف إنسانا بمثل طيبته وكرمه.قالت نداء

وهي تبتسم وكأنها أرادت أن تصحح موقف بهذه المعلومة، وهي تنظر لي بعتاب.

اكتفت أم سماح بإبتسامة ودودة ولكني شعرت بها كأنها تقول كفى قصصا!فاعتذرت لهم عن ثرثرتي وانسجامي بتداعيات الماضي..

فرد السائق باصرار:

- بالعكس..كما أنت متعطشة للحديث،نحن أيضاً متعطشون لسماع أخباركم،لنطل ولو من نافذة صغيرة على حياتكم وقد تضاربت الأخبار عنكم.

أعاد لي كلامه الحماس للمواصلة،كنت حقاً عطشى للكلام،أو كمن أطلقوا لسانه بعد زمن من الصمت. فصارت الكلمات تحلق كالعصافير التي أطلقت من قفصها توا. ربما هي محاولة لطرد الخوف والقلق اللذان أحاول إبعادهما عني ولو للحظات بالحوار بصوت عال.

- حقا .. بالرغم من فشلي مرتين، لم أستسلم لحالة الإحباط واليأس طويلا..فلم أصدق نفسي حين تعرفت على أبو صادق هل معقول بعد رحيل العمر؟ولكنه

جعلني أشعر أني مازلت صغيرة،وعامرة روحي بالحياة.. فأنا أرى أن الحياة كتلك العجلة التي تدور وتدور ونحن بداخلها أشبه بفأر الزينة أو ما يسموه بالهامستر،ندور بداخلها ولا ندري هل نحن السبب في دورانها أم أنها تدور ونحن مستسلمون لقدرنا..فلو توقفنا ربما نسحق تحتها خاصة وهي اليوم أكثر سرعة، والتي قد تكون بسبب التغيير بمتطلبات الحياة أو.. هي مرحلة انحدار العمر.

صمتُ بعدها وقد شعرت بصداع،حاولت أن أسيطر على رغبتي بمواصلة الحديث. نظرت لأم سماح بحسد.. فهي منذ انطلاق الرحلة لم تنطق سوى ببضع جمل للمجاملة.. ليتني أمتلك تلك القدرة على التأمل والصمت، صرت أخاف الصمت، وكأن الحديث بصوت مسموع هو الشئ الوحيد الذي يشعرني بالحياة..خاصة بعد رحيل كامل،حينها عشت أيامي وأنا أحاور نفسي بصمت وأسالها بصمت، لماذا؟ هل كان يحبني؟ أين أخطأت معه ومتى؟هل أسأت التصرف معه؟هل ممكن للحب أن ينتهي أو يموت كالأشياء الأخرى؟

أسئلة كثيرة أعادتني تدريجيا للماضي،صارت تفتح لي أبوابا أغلقتها منذ زمن.لكني صرت أرى من خلالها أشياء جديدة لم أعرفها من قبل،أو مررت بها دون اكتراث.

أمور أعادتني للبدايات،وصولاً للنظر في موضوع فاروق،هل كان حقا كما قال عنه؟ أم هو تشابك الأحداث وتصادفها جعلني أصدقه؟.

فوجئت بعدها بصوتي وقد صار يرتفع فجأة وأنا في الشارع، فأتطلع لوجوه المارة اقرأ عليها ردود أفعالهم.. وأحمد الله أني في كوكب لا أحد يعير إهتماماً للآخر، كلٌ غارق في عالمه..

انتظرته شهور،انتظار المريض لسيارة الاسعاف،أو إنتظار غصن ناشف لماء المطر.. شئ في داخلي يحترق ولم يطفئه الدمع..ثم صرت،أتساءل هل أسامحه،هل نقدر على طي الصفحات ونبدأ من جديد،أم أن الأسطر القديمة ستلاحقنا؟.لم ينقذني من تلك الحالة،غير مخزن الذكريات الذي صار يفتح دواليبه الواحدة بعد الاخرى.فيفتح أمامي صفحات من التجريح والاهمال والكذب والخيانة التي

كنت أغض الطرف عنها أو أركنها بعيداً أؤجل التمعن بها مدفوعة بالخوف، من أن تكون سبباً لجراح أخرى.

كنت مثل الطفل الذي يخاف رؤية الدماء النازفة من جرحه فيشيح بوجهه عنها.لكني صرت أعيد ترتيب الأحداث،أحاول أن أستعيد لحظاتنا السعيدة! متى؟قبل الرحيل؟أيام الخوف والقلق؟.أم بعد التغرب والشوق للأهل والإبن؟ربما ذلك الخوف ولوعة الشوق،والإحساس باللاإستقرار دفعاني لأجري لعلي أواكب عجلة الأيام او لأهدهد بعضاً من ذلك الشوق.. لم أكن أعرف أنها ستكلفني الإنسانَ الذي أحببت والوحيد الذي كان لي..هل حقاً كان لي؟؟

أيامها اكتشفت معنى كلمة(الُوج)وأنا أعيشها، كذلك الذي لايهدأ له جرحاً ولا ينام فيدور حول نفسه.

صرت لا أُطيق الباب ولا الشباك،لا الراديو ولا التلفزة،لا الشارع ولا العمل ولا البيت.أنتظر طرقا على الباب..أصحو على صوت السائق وهو يقول:

- هذه الأرض كانت لنا..واعطاها القائد للجار، مقابل تزويده بالسلع المحاصرة.

- أو مقابل محاصرة البعض من المعارضة؟ همست أم سماح بصوت مسموع..وصمتت وهي تتطلع من النافذة كأنها ندمت على تلك الكلمات.

نداء كانت نائمة رأسها يميل جانبا.لم أعلق،فقد تغلبت أصوات الماضي على رغبتي بأي كلام.

تأملتني من خلف الزجاج بمعطفي الثقيل أسير كالمنوم،أرفع وجهي للمطر ليخفف من حرقة الدمع المتهاطل بحرية.حديث يتداعى ويتشعب فتنغرز جذوره بروحي.

هل فشلنا بالحياة له علاقة بفشلنا السياسي؟أم لأننا فصلنا الأمور كيفما اتفق دون إعتبار للمقاييس ثم فضلنا أن نبقى عراة على أن نلبس مايثير الضحك علينا؟

تعاودني كوابيس أسير بها عارية وسط الأهل أو في الشارع أو في حديقة،فينتابني الإحساس بالحرج وأنا أتسائل كيف حصل ذلك؟كيف أختبئ من العيون التي تلاحقني..فأصحو لأرى روحي عارية من الأمل، عارية من الفرح. هل العري له علاقة بالغربة؟أم هو العري من العلاقة التي نحلم بها سواء كانت صداقة او حب؟ فكنت

أرى أي علاقة ماهي إلا ثوب يستر روحنا من برد الشتاء أو يحميها من أن تهيم في فضاء معتم..

فجأة شعرت بضربة قوية لا أذكر أين! شعرت بارتطام رأسي بالأرض الأسفلتية. سمعت دوي صداها في الشارع كله، ثم انطفأ كل الضياء وساد ظلام حالك..

صحوت بعدها لتصطدم عيناي بعالم أبيض فاقع، تذكرت السواد قبل لحظات!

(أين أنا؟) تساءلت بخوف وأنا أحاول التطلع حولي فمنعني ألم صرخت بقوة منه،وكأني أستنجد بمن سيسمعني.

تلمست رأسي كان ثقيلا مثل صخرة،مغلفا بطبقات من القطن والشاش الابيض..إذن أنا في المستشفى!

ما الذي حصل؟من ضربني على رأسي؟فوجئت بعينان ترنوان لي بقلق،وابتسامة ترتسم على الشفاه مرحبة بعودتي (للحياة).

" الحمد لله على السلامة.. ناديت الممرضة وستأتي حالا... الطبيب أكد أن كل شئ سيكون على مايرام..".

كرهت رباط رأسي الذي منعني من الإلتفات أو التحرك..همست بصوت واهن متعب "من أنت؟ هل أنت طبيب؟" قبل أن يجيب أطلّت شابة جميلة بلباس وردي مسرعة حتى بابتسامتها:

"آه الحمد لله.. أخيراً صحوت! يومان ونحن لا نعرف طريقا لأيقاظك!..".

قاطعتها بفزع "ماذا.. يومان؟" فعاد الألم بمطرقته ليضرب على رأسي.

"اهدأي قليلا،لا داعي للانفعال..وجدنا رقم تليفون اتصلنا ولم يرد أحد، ثم حاولنا مع تلفون آخر..هل لديك من تريدي إخباره بالأمر؟".

بكيت بصمت (هل الأمر على هذه الدرجة من الخطورة)، وقلت بهمس- كامل- ثم وكأني تذكرت شيئا فقلت على عجل.."لا ليس لي أحد".

" ولا حتى أصدقاء؟".

" بلى لي أصدقاء سأخبرهم حين أخرج من هنا..إن خرجت سالمة..".

فوضع (الطبيب) يده على يدي وهو يقول بإصرار "طبعا ستخرجين قريبا سالمة، ليس الأمر بهذه الخطورة" قال الجملة الأخيرة وهو يتطلع للممرضة.

" الأستاذ(الكازالي) آسفة اسمك صعب لفظه- لقد أتى بك بسيارته، ولو لم يفعل ذلك، لساء الحال اكثر.

نظرت له شاكرة وفي عيني سؤال (إذن هل هو الذي ضربني؟أو دهسني بسيارته، ثم أتى بي للمستشفى؟)

قال وكأنه قرأ تساؤلي:

" مرت دراجة نارية مسرعة بقربي،حمدت الله أني تفاديتها،واذا بي أراه يصدمك ويمضي هاربا.. للأسف لم أتمكن من معرفة هويته أو رقمه،نزلت مسرعا لأطمئن عليك..".

كان صوته هادئا عميقا،منحني شئ من الهدوء والراحة تمنيت لو أغمض عيناي ويواصل هو الحديث! فسرت ذلك الإرتياح ربما لأني عرفت أنه لم يكن هو الفاعل..الذي كاد يحطم رأسي.. يومان؟ كيف مرت دون أن أشعر بها، هل كانت حالة موت مؤقت؟.

صار يزورني كل يوم،بل أحيانا مرتان باليوم الواحد. أمتلات غرفتي بالزهور والحلويات.صرت إذا تأخر أشعر بغربة لحد البكاء.عرفت أن أسمه الخزعلي وليس الغزالي كما اعتقدت من لفظ الممرضة.

اعتدت صوته العميق وهو يقرأ لي بعض الطرائف ومقتطفات من أخبار لا تثير الغضب.

في عينيه كلام وكأني أقرأه وأخاف منه،أنتظره وأهرب منه..خفت أن أفقد صوته العميق عمق البحر والصافي مثل مياه الشلال، فيه بدفء الشمس أيام الشتاء، وعذوبة الماء البارد في عز الحر..

قلت له يوما "أحسدك على صوتك.لو كنت مكانك لما توقفت عن الغناء" ضحك.

"هذه مجاملة..أنا لا أجيد الغناء للأسف..ولكني سأتعلم لأجلك" شعرت بإحراج، ولمت نفسي أني تجاوزت الحد ربما..

مازال ذلك اليوم محتفظا بكل التفاصيل، يوم زارني مع ابنه (صادق) كان لا يتجاوز الخامسة عشر وإن

أوحى طوله الفارع وقوة شخصيته وثقته بنفسه وسلوكه الرجولي بأكثر من ذلك.. ذكّرني بأخوتي هناك وبولدي وطريقة حواره معي،ربما هو عالمنا يجعل المرء ينضج بسرعة ويتجاوز مراحله ..

– اشكرك على الزيارة هذه.. تحياتي لوالدتك..

تطلع لأبيه بتساؤل..ثم أضاف بهدوء "أمي أعطتك عمرها.. توفت منذ أعوام.." شعرت بإحراج وغصة وندم على السؤال ورحت أعتذر،وهو يبتسم ليخفف عني..

لقد أتى الأب بابنه ذو العاشرة مع الأم الشابة،إثر إصابتها بالسرطان.كان قد باع كل املاكه لعلاجها،كانت متعلقة بالابن فلم تتركه مع أهلها،وكأنها تدري أنها لن تعود. بعد سنة من المحاولات الغير مجدية،رحلت وتركت الأب ليكن هو الام والاب معا.تألمت لهما وأبعدت تماما ذلك التساؤل،الذي ابتلينا به نحن أكثر من غيرنا،هل هو منهم؟ ماهو تفكيره؟ كيف سلم من طاحونتهم؟ كان البعض يتهم كل من يسجن ويخرج سالما

بالتخاذل! وكأن قدرنا أن نموت تحت سياط التعذيب لنبرّئ انفسنا، أو نهرب بعيدا..

ولكن ما الذي يهمني؟إنسان ساعدني وأنقذ حياتي، بل هو يشكر الصدفة التي جعلته هناك لينقذني؟ ماعدا ذلك لاعلاقة لي به..

مايجمعنا أن كلانا أُختِطف رفيقه،بطريقة أو بأخرى..

صرت أزداد إعتزازا به يوما بعد آخر،استعدت بوجوده معنى الصداقة،معنى أن يفعل الإنسان خيراً بشكل عفوي،دون انتظار مقابل لدرجة أن عفويته انتقلت لي، فقلّت من المجاملات.

لم يسألني من أنا؟أو لماذا لم يزرني أحد؟ ترددت أن أطلب منه الاتصال ببعض الأصدقاء..خفت أن يحرموني منه فربّما سيعتمد عليهم ولا يعد يزورني!

انتابتني حالة من اللؤم أو المشاغبة أن أجعلهم يقلقون عليّ لأختبر مشاعرهم نحوي..ولكني لم أحتمل الصبر فطلبت من الممرضة أن تتصل بنداء، التي كانت أقرب صديقاتي بالرغم من فارق السن بيننا،كما لو كانت أختي الصغرى..

حاولت أن أغلق صندوق الذكريات وأنا أستمع للحوار الدائر بين السائق وعلاء،لم أنتبه لبداياته فصرت أصغي له..

- بلى لقد أعادها الحارس باكية،وهي تحمل ابني، ارتعبت وخانتني ساقاي،لم أقو على الوقوف وأنا أصيح بها (ما الحكاية؟) فوجئت بها وسط قلقي وغضبي تطلب مني فوطة وعباءة أمي! ثم أعطتني ابني وراحت تبحث بخزانة أمي عن الفوطة لتلف شعرها.

ثم صحبت بها (تعالي معي..دعك من العباءة) كاد الغضب أن يعمي عيناي،معقول أين نحن؟ طول عمرنا مسلمين وملتزمين بالأخلاق والدين..من هذا الذي يعلمنا كيف نلبس؟"

علّقت أم سماح بعصبية:

- ولكن حتى لو كانت زوجتك محجّبة،ونست أن ترتدي الحجاب بسبب وضع الطفل فلا حرج عليها، فهناك أمر طارئ أهم من الملابس.."

فعقّب السائق بحماس:

- بالضبط.كذلك زوجتي محتشمة وملابسها أكثر حشمة من بعض المحجبات"

فعلّق علاء بهدوء:

- لا أعتقد أن ذلك الحارس أكثر حرصاً منك على الدين،بل هي محاولة للمزايدة،أو ربّما لمواصلة درب استضعاف اللآخر وإهانته كما عوّدته السلطة،أو ما اعتاده منذ الصغر..ماذا سيفعل مع من تدخل الجامع إذن؟ شيء غير معقول!

تسائلت نداء بحماس:

- المهم، ماذا فعلت هل ذهبت لهناك؟

- طبعا،أول ما وصلت سألت عن المدير،فرد ذلك الحارس بجفاء "غير موجود" فقلت له "ومن أنت لتعرف؟ أريد أن أرى أحد الأطباء"..فشهر السلاح بوجهي، خافت زوجتي وهي تسحبني،فقلت وسط حمم الغضب التي اجتاحتني:"هذا السلاح تشهره بوجه اللصوص،والقتلة والمخرّبين تستخدمه لحماية الأطباء والمرضى لا أن تشهره بوجه المرضى بلا سبب..ثم منذ متى صارت

المستشفى جامع يشترط الحجاب لدخوله هذا هو الكفر بعينه".

تجمهر الناس حولنا الممرضون والعاملين بالمستشفى، فصاحت زوجتي بأحدهم لمعالجة الطفل..

– هذا إستغلال لحالة الفوضى..وأتفق مع علاء، فربما هؤلاء يجدوها فرصة لممارسة ما مورس ضدهم أو ما اعتادوا عليه.عقّبت نداء بصوت خافت متكسر وحزين.

تململت ولكني قمعت رغبتي بالكلام،فهي فرصة لأسمع السائق يحكي عما يجري هناك.تذكرت حواري مع إحدى قريباتي،منيرة،كانت قد فُصلت من وظيفتها كمدرسة منذ سنوات بسبب عدم انتماءها لحزبهم..

قلت لها بشئ من السخرية بعد أن سمعت عن الخراب الحاصل هناك "مبروك لابد أنك ستعودين للتدريس الآن". فقالت بصوت حزين "بلى عدت متلهفة بالرغم من انحدار العمر لكني يا عزيزتي اكتشفت أنهم لم يتغيروا،هم أنفسهم بالساحة،غير أنهم الآن يرتدون

العمامة ويحملون الرشاش،لا لحماية الطلبة والمدرسين بل للتأكد من لبس الحجاب من قبل المدرسات والطالبات معا! فرجعت لأحافظ على ما تبقى لي من إنسانية وحرية حرصت العمر كله على الحفاظ عليها.كيف أقدر أن أحكي للطلاب عن الحرية والكرامة وأنا أفقدها".

بكيت معها على التليفون طويلاً،حتى صارت هي التي تهدئني..هي من الناس الذين رفضوا الخروج أو الهروب،لم تغرهم فسحة الأمان والحرية،ولم يهزمهم القمع أو الحرمان.وهؤلاء من جعلوني أقترب من أبو صادق..

– لابد أن نفعل شيئ.قلت وأنا أخبرهم عن صديقتي وقريبتي منيرة.ثم واصلت بحماس"لابد من توعية الناس، لابد من زرع المحبة بينهم".ثم توقّفت وقد شعرت بإحراج،وأنا أصرّح وكأني أخطب في محفل!فصمتّ لتهرب عيناي صوب القرى البعيدة التي اختلط لونها بلون التراب..

"لم يكن وجودي صدفة وقت الحادث" قال وهو يمسك بيدي التي صارت ترتعش وأنا أتطلع حولي،لكني لم

أسحبها،بل استسلمت يدي ليديه كأنها تصر على عصياني..ربما هو العطش والشوق لدفء يد تحتويها! تطلعت له بدهشة مما يقول..فتابع وهو ينظر لعيني بابتسامة فرح تملأ وجهه.

" لقد رأيتك منذ سنوات مع مجموعة من النسوة في إحدى المظاهرات..كنت أتطلع للناس وحماسهم،لصدق مشاعر البعض منهم باحتجاجهم على الحرب والحصار.. كنت تتحدثين مع مجموعة من العجائز بحماس وأذى، دموعك استقطبت الكثير ومنهم أنا..حين مرّ البعض باستماراتهم يجمعون التواقيع والعناوين ليبعثوا ببعض مما يعرضوه في سوقهم السياسي للدعاية لمنظماتهم.

"اعتقدت انك أعطيت عنوانا وهميا كما يفعل البعض، فبقيت أتابعك حتى المنزل،تحدثت إليك خلالها بشكل عابر ولم تنتبهي لي كما أيقنت وقتها..."

ضحكت بانفعال غير مصدقة ما يقول،ربّما وجدت ذلك كثيرا عليّ،معقول ان أنال الإعجاب بهذا الشكل؟ فلا أذكر من ذلك شيئا.ربما هي الذاكرة التي تلعب بنا أحيانا فتفتح صناديق وتغلق أخرى..

" بلى.. صرت بعدها كالمراهق أتبعك فعرفت وقت خروجك من العمل وعودتك للبيت،انشغلت بك لدرجة أخافتني إهمال ابني أو أن أفقد عملي..فكّرت أن أكتب لك،لكنك كنت حزينة..فانتظرت اليوم الذي أرى شيئاً من الفرح أو ابتسامة ما لتشجعني لأحبيك أو أكلمك..فقد خفت أن تصدّيني وأفقدك..."

"بلى كنت سأصدّك فبقدر ما كنت متحدية بين أهلي، صرت أحسب لخطوتي ألف حساب.. صرت أخاف كل شئ خاصة بعد أن صار الكثير كغيوم باهتة،أو كحروف كُتبت بحبر على ورق مبلول...".

صار وجهي كفراشة بين كفيه وهو يحتويه مبتسما.. "أحببتك منذ اليوم الأول الذي رأيتك،لذا لا تتصوري الرعب الذي تملكني يوم الحادث-يا إلهي تموت أمامي.. أنا الذي أنتظر اللحظة التي أحكي لها عن حبي- ندمت لحظتها، كان ممكن أن أجنّبك ذلك الأذى بحبي لك.."

"وقد أنقذتني بحبك أيضا...".

كنت سعيدة جداً بمشاعره التي احسستها صادقة وقوية بل منحتني القوة لأتحدى ذاتي واصرح له بحبي وخوفي

على تلك اللحظات. فقد بقي الأمل يقاوم التلاشي،الأمل بأن أحظى بمن يعيد لي ثقتي بالحياة أو بالحب، الذي لم أخاصمه بالرغم من الخوف واليأس الذي اصابني.

فبعد الذي جرى،الغيت كل أمل وأغلقت نوافذ الفرح، وأنا اشاهد فيلم الرعب الذي وضعوا له سيناريوهات للقتل الحقيقي لأهلنا..كنت كأنني أستشرف على مسرح للموت من بعيد..فأغضب وأنا أرى البعض صار يلوذ باللامبالاة،إمّا يملأ بطنه ويهرب للنوم.أو ليحلم أين يقضي عطلته، أو مع من يسكر غداً؟...

لم أقدر على الهزب،كنت أرى عيون الموت في كل زوايا البيت،في العمل،في الكوابيس.أهرب للصمت ألوذ به،أغلق النوافذ والتلفاز والراديو.أغلق كل نوافذ الأخبار،فيمد الرعب لسانه وأنا أداعب طفلاً في الشارع فيتراءى لي أطفالنا هناك،فأصرخ بهمس–لو نجو من القنابل،كيف ينجو من الأمراض والجوع والخوف..حتى الموسيقى صارت نواحاً أو أزيز طائرات.أهرب للكتاب فأرى صورهم بين السطور،مدّ لي الموت رأسه، وتتراكض خيوله المغيرة خلف الأحبة–على من أنثر زهور الحكايا التي جمعتها كل تلك السنين؟

فيدوي السؤال:من أتى بكل هذا الموت؟هل هم الحمقى الأنانيين أم عصابات الغدر من تجار الكذب والموت،أم هو الشيطان الأكبر،الأب الروحي لهؤلاء اللقطاء منزوعي الضمير؟؟.

انتفض جسدي وقد خرج عن طوعي ولم أسيطر على الدمع المتهاطل بلا توقف.عانقتني نداء وصارت تبكي معي،أم سماح مدت يدها تحتضن يدي وبكت هي الأخرى، دون أن نسأل أحدنا ما الذي يبكيه..

حاول السائق تهدأة الأمر وهو ينظر بالمراة:

- يا جماعة..ادعو الله أن نصل بالسلامة وتطمأنوا على الأهل.لا تتصوروا الفرحة التي ستجلبوها لهم.هل تريدون أن نقف قليلا لترتاحوا؟

- لا..لا الأفضل أن نواصل السير لنصل بوقت معقول لنجنب أنفسنا الوقوع بشباك العصابات. مارأيكم؟. قال علاء بحماس فأيّدناه.

-أنا آسفة،لا أدري ما جرى لي،هل هي الأخبار،أم الذكريات؟

مدتني أم سماح ببطل الماء، شعرت بهدوء بعد شربه

– هل يعجبكم سماع بعض الأغاني. سأل السائق وهو يضع الكاسيت، وقد استحسنا الفكرة.

ألقى كل منا رأسه للخلف لعلّه ينام قليلا كي لا يطول الطريق.ملت برأسي على النافذة بعد أن سحبت الستارة، فسحبتني الأيام مرة أخرى،فأطرق أبوابا لتفتح لي نوافذا حاولت إبقائها مغلقة.

كم أحببته وهو يحكي عن اللحظات التي مروا بها:

"كنت وقتها كالذي أخبروه أنه سيموت بعد لحظات أو أيام.كنا نقف على رصيف الموت ننتظر شبحه المخيف، نرى قطاره وهو يبتعد ببعض الأحبة.

"قبلها كان الموت يترصد الجميع،ولكن بالأمكان الإفلات منه ولو الى حين،كأن يلوذ البعض بطفولته، وآخر يلوذ بسجنه ليستقبله متحدياً شامخا.

"أو يلوذ بحائط الاستسلام والهرب من الشر..ولكن بعدها صار الموت يعربد في كل مكان،ممتطياً طائراته المجنونة وصواريخه الحاقدة،أو يمد أذرعته الاخطبوطية

ليطول الكل بلا استثناء،يركض خلف صبية يلعبون أو ملتحفين أحضان أمهاتهم.."

نام الجميع تقريبا،فاغمضت عينيّ لعلّي استسلم لنومة ولو لبضع دقائق.

غرفة صغيرة ضيقة وسقفها عال جدا تتدلى منه ثريّا لم أسأل كيف استطاعوا تعليقها،لاحضور لغير الصمت، حتى الهمسة تسمع صداها متضخماً ترددها الجدران الخالية المصقولة..لم تدخلها النسوة سوى القليل للتنظيف أو للصلاة ثم يخرجن مسرعات كمن يهرب من خطيئة! لكن اليومْ تجمع حشد لابأس به منهن،كتل سوداء، بأغطية رأس مختلفة فوَطّ أو شيلة كما يسموها وأخريات بجرغد لمحت جدتي فصرخت فرحا ولكن صرختي ارتدت لي،لم أسمع لها صدى ركضت لأعانقها وأنا أصيح غير مصدقة "أيتها الحبيبة،الحمد لله أني رأيتك كنت متأكدة أن الخبر ذاك كان كاذبا".فدفعتني برفق وهي تبتسم وأشارت أن أعود لمكاني ألتفت،كنت هناك أقف على سجادة جميلة بزخرفات فولكلورية جميلة – يقال أن الله سيعذب من يبدع تلك الزخارف – التفت لأعرف من هي صاحبة ذلك الكلام الغريب.

ولكن وجدت الكل يتطلع لي بانتظار وبدهشة وبعضها باستنكار.كان أمامي مايكروفون،عشرات العيون تتطلع لي ببريق من الفرح والتشجيع،وأخرى فيها إستهجان وسخرية ورفض،حتى أن إحداهن بصقت بالأرض وكأنها تقصدني.

بقيت واقفة بتحدي وأنا أحمل الميكروفون لابد أن هذا الجهاز يدخل أول مرة إلى قسم النساء.ارتعشت وقد شعرت بخوف وكأني أرى الموت يقترب،فتحديته وصحت بصوت غير مسموع، مرحى للموت من أجل الحقيقة،من أجل الناس، من أجل تلك المرأة التي صمدت بوجه كل أصناف التنكيل من مضايقات إلى الرمي بالحجارة حين خرجت للعمل بعد مرض زوجها.

كانت تبتسم لي من بين النساء،لم أسأل نفسي إن كنت أعرفها! وبقربها عليّة تحمل إبنها المريض بيد وبالأخرى تعيد غطاء رأسها،لأن الحارس هدّدها بالسلاح لمنعها من دخول المستشفى بلا حجاب!

هذه منيرة ماذا تفعل هنا؟أشرت لها بيدي فابتسمت،لم تركض نحوي كما توقعت لتعانقني،عشرون عاماً لم

أرها!مازالت كما هي بابتسامتها الواثقة بهدوءها،بذلك الحظور المهيب،تعقد شعرها للخلف الوحيدة التي لم تكن تضع شئ على رأسها!

انتبهت للصمت الذي شمل المسجد،كأنه صمت للكون كله،لا يقطعه غير همس وآه من قاعة الرجال التي امتلأت بعشرات المصلّين وغيرهم من الذين أتوا لسماع تلك المرأة التي تجرّأت وأصرت على إلقاء خطبة في المسجد، وصوتها عورة!

هناك وجوه تستحثني بابتسامة مشجّعة،فصرت أسمع دقات قلبي كأنها طبول يتردد صداها من كل الجدران..

لاحظت ابتسامة فيها تشفي وسخرية من صمتي الذي طال.فشددت يدي على الميكروفون..وتمتمت بصوت متحشرج (السلام عليكم) أفزعني صوتي يتردد صداه وكأني رأيت طيورا وحمائم فرّت على أثره محلقة بالسماء..شعرت بعطش لم أعرفه من قبل.فشربت كأس الماء مرة واحدة،وبقيت عطشى.قرأت في بعض العيون تململاً (هيا لا تخيّبي أملنا فيك)..حاولت أن أنسى المكان فسمعت صوتي غريباً،مدوّيا صافياً:(إخوتي بالإنتماء

لرب واحد،ولعراق واحد،حملناه معنا واتعبناه بترحالنا ومازال ينتظر) توتر صوتي ونسيت ما أردت أن أقول: (إنه لمن الكفر أن تتهموا الله بالتقصير،وتفرضوا على عباده ما لم يرضاه) كنت أشعر أن ما أقول جمل غير مفيدة فقلت (خلقنا جميعا بحسبان،فبأي آلاء ربكما تكذبان) قرأت رضا ببعض العيون، وأختي تشير لي من بعيد مبتسمة!اختلطت الكلمات وتسابقت،أردت أن أقول أن الرب أوصاكم أن تغضّوا الطرف أولا قبل أن تجعلوا من أنفسكم آلهة تحاسبون وتعاقبون على هواكم..

تمنيت لو أن أحدهم يقول شيئاً أو يعترض،فقد أخافني الصمت الذي كان ثقيلاً وعميقاً وكأنه يخفي بين ثناياه تهديداً.شعرت بضيق بالتنفس ولا أدري كم مر من الوقت لأجدني بين حشد كبير من نساء ورجال في ديوانية كبيرة،وابن عمي بجانبي يعانقني ويبكي،فأبكي معه كما لم أبك من قبل،بكاءاً فيه من الحرقة والعطش للدموع.ابن عمي الذي لم أره أو أودّعه،وأتجنب ذكره برسائلي حتى لا أثير مواجعهم.كانت يده تضغط على كتفي وهو يصيح لا تبكي..صوته يأتي من بعيد كأنه صدى، شعرت بضيق بالتنفس نهضت بحثا عن الهواء.

فأتاني مع قطرات ماء فزعت وأنا اشهق لتناثرها على وجهي، تلفّت حولي، انتابني حرج لرؤية عيون نداء وأم سماح فيهما قلق علي والسيارة متوقفة، "ما بك؟ هل تشعري بألم؟ همست أم سماح بفزع.

ربتت نداء على كتفي" أعتقد أنه حلم،إن شاء الله خير". عقبت عليها أم سماح "لا تخنقي رغبتك بالبكاء، مضر بصحتك".

لم أتمالك نفسي وواصلت البكاء، فهمست لنداء:

"أعتقد أنه ابن عمي،ربما كان أحد ضحايا المقابر" حاولت أن تهدّأني من أن ذلك مجرد حلم سببه القلق.

لم أشأ أن أواصل الحوار فاعتذرت لهم ولذت بالصمت.حين كان يزورني بالحلم كنت أراه بعيدا يلوح لي بيديه أو أنتظر الوصول لأسلم عليه بلا جدوى،كان هناك عائق ما في كل مرة يمنعني من الوصول إليه.

كما كان يحصل مع أبي،الذي عانقني بإحدها وبكيت وأنا أعتذر له.فجائني خبر رحيله بعدها بأيام،فصرت أخاف أحلامي وأرقبها.

حاولت أن أتذكر الحلم.خطبتي في الجامع،ربما هي مخزون ما أتمنى أن أقول قبلا وبعد سماع قصة السائق.

كيف يجرؤ هؤلاء على ممارسة ماعانوا منه؟ربما هم أنفسهم هم ذاتهم،يد التسلّط بالأمس غيروا بدلاتهم اليوم ولبسوا الدين حلة ليواصلوا مادربوا عليه بالأمس كما قالت منيرة.فالغاية واحدة،سلب الآخر حريته بأي طريقة!

سنوات وأنا اركب القطارات المزدحمة ونساء أوروبا بلبساهن المغري لم أصادف أحدا ممن لم يتمالك السيطرة على غريزته وتحرّش بإحداهن.حتى التحرش كان لا يتعدى كلمة إعجاب أو اثنين،الكل يغض الطرف،كل واحد مسؤول عن ما يلبس أو ما يأكل.هل هم أكثر إسلاماً من أبناء ملّتنا؟ وهل يمنع الحجاب حالة الجوع والشبق لدى البعض من فارضي الحجاب؟وقد سمعت أحدهم يقول أن المرأة بالحجاب أكثر اغراءاً لأنها توحي بحالة التخيّل لدى الرجل؟فيطلق العنان لما يتماه أو يتصوره.ضحكت نداء يوما حين قلت لها أن الحجاب

كفراً،وأن ادّعاء البعض أن صوت المرأة عورة وشعرها فتنة ماهو إلا تجني على قدرة الرب واتقانه لخلق المرأة بمثل تلك المفاتن.وهذا كفر أيضا،فاللباس له علاقة بتقاليد البلد وجغرافيتهم.أكثر من علاقته بالدين.

تهادت السيارة وعمّ الصمت الجميع،أم سماح منذ الرحلة لم تنم لابد أنه القلق.

سألت السائق عن الوضع هناك فيما لو كان هناك أملا،لم تكن بي رغبة للحديث ولكن إردتها محاولة للتخفيف من القلق،أو ربما هرباً من النوم .

– كل الناس هناك كانوا بانتظار اللحظة التي يخلصوا بها من الحاكم الكارثة،لكن تجدي فرحهم يغمره الخوف من الطريقة التي ازيح بها.. البعض يؤمن أنها مسرحية، لماذا وقفوا معه ضد كل المحاولات العراقية السابقة؟ لماذا لم يقتلوه بالحين؟كلها أسئلة تزيد من خوفهم من القادم. كان السائق يتحدث بحماس وغضب.

فعقّبت بالرغم من عدم رغبتي بالحوار فقد أحببت أن أسمعه، لكنه الطبع الذي غلب عليّ:

- ربما هي فعلا مسرحية،ليبقى ورقة يلعبوا بها للنهاية، يبتزوا البعض أو يخيفوا البعض الآخر.

- فعلا هذا ما يتهامس به الناس..البعض مازال يهمس،فالخوف الذي تشكل طبقات على النفوس لا يمكن ازاحته بسهولة.ثم واصل حديثه:

- منذ أيام وصلت قريبتي التي تغربت منذ زمن، فكانت مثلك خائفة من الوضع وتنتقد أمريكا،وتؤكّد أن الحاكم المخلوع ما هو إلا عميل لهم " فقلت لها ضاحكاً: "ما تقوليه صحيح لكن لابد من شكرهم لأنهم كانوا السبب بلقائك بعد كل سنين الغربة.. وهذه تكاد تكون كافية" .

انفعلت قليلاً فقلت أعقّب على كلامه:

- اللعنة عليهم،لولاهم ما تغربنا،بل كان بالإمكان عودتنا بعد بضع سنوات،لو تركوا الأمر للعراقيين النجباء..لكنهم كما ذكرت قريبتك أرادوا ابتزاز العالم، فاتّخذوا منه ورقة جوكر ليلعبوا بها متى شاؤوا.

تملّكتني رغبة بالبكاء غضباً أو حرقةً على تلك السنين التي ضاعت أو تلاشت والتي عرفت بها ماذا يعني أن تكون مقطوعا من شجرة،غصناً أخضراً وضع

في كأس ماء ليقاوم الجفاف بلا جذور ولا حتى هواء نستنشقه في كل زيارة للأهل كما يحصل مع كل المغتربين إلا نحن!

حرمنا من الأهل والوطن وحتى من رؤية أبناءنا.مع ذلك بقينا متمسكين بعروة الزمن ليتوقف العمر على السنة التي خطونا بها خارج الحدود لنبقى صغار نحتفظ بشبابنا لعل صفحاته تبقى مفتوحة نسطر بها أحلامنا من جديد.لكنه تركنا غير عابئ بانتظارنا أو توسلاتنا،تركنا على رصيف الحياة يضحك منا كلما تطلعنا للمرآة.

حين تقدم إثنان من السيارة يتبعهما السائق ليفتح الصندوق وينزل الحقائب لتفتيشها،شعرت بقلبي يغوص بعيداً ويسحب الدم معه (لماذا القلق أليس هذا ما اقترحتيه؟..ثم ماذا هناك غير الملابس وبعض الهدايا؟ اللهم اجعله خيرا) تمتمت بصوت مسموع.

(ماذا لو كما قالوا، يضعوا شيئا في حقائبنا؟)

تصاعد الألم بأحشائي وسمعت دقّات قلبي تطرق من معدتي فأحسست بمغص شديد،تسارعت أنفاسي حتى كاد يغمي عليّ، حتى رأيتهم نظروا للحقائب باركوها بأيديهم

وابتعدوا وهم يشيرون للسائق "لا بأس واصلوا السير" عرفت ذلك من ابتسامة السائق وشكره لهم.فنظر بعضنا للآخر بارتياح قلق،فتلك كانت البداية،سمعت نداء وأم سماح يتمتمان "الحمد لله" .

علّق السائق:

– إنهم كما قال علاء مساكين أيضا،لكن بينهم من أدمن الحرام،ومن الصعب تغيير ذلك وبهذه السرعة، ولكن حتما سيأتي يوم تصبح تلك الأمور مجرد ذكريات. قال ذلك وهو ينطلق بالسيارة بعد أن شغل المحرك فانتنا نسمة باردة من المكيف. اتسع الشارع وأصبح بجانبين، يسوره حاجز حديدي مثلوم من بعض الأماكن وهناك استراحات إسمنتية على جانبي الطريق (شارع جميل وواسع) تنائى القلق وأنا اتطلع للشارع فقلت مزهوة بالإختلاف بين هذا الشارع والذي كنا نقطعه من الجانب الأردني.فعلّقت أم سماح بعدم رضا.

ـ إنه تبذير لأموال البلد التي المفروض أن تصرف لخدمات أخرى، فالشارع فارغ.

ـ بل هو لتسهيل مرور الشاحنات النفطية التي تنقل للأردن مقابل البضائع المحاصرة.قال السائق ليوضح الأمر.

ـ حصارنا كان نعمة لهم،مصيبتنا بالنسبة لهم كنز لا يفنى،لذلك غضبوا منا وكأننا السبب في حرمانهم من ذلك الكنز،حتى لو كان على حساب شعب كامل.علّق علاء.

ـ هذا لا يمنع من أن إتساع الشارع وترتيبه كان جميلا ويوحي بجمال المدن التي سنراها،إن شاء الله قلت متجنبة الخوض بالموضوع الذي طرحه علاء.

فرد السائق وكأنه لم يسمع:

-الشارع ليس إلا غلاف لمّاع،لا يغركم،فحتى لا تكون الصدمة كبيرة عليكم،ما ستروه ليس بالمستوى الذي تتوقعوه .

انتابني شعور بالخيبة والخوف.فزاد من المغص والاضطراب اللذان لم يبرحاني،شربت بعض الماء لأخفّف منه خاصة وذاك الألم عاودني.

تطلّعت لي نداء بقلق،فابتسمت لها أطمأنها فشدّت على يدي وهي تقول بهدوء.

– إن شاء الله خير،سمعت أنه ليس كل الأماكن مخربة.

ــ الأكثر ألما هو تخريب النفوس..المباني والمدن ممكن إعادة بنائها وتعميرها..لكن الناس،وتلك الأجيال التي لم تر غير الحروب والقصف،والفساد في كل المجالات،ذلك ما يجب أن نفكر به كيف يتم إنقاذهم، وإصلاح نفوسهم.

حاولت أن أصمت لأخفّف من المغص،وقد انسحب البعض للنوافذ لتأمل القرى البعيدة الكالحة.هذه ليست المرة الأولى التي ينتابني فيها ألم كهذا. فقد حصل عدة مرات،يوم سجن أخي وقيل لي أن فاروق كان أحد الأسباب،ويوم خرجنا متخفّين تحت أسماء مستعارة وسرنا عبر السهول والطرق الوعرة عبر الجبال لنعبر الى تركيا ثم لأوروبا.لكن أقربها ذلك اليوم الذي بالرغم من المحاولات لنسيانه ما زال يرافقني ينط لي من نافذة الذكريات كلما عاودتني تلك الحالة.

تطلّعت للنافذة لعل المشاهد تنأى بي بعيداً عن ذلك اليوم، لكنها سحبتني لأعيش تلك اللحظات من جديد.

كان الجو بارداً،المطر لم ينقطع ليومين متتاليين.مع ذلك لم أتوقف من الترحال لمتابعة بعض ما يجري من نشاطات ضد الحرب.فأحضر هذا الاجتماع،أو تلك الندوة،أرفع اللافتات التي أخطها بيدي كما لو كنت أودعها غضبي.كما لو لم تكن تكفيني آلاف الشعارات واللافتات التي يرفعوها التي تدين الحرب والقتل، بالمضاهرات التي كانت تنطلق أسبوعيا بلا جدوى والتي كانت كأنها مهرجان سياسي.ربما كنت أريد أن أقول إنها قضيتي أنا.كنت أعرف أن كل ذلك لن يغير شيئاً ربما، لكنه كان الأمل الوحيد.

كان أقل شئ ممكن عمله،حيث لم يكن هناك بديلا، وهو أفضل بكل الأحوال من الصمت ومتابعة الاخبار من على الشاشة الصغيرة.فإذا لم يكن الواجب هو الذي يدفعنا،فعلى الأقل هو محاولة لنفرغ شحنة الغضب والألم من أرواحنا.هكذا كنت أحتج على من يتسائل "ما جدوى الندوات والتظاهرات؟فما يريدوه قد خطّطوا له منذ زمن،

وسينفذوا ما برأسهم ولن تردعهم مظاهرات ولا احتجاجات،إنها مضيعة للوقت"!.

لم أغضب من البعض الذين اعتادوا أن لا يكبّدوا أنفسهم أي عناء لأي غاية ليس بها متعة ومنفعة مباشرة لهم،بقدر غضبي الذي لم أسيطر عليه حين أسمع هذا الكلام من كامل "عن أي وقت تحكي؟ هل تريد أن تقول أن وقتك ممتلئ ولم تضيّع منه دقيقة؟أم أن وقتك في الحانات سيقل بضع ساعات؟اعتبرها أستراحة من الكحول،وهي راحة لجسدك".قلت له مرة ذلك فاستشاط غضباً وصار يصرخ بصوت عالٍ واصطبغ وجهه بحمرة قانية، فخفت وأنا أرى تشنج عضلات وجهه.

"ماذا تقصدين؟هل تعيّريني أم تزايدين علي،ربما تحسديني على تلك اللحظات البسيطة التي تبعدني عن اليأس والانتحار.تريدين حرماني حتى من اللحظات التي أخفف بها بعض من معاناتي.ولن ترض عني إلا إذا شاركتك "نشاطاتك" وذهبت معك للتهريج الذي تعتبرينه نضالاً!.هذه قطنة وارفعيها من أذنك".قال ذلك وخرج مسرعا وهو يصفق الباب خلفه بحدة.

عدت يومها متعبة من البرد والمشي الطويل، والخيبة التي عدت بها من ذلك الاجتماع الذي حضرته. فقد كنت مبهورة وممتنة من حماس الشعب البريطاني،والشعور التضامني لهم مع قضايانا.خاصة ولم يكن لنا الدور الكبير لا أحزابا ولا جمعيات، فبعضها تشكلت للاستفادة من التسهيلات التي تمنحها الدولة لمثل تلك التنظيمات، فاستغلت تجاريا اومنهم من اكتفى بإلقاء محاضرة ما،هنا أو هناك على مجموعة من مريديه،كخطوة لفتح بابا للشهرة،أو لمنصب ما في المستقبل الذي يحلموا به.

فلم نكن إلا تابع نرفع شعارات خطتها أحزابهم، ونحضر ندوات يعقدوها هم.كنت أحيانا آخذ بعض الصور من الصحف واستنسخها وأكبّرها لأرفعها مثل البوسترات،لأمنح نفسي بعض الشعور بالرضا من أني أعمل،وأقوم بواجبي إزاء الوطن لعل ذلك يخفف من وطأة الاحساس بالتقصير أكثر منه محاولة لإثارة مشاعر الرفض لتلك الحرب أو الحصار. فاخذها معي للندوات او الاجتماعات، لأمنح نفسي شيئا من الرضا على الذات، كما لو كنت أقول لهم،ها أنا أساهم ولو بشكل محدود فلا أعتمد عليكم كليا.

كنت أتحمس لخطبهم،من حزب الخضر ومنظمة السلم إلى حزب الشغّيلة الاجتماعي الذي يحاول جاهداً أن يكون له دور بالساحة،وهم يروا احتضار أفكارهم الثورية،وسط هجمة الرغبة الاستهلاكية التي ابعدت الناس عن ما يشغلهم سياسيا.فيتشبثوا بالدعوة لمحاربة القوى الإمبريالية.

"حزب المحافظين لا يختلف عن حزب العمال، كلاهما وجهان لعملة واحدة،أسوة بالحزب الديمقراطي، والجمهوري في أمريكا لا يختلفان عن سياسة بعضهما إلا بالشكليات فقط.فهما يتناوبان على الحكم منذ قرون. آن الأوان لتجرّبوا الأحزاب الأخرى،أحزاب الطبقة الأكبر والأوسع،طبقة الفقراء والمسحوقين "يصيح أحد الشباب بالسماعة التي يحملها بيده.فيبتسم البعض ساخراً والآخر مؤيداً.اتمتم بأسى وأنا أتذكر حماستنا الشبابية وأحلامنا ونحن صغار بتغيير العالم!من يعبأ بالشغيلة والمسحوقين اليوم؟أن العالم يقوده الأغنياء وأصحاب الملايين،منذ الأزل.وما أنتم أو نحن ليس أكثر من أمل أو حلم يعتمده الفقراء للصبر أكثر.

سماعة أخرى يرفعها شاب صبغ خصلات من شعره ولبس قبعة شك عليها عشرات الاوسمة المعدنية التي يوزعها كل فريق مختصرا بها بعض الشعارات. يصيح بحماس سياسي محنك:

"لا وسيلة أكثر نجاحا لردع قادة الامبريالية الجدد،من الاضراب.لا يعني ان التضاهرات ليست مهمة بل هي مهمة ولابد لهم أن يسمعوا صوتنا عاليا من خلالها،لكن الاضراب.نعم الاضراب،هو الذي يقصم ظهر مخططاتهم..فلو اتفق العمال وموظفي الدولة خاصة العاملين بالبنوك،والمؤسسات الاقتصادية،وأضربوا عن العمل ولو ليوم واحد،لرأيناهم يفكرون مرّات قبل أن يتخذوا أي قرار".صفقنا له طويلا.ابتسمت وأنا أفكر، شخص مثله في بلدنا يعتبروه معتوه ولا يسمح له لرفع صوته فكيف به يتحدث بالسياسة!إنه على حق،جعلني أغيّر وجهة نظري ولا أفكر بمظهر الشخص حين احكم عليه فأعترف اني كنت اتجنب أمثاله.فقد قرأنا أن الاضراب الذي دعت له قوى اليسار الفرنسي،مع التضاهرات التي عمت البلاد تضامنا مع الشعب

الجزائري في ثورته ضد الاستعمار الفرنسي،كان له الأثر في تغيير أو تليين لغة الحكام الفرنسيين.لا أدري مدى صحة ذلك،لكني أؤمن به.فالسياسيون في العالم الرأسمالي يعملون ألف حساب للوضع الاقتصادي.لكن اليوم غير الأمس،اليوم الأغلبية لاتفكر إلا بمصلحتها الشخصية،من يعير أهمية للاخر البعيد بأميال وأميال؟من يفكر أن يضحّي بالوظيفة التي لم يحصل عليها إلا بطلوع الروح،لو أضرب وأغضب رب العمل؟

في تلك الليلة عدت البيت مثقلة بحزمة البوسترات التي أخذتها معي لاحد تلك الاجتماعات نظمته بعض الاحزاب المنددة بالحرب.عدت مثقلة ببرد الجو والخيبة، التي شعرتها وأنا أستمع للمتحدثين.اكتشفت أن أغلبهم وجد بالموضوع فرصته للدعاية له ولحزبه ولأفكاره،عسى أن يحظى مستقبلا بنسبة تؤهله للفوز في الانتخابات القادمة ولو بعد سنين!كنت حزينة و طعم مرارة الخيبة أشعره قويا في فمي.كنت غاضبة ومتوترة،لابد أن الجوع والعطش ساهم بزيادة شحنة الغضب.دخلت الدار وأنا أحلم أن أجد كامل ينتظرني فأعانقه وأبكي،وأقول له "معك حق فيما قلته

سابقا!". دخلت ووقفت بباب الصالة، اتأمل بشرود اكثر منه دهشة.

كان هناك يملأ الفرح وجهه،اكثر من امتلاء كأسه، وكانت هي هناك، مرة اخرى، ترافقها احدى صديقاتها، التي كانت تجلس على طرف الأريكة.بينما هو منسجم بحوار هامس معها. حين دخلت قامت صاحبتها بشئ من الارتباك وهي تهمس "مساء الخير" فالتفت هو من مكانه مبتسما "الله يساعدك..ها وين وصلتم..هل ستتوقف الحرب؟" سأل بسخرية.

تمالكت أعصابي،فلو صرخت لأنهمرت الدموع ولن اسيطر على حالة البكاء التي كانت تحاصرني.

"لا اريد أن أسمع تعليقات بايخة.. أنا داخلة الحمام".

قلت بشئ من الهدوء،وانا أنتظر بفارغ الصبر أن ادخل الحمام،لأطلق العنان لدمعي وأدع رغبة البكاء أن تسرح وتمرح بعيدا عن أعين الاخرين.فوجئت به ينهض غاضبا ليقول بصوت عال.

"حضرتك..تريدين تفريغ غضبك بنا أم ماذا؟.جهّزي لنا العشاء، بعدها أنت حرة لدخول الحمام".

صعدت حمى الغضب برأسي خاصة وقد لمحت بنظرتها ابتسامة متشفية ساخرة.

فصرخت بصوت مرتفع "كان المفروض تحضرون العشاء مع الزقنبوت الذي تكرعوه الان".ضاق تنفسي، وشعرت باضطراب في معدتي كما لو أن قلبي قد غاص هناك فجأة،فصارت نبضاتي كأنها طبول،مثلما حصل اليوم.

انفعلت وأنا أستعيد وجوههم لحظتها،الخبث الذي ملأ نظرتها وهي تقول "أهكذا تعاملين ضيوفك؟".ثم أطلقت ضحكة استفزتني.فرميت مابيدي وتقدمت منها وسحبتها بكل ما أوتيت من قوة من قميصها وفتحت الباب أمام ذهولهم جميعا،ورميت بها خارجا وأنا أصيح بأعلى صوتي "لا أريد أن أراك هنا مرة اخرى،أيتها القذرة". ودفعتها بقوة اودعتها كل الغضب والخيبة.

لم يتوقعوا مني أمرا كهذا. اعتادوا مني الاعتذار حتى عن أخطائهم.

نهض هو محتجا صارخا،خفت منه أن يضربني وقد لمحت كما لو أن شررا يتطاير من عينيه،فركضت للحمام وأغلقته بسرعة،كنت أرتعش كلي كسعفة وسط

عاصفة.لم أسمع ما قالته صاحبتها التي ركضت خلفها تتبعها، وهو ينادي عليها.

فتحت الدُش قويا كي لا أسمع ما يقول فصار يضرب على الباب "افتحي الباب، ماذا جرى لك؟ كيف تجرؤين على إهانة اصدقائي؟".

وضعت رأسي تحت الماء،واغمضت عيناي فاختلطت الدموع بالماء، وجسدي يختض لكل ضربة على الباب. ثم صرت اصرخ "هنيئا لك بهكذا أصدقاء.وصديقات ساقطات" تحشرجت الكلمات وشعرت باختناق كما لو تلك الكلمات سحبت الاوكسجين من الهواء وحتى لا أختنق لم يكن لي غير البكاء بصوت مرتفع وبشكل لا إرادي لم اسيطر عليه حتى صار أشبه بالنواح.لاذ هو بالصمت فجأة حين سمع صراخي،ثم عاد يخاطبني بصوت فيه بعض القلق:"ما الحكاية؟ماذا بك،هل تعرضت لمكروه؟".لم أجبه لكني هدأت قليلا،وبقيت تحت رشاش الماء لوقت طويل.

بعد إنطفاء جمرة الغضب،شعرت بإحراج تمنيت أن أخرج ولا أراه، حتى لو يذهب معها في تلك اللحظة، برغم ما في ذلك من جرح وألم لي، فقد تملّكني شعور

بالندم من غضبي ومن صراخي.لقد أعطيتهم سببا آخر للتندر لتبرير سلوكه معي وابتعاده عني منحتهم موضوعا ليتخذوه مادة بجلساتهم التي وجد بها كامل ضالته، وفيها تسليته ومتعته هل هو هكذا من قبل والحب أعمى نظرنا؟ لا أعتقد،بل هو تغير،بلى الانسان اكثر الكائنات عرضة للتغيير! هل من المعقول أن يتغير لهذا الحد؟.

كلما طال بقائي بالحمام ازداد ترددا بالخروج.ولكن بعد أن هدني التعب لبست الروب وهدأت عواصف الغضب خرجت وقررت ان لا أكلمه ولا أرد عليه.ثم تمنيت أن أجده ينتظرني،قلقا علي لأرتمي على صدره وأبكي يمسح دمعتي ويعتذر لي ثم يأتيني بكوب من الشاي او الاعشاب ليهدأ وحش الغضب الذي يسيطر علي.

خرجت تطلعت للصالة كانت خالية الا من الكؤوس وبقايا مقبلات تملأ الطاولة الصغيرة.دخلت المطبخ وعملت كوب من شاي الاعشاب،فكرت ان أنظف الطاولة.لكني وقفت اتأملها واتخيلهم بحواراتهم الساخرة. فانطلقت مني صرخة وأنا أرمي الكؤوس والصحون القذرة بحدة على الأرض فتناثرت شظاياها في كل أرجاء الغرفة.

ثم أخذت كوب الاعشاب ودخلت غرفة النوم صفقت الباب بكل ما أوتيت من قوة، أودعتها كل ألمي وغضبي. لم أفكر بالجيران الذين فوقنا او يسكنون الطابق الاسفل منا. وأغلقت باب الغرفة بالمفتاح لأول مرة مع يقيني انه لن يأت الليلة.

عشت رعبا ان تكون تلك الليلة هي الأخيرة.لن أسمح له أن يدخل بيتي سأطرده نعم لن أضيّع يوم آخر من عمري معه.

ثم ارتميت على وجهي بنوبة أخرى من البكاء لم اسيطر عليها إلا بعد نومي.استيقضت فجرا هربا من كوابيس احتلّت ليلي.صداعا يثقل رأسي وارتجف بالرغم من تدثري ببطانية.تطلعت للصالة على أمل ان أجده، ربما أتى متأخرا ولم يشأ إيقاظي"منذ متى كان يراعي تلك الأمور؟ياما أيقظك من عز النوم لا لشئ إلا لاستفراغ حاجته"!خدعت نفسي مرات،وأنا أقول ربما هو بحاجة للحوار فأصارع أشباح النعاس،ليخيب ظني ويصدمني برغبته تلك فأتماشى معه بالرغم من التعب والارهاق الذي يهد جسدي.في تلك اللحظات تمنيته

هناك، أعانقه، أفئ حرارة شوقي بين يديه "كامل..كامل أين أنت؟"صرت اخاطبه على البعد وأنا أدور بين الصالة والمطبخ "تعال لا تتركني .. ليس لي سواك.."

لم أكن أعرف كيف أتصرف بدونه، كيف أواجه الحياة بمفردي؟يوقظني صوت صفعني"ماذا دهاك من سنين وأنت بمفردك..الى متى تخادعين نفسك؟ كفي عن ذلك..

كل الوقت انت وحدك،تقطعين الطرقات وحدك، تواجهين المشاكل لوحدك، تزورون الأبقاء كل لوحده".

" أنسيت أنه حتى المناسبات التي تدعيان لها تذهبين انت وحدك بحجة انه ليس له رغبة بذلك..لتكتشفي رغبته تلك تتجدد اذا ذهب مع احداهن..كم من الاماكن رفض الذهاب لها لكنه غير رأيه لأجلها..حتى الحفلات التي كان يسخر منها،بل يسخر من رغبتك بالذهاب لها.فتلغين الفكرة، ليأتيك خبر حضوره لها بصحبة إحداهن!..

"فما الذي تريديه اكثر من ذلك..هل لابد له أن يقول لك صراحة أنه يحبها ويفضلها عليك!؟ هل يوجد اكثر من تلك الصراحة..ألم يتركك ويذهب لها مع انك كنت بحاجة له".

بالرغم من إنشغالي الكلي، فكرت ان أزور علاء! لقد شعرت به غريبا بين هله اكثر منا،او ربما لأني وعدتـــه ولا بد من تنفيذ الوعد، لأتفرغ بعدها لزيــارة الاحبــة والاصدقاء.

كنت كأني أستعجل اللحظات لأعوض مافــاتني كــل السنين، استعجل الزمن لأسمعهم كلهم، ليسمعوني كلهم.

تختلط علي الاحداث والأفكار وما خزنته كل اعوام الغربة، وانا اتلهف (لأكتّها) احكيها كلها مرة واحدة قبل سرقة اللحظات.

سألت عن منيرة قيل لي إنها لم تتصل بهم منذ شهور والظاهر انهم انتقلوا لمدينة اخرى أو ربما ذهبوا لسوريا.

اريد أن أرى كل الشوارع التي كل منها له سجل في ملف الذكريات الذي أحمله أنّى رحلت، والتي لولاها لتبعثر العمر كأوراق الاشجار في موسم الخريف.اريد أن أرى وأسمع كل شئ قبل أن يحاصرني الزمن الذي صرت أراه متسرعا يركض برعونة.لم تصدمني مناظر الشوارع كثيرا، مع ذلك لم يمنع إحساسي بالغثيان والالم

والحزن،والذي لم يخفف منه غير تعليقات البعض وضحكهم وسخريتهم،فتلك كانت وسيلتهم او سلاحهم الوحيد ليتحدوا به كل أشباح الموت التي تترصدهم من كل جانب.

لم أتمكن من الاتصال بنداء لتعطل خطوط التلفونات لدى عمتها.فقررت تأجيل زيارتي لعلاء لإشعار آخر، وأنا أرى وفود الاحبة والاصدقاء تتوافد على بيت الاهل،وفي كل مرة يتجدد الضحك والفرح والزغاريد ويختلط العناق بالبكاء.

ـ ليلى انه لك.أعطتني زوجة أخي التليفون.اغلقت أذني الاخرى لأسمع جيدا فالأصوات تتداخل.ضحكت فرحاً وانا أسمعها كأنها زغاريد او زقزة عصافير وقت الفجر.

ـ صباح الخير،أنا أبو زينب..سائقكم،كيف الحال، أرجو أن لا أكون ازعجتكم.

فرحت لمكالمته،إستعدت ساعات رحلتنا الطويلة. وخفت ان يكون قد غير رأيه بموضوع توصيلنا،فقد كان صوته مترددا وحزينا.

ـ ابن حلال،كيف حالك وأهلك واولادك..كنت احكي لأهلي عنك، ولن أعود مع سائق آخر غيرك.

ـ أكيد هذا يسعدني،كلميني حين ترغبين بالعودة لنتفق على موعد السفر.بعد لحظات صمت تابع "اسف أعرف انك مشغولة،لكن قلت ربما تودين زيارة علاء فقد اتصل بي اليوم اخبرني ان أمه توفت، وأنه ربما سيقرر البقاء ليساعد أهله وأخيه.

ـ آه.مسكين كان يتوقع ذلك،الله يرحمها.الحقيقة أود فعلا زيارتهم،على الاقل للتعرف على وضعهم ومساعدتهم..لنتفق على يوم غد عصرا، سأكلم الأخت أم سماح ونداء لنذهب معا،اذا رغبوا بذلك.سأنتظرك غدا.

مسكين ياعلاء،لابد أنه اخبر أبو زينب ليخبرنا بطريقة غير مباشرة.ربما هو بحاجة لمساعدة،فأخوه بوضع تعبان كما هو حال الملايين الاخرين،الحصار لم يترك عائلة دون ان يترك بصمات جريمته عليهم.ربما هو بحاجة ليوصيني ببيته لأبيعه أو اغراضه اذا لم يكن له بيت مادام قرر البقاء،ولو مازال الوقت مبكرا لمثل هذا القرار.

-يا بنتي اليوم صرنا نحسد من يموت موتا طبيعيا.. بالكاد عليها على الاقل رأت ابنها ولم تبقي حسرة في قلبها.علقت أمي على كلامي حين أخبرهم عن الموضوع.

ــ سأذهب معك.قال أبني وهو يطوق كتفي بيده "لن أدعك تخطين عتبة الباب لوحدك" تابع وهو يضحك. عانقته وتعلقت برقبته لحظات، تمنيت لو أبقى هكذا أن أضمه لصدري،أن أعوض سنين حرماني من عناقه من اطعامه،من متابعة دروسه من فرحي وهو يخبرني عن نجاحه.

- وهل تظن اني سأجرؤ على تركك لحظات،انا صرت أغار من اصدقائك حتى لو شغلوك بالسؤال عني أو تحيتي،لكن لا..لا اريدك ان تذهب معي لمناسبة كهذه.

- ماذا تعنين؟ أنا رجل ولابد ان اقوم بالواجب الذي تريدين القيام به، أو على الأقل لأحميك.

- وانا من لي؟أتتركني لخوالك الكسالى،انت تعرفهم، يختفون مثل الزئبق،أم أن من لقى احبابه نسي اصحابه؟.

ابتسمت أمي وهي تحاول أن تمنعه من مرافقتي خوفا عليه.فبعد نجاتهم من القصف العشوائي والقنابل التي امطرها المحتلين.ظهر خوف اخر.فقد عرفت أنها لا تسمح له حتى بالذهاب للجامعة التي التحق بها تواً، خوفا عليه من السيارات المفخخة او الصواريخ او الإنتحاريين الذين يترصدوا الطلبة والعمال.

همست لي وانا أتمدد معها ليلا بعد ان هدّنا السهر والتعب..

– اريدك ان تأخذيه معك،ليس لمشوار الغد،بل حين تعودي لبيتك وزوجك.فأنا أخاف عليه اكثر من خوفي على أخوتك، مازلت أشعر انه أمانة في عنقي.

الحمد لله الذي منّ علي برؤياك،فلا تدري بقدر تعلقي به،بقدر ماصرت انتظر لحظة قدومك لتأخذيه من هنا.قالت وهي تمسح دموعها.

– ولكني جئت لأبقى.عانقتها ضاحكة."ابو صادق سيأتي بعد تهدئة الوضع انشاء الله، المهم لن آخذه منك، انت أمه وأبيه".

- كنت انتظر ذلك بفارغ الصبر،لكن الوضع يزداد سوءا يوم بعد الاخر،كما لو انهم لم يكتفوا بسرقة الفرحة وسرقة أحبتنا،بل يصممون على سرقة الأمل والأمان منا.

- لابد أن ينتهي هذا الكابوس يوما لا تشغلي بالك، نامي الان لقد تعبت اليوم وصحتك لا تحتمل.

وضعت رأسي على صدرها وراحت تداعب خصلات شعري. شعرت بتنهدات صدرها كانت تبكي بصمت.

حين نامت وتعالى شخيرها ضحكتُ وانا أقبلها من جبينها، فتوقفت قليلا ثم عاودت العزف.

"معقول.أنا أشخر؟لابد أنك تمزح" قلت له محتجة على إتهامي.ضحك وهو يقبلني "يا عزيزتي كل من يتعدى الاربعين تظهر علامات الكبر التي اولها الشخير وآخرها الخرف،اما أنت فكلا العلامتان ظهرتا معا"ضربته بالمخدة ضاحكة.

إشتقت اليه،كم كان سيخفف عني حملي الثقيل هذا لو كان معي.

لم تسألني أمي كثيرا عن كامل، كانت تحبه بقدر حبها لنا.فقد كانت كثيرا ماتشكي له من اخوتي لو عاندوها او تأخروا ليلا واقلقوها.في عينيها اسئلة ولوم،اقرأ فيهما انتظارها للأيام الاتية لتطرح كل اسئلتها بلا تردد.وأنا تجنبت الحديث عنه بالتفصيل، بل تعمدت أن أحكي لهم عن صادق وابوه."سيعجبك حتما بل هو منذ ان حكيت له عنك صرت أخيه الاكبر" قلت لأبني وأنا أسلمه الهدايا التي اشتراها صادق له.فكرت ان أحكي معه بموضوع ذهابه معي، لكني أجلت الموضوع للاتي من الأيام.

إنسحبت من فراشها بهدوء لئلا أوقضها.كان بعض من الاقرباء ينامون في الصالة واخوتي وزوجاتهم يشغلون غرف النوم.

بعد الحصار وارتفاع اسعار البيوت وإيجارها انتقلوا للسكن مع أمي التي فرحت بذلك الاقتراح كما لو كانت تنتظره. فهي تركت لهم الحرية ليخرجون بعد زواجهم ويستأجرون شققا صغيرة. وقد تفرغت لأبني (كمال) الذي لم يفارقها،هي التي اختارت له أسمه أرادت له أسما قريبا من (كامل).

عادوا لها بعد تردي الأوضاع، فهي سعيدة لاجتماعهم معها.الله ما أجمل لمّ شملهم،حلمت ان اكون بينهم.هل نقدر أن نعود كما كنا أو حلمنا كباقي خلق الله.

خرجت للحديقة الصغيرة، تأملت السماء كان سوادها صافيا والنجوم تتزاحم بها تتلألأ كما لو انها فستان حفلة مخملي أسود مرصع بلآلئ تتناثر في كل ملم منه.

سأحاول ان آخذها معي،فهي حتما ستفتقد كمال وربما لا تحتمل فراقه،كما انها لم تخرج من هنا بكل حياتها، وهذه فرصتي لأعوضها تعبها أو على الاقل لأرد جميلها وماتحملته بسببي.

ارتحت لهذه الفكرة بل انفعلت لها وتمنيت أن يأتي الصباح سريعا لأخطط لسفرهما معي.سنبقى هناك حتى تستقر الامور وتصبح معقولة.لن أقول لهما شيئا حتى أعمل بعض الاجراءات.

لكن وسط هذه الفوضى هل سأتمكن من استخلاص جوازات سفر لهما؟لابد أن أحاول واذا لم اتمكن من الحصول على فيزا هنا سأفعل ذلك من الاردن.عرفت أنه التحق بالجامعة حديثا، تساءلت مستغربة لتصوري انه

أتم دراسته أو على الأقل في سنته الاخيرة."لم أشأ أن اقلقك بأمر دراستي،لأني كنت اتوقع ان الحاحك على التحاقي بك سيصبح شغلك الشاغل لو عرفت أمر فصلي من الدراسة".

كنت سمعت عن تدهور الحالة العلمية وتخلي الطلبة عن الدراسة بعد أن صارت غير مجدية خاصة بعد فرض الحصار.

"كنا نمزح انا وبعض الزملاء والزميلات،لا اذكر الموضوع لكنه لايخرج عن السخرية من بعضنا البعض، وكنا نضحك بصوت عال في حديقة الجامعة وصادف أن مرّ عميد الكلية وسمعنا،طلب من احد الطلبة المخبرين السريين ان يأتيه بأسمائنا،ليصدر أمر فصلنا باليوم التالي.كان بالامكان الاحتجاج والشكوى، لكنا بالحقيقة كنا نتوقع ذلك الأمر كلما هددوا بفصلنا اذا لم ننتم لحزبهم فقد قالتها معاونة العميد صراحة "لماذا لم تنتم للان؟.. من لا يعجبه الامر نعلقه بباب الجامعة ليكون عبرة للكل". فنصحني أحد الاساتذة أن لا اجادلهم وأن اجاريهم بعض الشئ حتى لا اعطيهم فرصة الانتقام..المهم أنا

سعيد الان وقد أخترت الموضوع الذي كنت أحب. اضافة الى انها كانت فرصة للعمل في اكثر من مجال".

لابد أن آخذه معي،هناك فرص الدراسة أكثر وحرية الاختيار اكبر.

جلست على العشب القليل المتناثر في الارض،"مالك ايتها الارض لا تحتملي أحبتك، تلفضيهم الواحد بعد الاخر، تفتحي مغاراتك المظلمة لتلتهمي العشرات منهم كل يوم؟". أخافني ذلك الاحساس،فأسرعت لفراشي اندس به وأغطي رأسي بالشرشف بالرغم من حرارة الجو.شعرت بخيبة بعد رفض ام سماح مرافقتي،وطلبها لتأجيل الزيارة،وقد لمست عدم حماسها للموضوع.لا ألومها فلابد ان شوقها للأهل او تلك الظروف تدع المرء يرابط معهم.او هو الخوف المزروع في كل مكان يجعل الكل كما لو أنهم حشروا في مصعد كهربائي معطل،فابقوا جميعا معلقين بين الارض والسماء ينتظرون رحمة المسؤولين لاصلاح العطل واطلاق سراحهم!كنا ننتظر الافراج عنّا بعد العقود الطويلة من الحبس الجماعي.والان يعتقلونا كلنا،الشعب كله معتقل، ولكن كل واحد في بيته،الفرق أن السجناء وفروا لهم

الحماية ولا احد يقدر الوصول اليهم..أما نحن فكل منا مهدد.كل الشعب مهدد اطفالا ونساءا شيوخا وشبابا،من كل الطوائف والأطياف عمالا واطباء طلابا وأساتذة، شرطة ورجال اعمال الكل بلا استثناء.

" كل واحد منهم مهدد ولا يدري متى تحين ساعة رحيله التي قد يقررها جندي امريكي جعله الخوف والجبن يقتل بشكل عشوائي او أنتحاري حاقد أو فاقد لارادته لا يدري لماذا ينتحر ويجاهد ضد من فقد أوهموه أنه سيذهب للجنة كلما قتل أكثر!..

او بسلاح حاقد بقناع اسود او ابيض فالكل يساهم بحفلة القتل التنكرية".

كان أخي يتحدث بسخرية لم يقدر أن يخفي مرارتها.

ارعبتني تلك الصورة أرعبتني بواقعيتها وبسرياليتها خفت حقا.ولكن لم يخطر بذهني ان ألغي فكرة الذهاب او الخروج.

لم تنفع توسلاتي بكمال أن يبقى في البيت "على الأقل تستقبل الضيوف".

من جانب آخر في داخلي رغبة أنانية فقد كنت أريده معي،خاصة بعد اعتذار الاخرين لابد من الذهاب ولو وحدي لانجاز هذه المهمة. فهل السائق أفضل مني.

كنت أشعر وكأن علاء صديقا قديما أعرفه من قبل، بالرغم من قلة حواراتنا معا خلال الرحلة.شعرته مسكين، او ربما هو الاحساس الأمومي أزاء الاخر، لقد تلاشى شعوري بالغضب منه حين اعترض على اقتراحي بعدم دفع رشاوي لمن يفتشوا سياراتنا،كنت اتفق معه،لكنه انتقد الأمر بطريقة فيها سخرية واستهجان بل كأنه يتهمني باستعراض البطولات!لكني حين سمعته يتحدث بقلق عن أمه،حين لمحت الارتباك في عينيه وهو بين أهله شعرت بأسى من أجله،فصارت زيارته نوع من الواجب والالتزام.وبنفس الوقت لأتحدى الخوف الذي صار يلازمني اكثر من قبل.

ركبنا سيارة ابو زينب الصغيرة.

- هذه سيارة أخي،سيارتي احرص أن لا أستخدمها في المدينة، أخاف عليها، فهي مصدر رزقنا..أخذها أخي ليوصل مسافرين لسوريا.

أكتفيت .بالسؤال عن أهله،شعور بالخوف داهمني فجأة،ربما بتأثير الحوارات والأخبار التي سمعتها،شئ ما جعلني أتردد من الحديث معه بالحرية التي شعرتها خلال الرحلة.بل لم أعرّفه بإبني خوفا عليه لا ادري من ماذا! للحظات ترددت كدت أن أطلب منه أن يعود بنا للبيت."ربما يكون واحد من إياهم ويخطف ابني ويرميني بالشارع اذا لم يعتد عليّ..ولا يسلمني اياه الا بعد تسليمه الاف الدولارات"،فتمسكت بيد كمال بشكل لا شعوري، تطلع لي باسما فقبلته من جبينه.

– هل هذا هو المحروس ابنك.ما شاء الله.الله يحفظه لك.

– ها..أي نعم هذا ابني كمال، أصر أن يأتي معي، مع اننا لن نبقى هناك اكثر من نصف ساعة ليس اكثر.

لماذا قلت له ذلك؟ كان الأولى ان تكتفي بابتسامة أو على الأقل تخفي حقيقة هويته " إنه ابن جارتي..لا.. انه احد اقرباء علاء.ما هذا الهراء.انه ابن عمي اخو الذي احتطف منذ عقود، ولم يعرفوا عنه شئ.. كان صغيرا لم

يتجاوز عمره العام.."وهل هؤلاء لايعنيك امرهم!؟أو أنك لن تهتمي لخطفهم؟أم انه الخوف جعلك لا تحسنين التفكير!

ما نفع كل ذلك الان لقد قلت كل شئ،بل لم تخف حتى الاسم.يا الهي ما كل هذا الغباء،لماذا لم أفكر بالأمر من قبل.

- لابد انك متعبة من الرحلة...

لم أنتبه لتعقيبه ولم أفكر أن أجيبه بل سمعت كمال يتحدث له:

- انها فعلا متعبة،لكنها تصر أن تؤدي الواجب،لا تبالي بتحذيرنا ولا تعير اهمية لتعليقاتنا.

تطلعت لكمال بتساؤل وانا أشد على يده تمنيت أن اقول له "لا تقل شيئاًاسكت" توقفت كل أجهزة تفكيري، لم اتطلع للشوارع وتناقضاتها،بين الضيقة والواسعة.التي مازالت تحتفظ بعض اشجارها ونخيلها،والاخرى التي تحتلها جحافل المزابل.

لن تنفع العودة وانا لا أعرف أين نحن وكم نبعد عن بيتنا او عن مدينة الثورة؟

– أين نحن الان؟. سألت كمال بهمس.

– وصلنا الثورة.. هل نسيتها؟ أجابني ابو زينب وهو يبتسم لنا .

تنائى كل شعوري بالارتياح له، وندمت على الثقة العالية التي منحتها له منذ أيام وانا أحكي له بالتفصيل وبلا تردد،بالرغم من أنه لحد الان لم يبدر منه أي شئ يدعو لذلك.مع هذا سيطر علي القلق والخوف منه ربما هي القصص التي سمعتها.

– هذا حي القيارة..لي أصدقاء هنا أزورهم بعض الأحيان،منهم صديقي حسين الذي جاء ليسلم عليك، لكن انشغالك بالضيوف جعله يتردد ووعد أن يأتي مرة اخرى.كلام كمال أشعرني بشئ من الاطمئنان وهو يحكي بسلاسة وود عن صديقه.

"ها قد وصلت.. ماهذا الجنون؟ لو أراد ان يخطف ابنك لأتى بشخص آخر على الاقل.. ثم أن ابنك رجل وبامكانه ان يدافع عن نفسه..".

تأملت الشوارع وانا أحاول أن أحيد نفسي عن تلك الافكار التي سببت لي حالة غثيان واضطراب بمعدتي.

تلك هي الثورة اذن، التي تصر ان تبقى ثائرة بالرغم من السطو على أسمها مرات.المدينة التي أولى بهــا أن تسمى بأسم مؤسسها.اذكرها جيدا،أتيت هنا مع كامل عدة مرات كان له أصدقاء كثار هنا،ها هو ابنه يماثله باختيار الاصدقاء.

كانت فتية،كلها حيوية،كريمة احتضنت الكثير من كل الأطياف والاصناف، فلاحين وعمــال،أكراد وعـرب، شيعة وسنة مسيحيين وصابئة.كانت كأنها العراق مصغرا بحبه للحياة بتعبه،بتناقض وانسجام ابنائه، بتزاوج ابنائه من كل الأديان.احد أصدقائه تزوج مسيحية،لم يقاطعوها اهلها كلهم بل بقيت صلتها بأخواتها وأمها،وحاول أهلــه أن يعوضوها تلك التضحية وكأنهم يشعرون بالذنب من خيارها ذاك.كان أهل الثورة، خليط من فلاحين وعمــال وطلبة ومن خلفيات اجتماعية متعددة.ومتناقضين حتــى بتصميم بيوتهم فهذا الذي لايريد ان يفارق الريف، فبنى بيته من غرف طينية واسعة (جمالي) أحاطها بسور من الطابوق، وملأ ساحة الدار بالدجاج والطيور وحتى البقر او الخرفان. بينما الاخر بالغ بادخال أكثر مــن طــراز

على تصميم بيته بالرغم من صغر المساحة التي هي أقل من مئتي متر. ولكن بالرغم من ذلك التناقض كان هناك حالة حب وانسجام بين أهلها لا يعكـره غيـر بعـض المعارك والخلافات التي تحدث بين البعض ممـن نقـل معه تعصبه العشائري أو تخلفه بمواجهة أبسط المشاكل. اذكر منها المعارك الطاحنة التي حـدثت بـين جيـران بسبب شجار بين اولادهما، ليتطور وتتدخل به عناصـر من القبيلتين مستخدمين أسلحة مختلفة ليروح ضـحيتها اثنين او ثلاثة ارواح من الطرفين، غير الجرحى والاذى والخوف الذي سببوه للصغار! كل ذلك بسبب تافه يمكن ان يحسم بشكل سوي وبسيط.

بنفس الوقت ترى مواقف البعض من التي تبقى بالبال وتتمنى لو تحظى برؤية اولئك الناس.ففي احد الصباحات الممطرة خرجت مع زينب اخت ستار رفيق كامل والتي للمفاجأة الجميلة اكتشفت انها كانت زميلة في نفس ثانوية البتول التي درست بها. هي أصرت على اتمام الدراسة، وأنا اخترت العمل بشهادة الثانوية. بتنا في بيتهم ليلتهـا، تركت كامل مع صديقه وبعض الرفاق لأسـهر معهـا

ونحن نستعيد ذكريات تلـك الـسنوات التـي اكتـشفت حلاوتها بعد فراقها واختياري العمل.في الصباح تركـت كامل نائما، كعادته حين نبيت في أي مكان، فخرجت أنا مع زينب لأذهب معها للجامعة من ثم اذهب للعمل فقـد استهوتني فكرة الاطلاع على الجامعة لعلي أفكر باتمـام الدراسة بالقسم المسائي. قطعنا زقاقهم نتكأ على بعـضنا البعض خوف التزحلق فوق الوحل والطين الذي سـببه المطر. وصلنا الشارع العام حيث يتزاحم الطلبة والعمال والموظفين للحصول على مقعد فـي سـيارات النقـل الخاصة، لم يفكر احدا بالباص التي يتزايد بطئهـا فـي الشوارع الممطرة.وقفنا لا ندري ماالعمل ولم نجرؤ على مزاحمة الشباب، واذا بأحد سواق الحافلات الكبيرة يقف وقد حجز لنا المقعدان المحاذيـان لـه، والتـي كانـت لمساعديه، شكرناه وصعدنا غير مصدقين تلك البـادرة الجميلة. في باب المعظم المحطة النهائية نزل الركـاب كلهم وحين حاولنا النزول اقترح السائق أن نبقى ليوصلنا لباب الجامعة، فالمطر لم يتوقف والمسافة بين المحطـة والجامعة طويلة. تطلعنا لبعضنا بفرح وارتباك. "انـتن

بنات مدينتي ونحن نفخر بكن، ولابد أن أوصلكن بنفسي لباب الكلية".

مازلت لليوم أشعر بأذى لأني لم اشكر ذلك السائق بما فيه الكفاية بما يستحقه من تقدير لذلك الموقف الذي شعرت به أكثر من نبيل وابعد من حدود التقدير لموقفنا ومايمكن ان نتعرض له من بهذلة في مثل ذلك المطر، بل كان فيه عمق الاحساس بالانتماء،عمق التلاحم بين أبناء تلك المدينة،التي صار اهلها اليوم او شبابها يتعرضون للبنات السافرات ويستنكر البعض منهم خروج الفتيات للدراسة.ترى أين زينب اليوم؟ماذا حل بأخوتها،هل سافروا اسوة بالاف الراحلين؟ام استشهدوا باحدى الحروب الحمقى؟.مازالت الشوارع متعبة لكنها عنيدة ومخلصة للذي منحها اسمها الذي بقي صامدا بالرغم من تغييره مرات.تلك المدينة التي أنجبت الكثير من الشعراء والادباء،العلماء والاطباء،حتى لو رحلوا عنها تبقى هي المهد لهم.تعذبت لينظموا القصائد. سهرت مصابيح شوارعها، وشموعها حين انطفاء الكهرباء لتباهي بتفوق ابنائها.

عاندت بالرغم من كل التشويهات التي ابدعها البعض عنها "انت من الثورة..كيف احتملتي العيش هناك؟وسط الجهلة من الفلاحين! او عـصابات القتـل والـسرقة". تسائلت احدى الطالبات ونحن نتعرف على زميلة جديدة، جميلة، أنيقة وذكية،مازلت اذكر وجهها وشعرها الاسود الفاحم بعينين شهلاوين، نسيت اسمها بالرغم من اعجابي بها وقتها. استطاعت أن تكسب اعجاب كل المدرسـات لذكائها واجتهادها. فلم يصدق البعض انها من (الثـورة) كما قالت.

تطلعت لنا جميعا بابتسامة فيها رثاء لنا أكثـر منهـا تجاوبا "غريب ماتقولون،انها مدينة جميلة فيها الاشـرار والاخيار كما في كل المدن أو المناطق الشعبية، مثل ابو سيفين وشارع الكفاح..اليس في تلك المناطق (الشقاوات) الفتوة كما يسموهم في الافلام المصرية".

كانت تكتفي بشد شعرها للخلف ذيل حصان، لم تهتم بمظهرها بالشكل الذي تبالغ به بعض الطالبات، فـالزي الموحد كن يتبارين بالتفصيلات وازياء الثوب الازرق او التنورة الزرقاء والقمصان البيضاء، بعضها تصمم وفق

احدث الموديلات أو تشترى من اغلـــى المحـــلات فـــي شارع النهر.أما هي فكنت أراها اكثر اناقة من الجميـــع بالرغم انها لم تغير سدريتها الزرقاء ولا القمـــيص ولا حتى الحذاء الذي لم تغيره لاصـــيفا ولاشـــتاءا. ولكـــن بالرغم من اعجابي بها، كنت اجاري الأخريات، حتى لا أشعر بغربة بينهن او ربما لأني لا املك ذكائها او تفوقها لأفرض الاعجاب والتقدير بينهن .

كانت كل عام تعفى من الامتحان النهائي وفـــي كـــل الدروس بعد أن تتجاوز معدلاتها التسعين بالمئة. سمعت انها دخلت الطب بعد نهاية البكالوريا.حينها لم أحـــصل على اكثر من ستين بالمائة، رفضت ان اواصل الدراسة لأعمل بالبدالة.أين هي الان يا ترى؟ من اســـأل عنهـــا؟ وأنا لم أعد اعرف اي شئ حتى عن الزميلات الأقـــرب منها.ها هي الثورة اليوم تبدو كهلة، مثلكِ، هدها التعب. فهل ستواصل الصمود بوجه كل تلك العواصف وذلـــك الحقد.

- لم تعد الثورة مثل قبل..رحل الكثير من أهلها، بعد حالة الاهمال والتردي، خاصة بعد الحصار، وقد صـــار الناس لا يعبأوا بشئ غير توفير لقمة العيش لأولادهم.

علق السائق،ربما ليكسر حدة الصمت الذي ساد.هدأت وتلاشى خوفي منه الغير مبرر،استعدت ثقتي به، وكلامه الذي فيه الصدق والحماس قد أبعد الفكرة المرعبة التي تلبستني.

– لقد صارت اليوم كأغلب المدن الشعبية، يفتقد ليلها لمعنى السكون او الهدوء الذي ابتلعته اصوات المحركات الصغيرة أي مولدات الكهرباء، ففي كل بيت يبدو أزيز المولدات كأنه نفث للهم التاريخي الذي توارثته البشرية اجيالا ليبدو كما الأنين العراقي،نغمة متفردة هي مزيج من الاهات الممتدة الى أول البلاء الانساني،الذي دفع ثمن الحضارات، او أنفاس من تساقطوا وهم يقيمون الاهرامات او سور الصين وقلاع الملوك".علق كمال، بهدوء وتابع كما لو كان يحاور نفسه ومسحة الأسف تسيطر على صوته.

"مدينة يفقد فيها القمر والنجوم وسكان السماء أي معنى. مساكنها تنطق بالقهر، تبدو كأنها قد كومت في صحراء يتصاعد بها الدخان الذي هو حرائق للقمامة او حرائق مجهولة بين الحين والاخر.

"في النهار تلفظ البيوت الملايين من ساكنيها الى شوارع مزلزلة بفضيانات للمياه الثقيلة تتحكم بجغرافيتها وحركة المرور وصحة الناس،فتحتل الشوارع التي تتزاحم بها الاوساخ.واليأس،حيث الناس صاروا لايعبأوا بتلك المظاهر فالهم الاول هو الحفاظ على الارواح التي يهددها الموت المجاني الذي اريد له التكاثر بشكل عشوائي.

"لكنها بالرغم من ذلك مازلنا نرى.في العيون بريق الأمل خاصة بعد فرحهم بسقوط الأغلال، لكن الخوف من تلك الحراب الغريبة التي تكاثرت مصادرها.لم تعد هناك عواطف وأحلام سياسية لكن الاحساس بالجرح مازال قائما لايخفف منه غير الأمل بالوافد الجديد المسمى حرية".

وصلنا الشارع الذي اتيناه منذ بضعة أيام،مازال الصغار يحتلون أركانه،يتوسطه صيوان (خيمة) المأتم وشباب صغار يحملون سواني الشاي أو دلات القهوة التي عبق عطرها من بعيد. صوت السماعات يصدح بآيات من القرآن، وهو ما تشترك به كل المناطق الشعبية

اليوم فصوت القرآن او اللطميات الحسينية في كل الشوارع والحارات بعزاء وبدون!. وكأنك تعيش عاشوراء على مدار السنة أو هو عزاء منصوب لتكئييب الناس أكثر مما هم عليه.

- انها مرحلة مؤقتة وتعدي قد تكون هي محاولة للتعويض عن مافاتهم او هي أنتقام ممن حرموهم من تقليد أو شعيرة اعتادوا عليها مئات السنين.

لم اشعر بأي شوق ولا أي حماس لسماع تلك اللطميات التي كنا نحبها أيام عاشوراء.ربما لأنه ليس وقتها أو لأنّ الحزن الذي هُم فيه أكبر من أي عاشور. فهم بحاجة لجرعات من الفرح والأمل ليقاوموا ذلك الكم الهائل من الأذى والقهر واليأس.لمحت علاء يتجه صوبنا وفي عينيه ارتياح لرؤيانا بالرغم من الحزن والتعب البادبين عليه. فربما أنا أمثل له العالم الذي أتى منه، فيشعر اني أقرب له من الكثير من أهله الذين لم يرهم من عقود. صافحته بل وقبلته لأعزيه، لم أنتبه للعيون التي كانت تتطلع لي باستغراب او باستنكار ربما وعدم رضى. كنت أقبل اصدقاء كامل مثل أخوتي، كان ذلك

الاحساس بالاخوة أكبـــر واقــوى وأجمـــل مـــن كـــل الاحاسيس.

دخلنا البيت حيث النساء،القينا التحية عليهن،كن كـــل اثنين او ثلاثة يتحاورن معا.جلس عـــلاء معنـــا بعـــض الوقت.

- هل حقا تفكر بالبقاء هنا؟ سألته خوف أن لا أجـــد وقتا اخر للحوارمعه.

- بصراحة.. نعم، لقد قررت البقاء، وأن كان الوقت مبكر على هكذا قرار، لكني أشعر اني ممكن أن أعمـــل شئ هنا، لقد تعبت من الغربة.. بل فكـــرت ان أســـتقر وأتزوج، عندي أمل بشابة جارتنا وصديقة الاهل، لعلها توافق علي. قال ضاحكا.

- اكيد ستوافق، أنت شاب مثقـــف وطيـــب، ولكـــن موضوع العمل؟ الحياة هنا مازالت فوضى.

نظر بعيدا ثم التفت لي وبعينيه ألم قديم اوأمل بعيد.

- عندي أمل بالحصول على عمل كمتـــرجم، فلـــدي لغات عديدة قد تنفع للترجمة المباشرة.. لقد تعبت، تعبت

من الاحباط والفشل الذي لازمني كل العمر.عسى في سنواتي الاخيرة يستقيم الحظ او القدر..صدقيني حاولت كل شئ هناك،حاولت العمل في مجالات عديدة ولم أفلح، نجحت في العمل ذاته بل بعض الأعمال احببها وأتقنتها بالرغم من عدم تجربة لي سابقة بها، وبعضها لم يخطر بذهني ان أعملها،مع ذلك لم أنل غير الخيبة عشت سنين الغربة بلا اصدقاء ولا حتى معارف، كلما اقترب من أحد ينأى عني.

ومن أحببتهم وشعرت بقربهم مني،أما أن يختطفهم القدر،او يتغيروا فجأة!لأعيش خيبة اخرى واواصل الدرب الموحش وحدي. صمت وقد تهدج صوته حزنا. وضعت يدي على كتفه.

– احدهم يناديك، سنتحدث عن هذا الامر فيما بعد، أنت قوي ومثابر وأنا متأكدة انك ستنجح وستحقق ماتريد. نهض وهو يشكرني "اعتبرني صديقة أو أخت لاتتردد أن تكلمني، و سازورك".

ترددت وانتابني احساس بالغربة، حين ذهب ابو زينب وكمال لمكان الرجال مع علاء وأخيه.

– لن أبقى اكثر من خمس دقائق فقد تركت ضـيوفي في البيت،المهم سأمر عليك فـي وقـت لاحـق حتمـا وسيعطيك كمال تلفوني لتتصل بي أن احتجت لأي شئ.

لمحت دموعا في عينيه وهو يشكرني.أعطيت كمـال مبلغا من المال ليسلمه له او لأخيه.

استقبلتني النسوة كما لو كن يعرفنني،اخذتني زوجـة حاتم حيث تجلس احدى اخوات عـلاء التـي نهـضت تعانقني.

– اشكرك.. نحن ممنونين من زيارتك حقا، في مثل هذه الظروف الكثير يتجنبون الخروج من البيت.

– الاعمار بيد الله.. هذا أقل شئ ممكن عملـه، لقـد شعرت بعلاء متألم للحدث.لابد للكل ان يتكـاتف يـسند بعضهم بعضا. قلت ذلك وانا أشعر بوخزة فـي القلـب وكأني اتوسل شيئا مستحيل.

انخرطت بنوبة بكاء أنقذتني مـن الحمـاس لحـوار يعرفه الكل ولا يفعل شيئا لتطبيقه.صوت القرآن أعادني لمساءات الغروب القديمة كان صوت عبد الباسط كأنـه يشق الغيوم الحمراء في تلك السماء فاشعر بحالة تـشبه

التصوف والتجلي الروحي فاشعر بضيق إن لـم أبـك، بكاءا يشبه الصلاة.استعدت تلك اللحظات وانـا اتأمـل النسوة من شابات جميلات ونساء متعبات وهن رائحات غاديات وباعداد كبيرة. يتحركن بنشاط وحيوية يطـبخن ويقمن بواجبات المعزيين، ضاحكات باسمات وكـأنهن يسخرن من القدر ومن الموت، تمنيت لو اعانقهن.لابـد ان كم الموت الذي رأيناه جعلهن يسخرن منه ولايبالين. او لأن الفقيدة امرأة عجوز ومريضة منذ زمـن وهـم يتوقعون ذلك أو ينتظروه.

اقتربت مني زوجة حاتم جلست بجانبي ثم عـانقتني بحميمية.

– الله يعينكم على الغربة. قبلتها من رأسها وأنا أردد بابتسامة دامعة.

– ويعينكم أنتم ايضا على غربتكم.

بلى لقد شعرت بتلك الغربة من قبل غربة الوطن مـا أصعبها،تسير بشوارع تدعي انك تعرفها لكنها تضمر لك الخوف والأذى بلا سبب غير حبك للحياة للناس.اليـوم تتضخم الغربة تتحول لوحش خرافي يقطـع الطرقـات

على الناس يمنعهم حتى من مشاركة أحبتهم افراحهم او احزانهم ليحاصرهم فرادا ليستفرد بهم!

لكنهم مهما تضخم ذلك الوحش يصرون على المضي يصرون على الحياة.

حكت لي عن علاء وكيف انه كان مثل أحد اولادها وحزنت حين قرر الالتحاق بالعسكرية بالرغم من صغر سنه، ثم فراقه وقد يأسوا منه ، بالرغم من تقبل التعازي به قبلا لكن شئ ما كان يوحي لهم أنه حي، ثم همست بابتسامة ودودة "الحي ويا الحي يتلاقون".

فجأة سمعنا صوت ارتطام أو انفجار اختض له جسدي، واهتزت اركان البيت فجأة صرخت بعض النسوة وتعالى بكاء الاطفال خوفا.ثم اختلطت الاصوات وقد تعالت الهبة نار ودخان في الخارج.اختلط صوت الانفجار بصراخ كأنه انطلق من كائنات اخرى،اتت من سماوات لا أعرفها.صرخت أنا ايضا بلا وعي "كمال" شئ ناري دخل كتفي فلم أتمكن من الركض، ثم فجأة اختفي كل شئ.استيقضت على ضجة أخرى وجدت نفسي ملقية على سريرحديدي تطلعت بصعوبة كانت بقع

الدماء تغطي كل لون للفراش بعضها جف والاخر مازال رطبا، هل هي دمائي ام دماء جرحى اخرين؟.

فجأة صرت أتقيأ ركضت بعض الممرضات صوبي. "ماذا جرى؟" صحت بصوت واهن. وانا اقاوم الألم الحارق الذي صار يسيطر على كل جسمي.

ثم نسيت كل شئ وصرخت بصوت عالي "كمال.إبني أين هو؟ "ولكن لم أقو على الوقوف، قاومت حالة اغماء فرضها علي ألم مبرح في كتفي.

اسندتني الممرضة واعادتني للفراش الذي نسيت حالة التقزز والاشمئزاز منه.توسلت بها بصوت واهن،قدمت لي كأس ماء، شربته مرة واحدة.

-ارجوك ابني كان معي ولا اعرف ما الذي حصل.. اختفى، ربما يبحث عني الان. ورحت أبكي بلا ارادة وانا اتطلع لثيابي السوداء ممزقة والدماء تحتل كل ركن منها. تشبثت بيدها متوسلة

- ارجوك خبريني ما الذي حصل.

ـــ كانت سيارة مفخخة استهدفت جادر العزاء.. الجبناء..لم يجدوا غير الأبرياء أهدافا لجرائمهم.قالت

الممرضة بغضب وهي تعيد ضماد يدي وعينها على الرواق الذي امتلأ بالجرحي والممرضين والاطباء واخرين ربما أهل الجرحى أو اقربائهم،أو قد يكونوا بعض القتلة يحصون ضحاياهم،ليضمنوا الاسراع للجنة!.

الفوضى في كل مكان،الحيرة بعيون الاطباء اكثر منها بعيون المرضى او الجرحى،الذين بدا بعضهم مستسلما هادئا وكأنه لايريد بصراخه او تأوه ان يستفز الموت المتربص به.

تطلعت للرواق والفوضى التي حولي بذهول يختلف عن ذهولي وأنا أسمع عن تلك الحوادث أو حين اراها على شاشة التلفزيون،تنقلها المحطات ببرود وكأن تلك الدماء لكائنات غير بشرية.وقتها كنت أغضب واصرخ أو ابث تلك المشاعر وافرغ غضبي ببعض الأشياء أكسرها أو شتائم اقذفها بوجه القدر لتصل من هم السبب بكل ذلك.وانا اعرف انها لن تصل لأبعد من جدران بيتي،لكنها ستسوطن روحي،ولم تكن غير افراغ تلك الشحنة المؤلمة.لكنها الان ليست خبرا بل أنا جزء منها، أنا احدى الكائنات تلك،بل ابني ايضا الذي ألغى كل

الاسماء والصور،التي ماعدت ابالي لها،بل صرت ابحث عنه عن صورته بين تلك الجموع.فاودعت كل قوتي صرخة اردتها ان تهد كل ذلك الصمت،ان تصله ليسمعها ويأتي راكضا ليطمأني.

ـ ابني كمال،هل هو هنا ام أُخذ لمستشفى اخر؟ثم قلت بتوسل "هل ممكن ان أبحث عنه بين المرضى.. يا الهي،هل آتي بعد كل هذا العمر لأتسبب بأذيته.

ـ اهدأي قليلا لقد فقدت دماءا كثيرة ولا يمكنك الوقوف،خذي اشربي كأس الماء،سأبحث عنه أنا، انتظري قليلا..قبلها لابد أن اعرف ما حصل بموضوع الدم،لابد من تعويضك ما فقدت.

صياح من كل جانب،لم استطع ان أبقي الممرضة معي.انتابتني ارتعاشة وبرد لا أدري من اين مصدره، فالجو ساخن."يا رب ارجو ان تكون اصابته بسيطة.. ما كان يجب ان آخذه معي..كان المفروض أن أسمع كلام أمي..لقد تعجلت،طول عمرك هكذا،لا تتروين.. تستعجلين الامور وكأن هناك من يركض خلفك.. اللعنة" ورحت ابكي بصوت واهن ضعيف، شعرت بخوف أن

يغمي علي ولا ادري ما الذي سيحصل بعدها.لابد ان أبقى صاحية لأجد كمال،ماذا سأقول لأمي كيف ستسامحني؟.لكن فجأة رأيت كل شئ مضببا،وسقطت على الارض بعد ان صار كل شئ حالك السواد.

لا اعرف كيف صرت في سرير آخر، لا يختلف عن الاول،بفراشه المغلف جلدا داكن اللون بلا شرشف، قد يكون السبب شحة الشراشف أو لكي تبدو لون الدماء مرعبة.مازالت الرؤيا مضببة،لكني لاحظت أني الآن بغرفة واسعة وفيها مجموعة من الاسرة،لم أميز الوانها التي اختلطت.تشترك كلها بنفس الفراش الداكن وبلا شراشف أيضا!

هناك كيس للمغذي معلقا يرتبط نهاية خيطه بكفي. شعرت بجفاف بحلقي لدرجة انطباق شفتي ببعضهما. بكيت بصوت ضعيف لا يقوى لان يسمعه من بقربي استجمعت قواي كلها لأصرخ "كمال.صادق، أمي.." أهو الموت؟أريد ان أراهم، أن اودعهم، أن أعتذر لهم.تناءت لي اصوات كأنها بعيدة.

"ها هي هنا الحمد لله انها حية" التفت،كانت هناك فتاة رُبط رأسها ويدها بشاش دامي.شعرت أني اعرفها، لابد

اني رأيتها في منزل علاء.منحتني رؤياها بعض القوة فصحت بها "ابني كمال..هل تعرفيه" هبت نحوي باكية.

–الحمد لله على سلامتك.أنا سمية،بنت ام سهيل سلمت عليك يوم وصولكم.

كدت أصرخ بها،ليس هذا وقت تعارف،اريد أن تخبرني كل شئ.هنا أتت مجموعة عرفت منها أخي وزوج أختي وبعض اقربائي ومعهم أبن اخو علاء.

أحاطوا بالسرير وهم يمنعوني من الجلوس "ما الذي حصل،أين كمال هل عرفتم شيئا عنه؟".عانقني أخي وهو يبكي.

– إنه..جريح،المهم ارتاحي الان و لا تجهدي نفسك.. سأحاول أن انقلك لمستشفى آخر.ثم ابتعد فجأة وراح بعيدا وهو يهمس بصوت باك "سأكلم الطبيب".التفت لسمية.

– أين أنا،كيف علاء وأهله،من هم اؤلئك الذين..هل بينهم وبين أهل علاء ثأر؟

جلست على الارض وهي تبكي.

- البقية بحياتك..أخوه إصابته خطيرة،وراح الكثير من المعزين الذين بعضهم جاء ليسلم على علاء،ولا يعرف عن وفاة امه..

قاطعتها بحدة.

- علاء.. استشهد؟ يا الهي،هل أنت متأكدة.

اقترب مني زوج اختي وهو يهمس طالبا مني أن ارتاح.ثم طلب من سمية ان تأتيني بكأس ماء.شربت الماء وطلبت كأسا اخرى،في هذه اللحظة أستعدت صورة علاء وهو يأخذ ابني معه ليجلس معه في الصوان.سقط الكأس مني "كمال كان مع علاء..أين هو؟ خذني اليه.ارجوك بسرعة اريد ان أراه الان".

عانقتني سمية،وأقبل أخي صوبي،وهو يضم كفي بيديه.

- سترينه..الآن هو نائم،أخذ إبرة مخدرة..يريد أن يراك قوية،ستأتي سيارة الاسعاف لنأخذك لمستشفى اخر.

- هل هو في المستشفى الاخر؟ خذني بسرعة اذن.

هنا اتى الطبيب،برفقة اخرين من أهل سمية وأهل علاء،سلموا على ,ثم يبكون "لقد حكى لنا علاء عنك

وعن ابنك.انا نعتذر عما حصل ما ذنبكم انتم،نحن تعودنا على هذا الحال..اما أنتم..".

– آسفين ياجماعة..البقية بحياتكم،لابد أن نأخذها الان لمستشفى قريب من البيت.قال أخي ذلك بسرعة وهو يسندني مع الممرضة.

مرابع الطفولة

وقصور مشيدة حوت الخير......واخرى خوت فهن قفار

قس بن ساعدة الايادي



تذكرت صباحات العيد في ماضي الزمان حين كنا صغار،نصحو نفاجأ بأيدينا وقد تغير لونها!قبل النوم تطلى بالحنة ويغلفوها بقطعة قماش لكي لا تتبعثر الحناء على الفراش بعد جفافها،نتطلع لذلك اللون الجميل بالنكهة اللذيذة فنعرف أنه العيد.رائحة الكليجة (كعك العيد) تغمر الدار وأمي أو عمتي تخبزها بالتنور،نمتلأ بالفرح كما تملأ الجرار بالماء، نتقافز كعصافير الربيع بللها الندى،على السجاد الذي لا يفرش الا للمناسبات،نمرر ايدينا الصغيرة على الصوف الناعم بألوانه الزاهية ولا نتوقف عن الحركة كأننا دمى مكوكية.إنتابني ذلك الاحساس ونحن نكمل اجراءات السفر، كنت فرحة مثل الاطفال صباح أول يوم العيد،ولكنه فرح مصحوب بشئ من الخوف فلم أفلح بإقناع ليلى لتأجيل الأمر لذا صممت أن اذهب معها.

خفق قلبي بشكل يكاد ينط من بين قضبان القفص ونحن نحط في مطار عمان الصغير.الموظف يتأملني باستنكار لأني تحدثت معه عربيا وأحمل لقبا أجنبيا؟أزداد إرتباكا لإستقبال ابن خالتي بسيارته الفارهة،لقد تركته

صغيرا حين رحلنا،لا يتجاوز عمره الخامسة،كنت أحبه واحمله كل الوقت الذي أكون معهم، ربما كان يعوضني عن الأخ الذي أفتقد.

لم أستطع تفسير برودة استقباله لي في بداية الأمر، مقابل لهفتي لهم وشوقي الكبير، الا لأنه يستحي منا او لأنه ماعاد يتذكرني.اردت أن أجامله بابداء إعجابي بسيارته،فعرفت أنها لرب العمل الذي يشتغل عنده.لم انتبه للطريق من المطار للمدينة،الشوارع رغم نظافتها كانت مغبرة،ولكن ذكرتني بعض منازلها ببعض منازل بغداد قبل سنين.قال انها شميساني حيث يسكن التاجر الذي يشتغل معه،سيمر ليسلمه بعض الاغراض،انها منطقة التجار والاغنياء.لكن مكانهم يختلف ولاعلاقة له بما أرى،ومازال الطريق طويلا لهناك. ثم انسجم بحوار مع ليلى.كنت متعلقة بخالتي بعد رحيل أمي التي توفت بعد ولادة أخي الوحيد،والذي لحق بها بعد شهور قليلة،كان عمري لايتجاوز الخامسة.ولكني مازلت اذكر وجهها فتيا باسما،ربما هي صورتها التي وضعتها بين كتبي فيما بعد وصرت كلما أفتقدها اتحاور معها من خلال تلك الصورة.بعد سنة،ابتهجت لمرأى أغراض جديدة ملأت الدار افرشة بألوان زاهية وبملمس ناعم،لم

أعرف وقتها لمن ولم أعرف لماذا لم تكن خالتي فرحة مثل الجميع!

هللت فرحا حين عرفت أنهم يهيئون لحفلة زواج أبي. فأصرت خالتي أن تأخذني معها للبيت لكني رفضت "اريد أن احضر الحفلة" فعانقتني وبكت بحرقة وهي تقبلني وصارت توصي عمتي بي.كنت سعيدة بتلك المرأة التي تزوجها أبي،كانت شابة جميلة ومرحة وكنت أحتج حين أسمع من يقول عنها صغيرة "انها أكبر مني" فيضحك الجميع مني.لم أكن أعرف وقتها لماذا اصرت على الانتقال لبيت آخر بعيد عن بيت عمتي وخالتي.وأبي أيدها بالامر بالرغم من اعتراض عمتي وهمسها بإذنه.

في المدرسة نادتني المدرسة يوما واخذتني لغرفة المعلمات،خفت انها ستضربني لأني نسيت كتابي مرة اخرى أو لأني لم أمشط شعري!لكني فوجئت بخالتي هناك،عانقتني وبكت مرة اخرى،شعرت بفرح غامر فقد اشتقت لها.جلست بجانبها وانا اتطلع للمعلمة بخوف لكني شعرت بإطمأنان حين ابتسمت لي لأول مرة، وعادت تصغي لخالتي بحزن بان على ملامحها الصارمة.

توقفت السيارة ونزل حيدر ليسلم الأغراض لرب العمل.عانقتني ليلى،غير مصدقة أننا وصلنا أول الطريق.في عينيها نظرة إمتنان ولمعان دمعة اختلط بها الفرح والقلق.مسحت على شعري،فاحتضنت يداها لأطمئنها.تأملت الشارع أعادتني لمستها لسنوات خلت فصرت أسمع صوت أبي كأنه يهمس لي،غاضبا،كما فوجئت به يومها "لماذا لا تستيقظي مبكرة وتسرحي شعرك وتحضرين دروسك بنفسك، صرت كبيرة الان، أم تريدين خدما يغسلون شعرك ويكوون ملابسك؟"

عرفت أن المدرسة نادته لتسأله عن سبب إهمالي لدروسي ولمظهري.فكان غضبه لأن زوجته كانت حامل أو هكذا أوهمته ولاتقدر على الاهتمام بي،بل عليّ أن أساعدها.

فصرت أقوم بمعظم عمل البيت من كنس الدار وغسل الصحون،وأصحو مبكرا لأغسل شعري وأسرحه كيفما اتفق، فرحة بانتظار الأخ الموعود.وصلنا دار خالتي اخيرا، الذي كان عبارة عن شقة بين مجموعة شقق بنيت بشكل عشوائي على مرتفع جبلي تطلعت،

كيف يمكنهم الصعود بلا مدرج؟يتسلقون صخورا لم يعبأ أحدا بتشذيبها ليسهل تسلقها، بعضها سهلا وواطئ لكن الاخرى مرتفعة ولابد من مساعدة من صعد قبلك ليسحب يداك!ذكرتني بحلم قديم.لم انساه.رأيتني اتسلق سلالم غريبة لأصل حيث صديقاتي،حتى وصلت احداها كانت عالية جدا ولم تنفع بها الأيدي التي كانت ممدودة لي.فسّر الحلم حين نجحت في كل الدروس ما عدا واحدا،اعدت السنة الدراسية بسببه.وقتها كانت زوجة ابي مريضة،أجهضت حملها الثاني ولاتريد الذهاب للمستشفى فبقيت أرعاها وابي الذي كان حزينا جدا لها.تذكرت همس بعض النسوة،من أنها لم تكن حامل.وأنها كانت عاقر لكنها تمثيلية كما قلن،لا أعرف مدى صحة ماقلناه.

دخلنا دار خالتي بعد جهد ليستقبلنا خليط من روائح، بكيت وأنا أحتضن خالتي التي رأيتها متعبة وتضاعف الزمن عليها وأرهقها المرض.تأملت سكناهم كدت اصرخ وانا أتذكر بيتهم الكبير بحديقته الواسعة التي كنت لاأمل من اللعب بها حتى لو كنت وحدي.غرفتان والتواليت لايفصله عن المطبخ سوى ستارة.على ارض

المطبخ اختلطت مياه الصرف التي كانت تنبع كلما نشفوها مما جعل الروائح لا تطاق مهما حاولوا التخفيف منها بالبخور أو بعض المعطرات.

صاحب الدار لا يهمه سوى إستلام الايجار في بداية كل شهر.الحسنة الوحيدة انه رخيص كما ذكروا لي،لم يكن رخيصا قياسا لعملة البلد وللمستوى المعيشي لكنه إستغلال لمحنة أهلنا جعل البعض يعتصر الناس ويبتزهم لآخر قطرة من عرقهم او دمائهم.حين هُجّرنا كنت أحسد خالتي لأن زوجها لم يشمله التهجير حيث لم يكن تبعية مثلنا.بقيت زمنا متحيرة من هذا التعبير الذي كان سببا باقتلاعنا من مرابع طفولتنا وفصلنا عن أقربائنا وأصدقاءنا وذكرياتنا،بل البعض حرم حتى من أبنائهم ممن تجاوزوا الثامنة عشر من العمر وزجوا في السجون لا لسبب،وأنما خوفا من أن يلتحقوا بالجيش الايراني الذي كان أغلبه من الشباب الصغار.بعد توقف الحرب لبضعة شهور كنا نحلم أن تعتذر السلطة عن تلك الجريمة، ويسمحوا لمن بقي في ايران بالعودة ولو للبدأ من الصفر.لكنهم ادخلوا كل الشعب في أتون حرب

اخرى أبشع لتشمل الهجرة الاف اخرى من الذين لم يجدوا حلا سوى الرحيل،بعد تواصل الحروب والحصار الذي قضى على كل أمل لهم بالخلاص.فباعوا املاكهم وكل مالديهم ليرحلوا ابنائهم الكبار لاوربا.

وهاهم ينتظرون الفرج للحاق بهم إسوة بالاخرين ممن يتأملون الرحيل لعالم آخر فيه شئ من الأمان والانسانية. عالم يحلمون به ويستنكروه ويخافوه أحيانا لكنه صار لهم املا وحيدا بعد أن شوهت عوالمهم وصارت تزحف نحو هاوية لايعرف قرارها.عرفت من خالتي أن الكثير استنكروا زواجي من أجنبي بالرغم من إسلامه،ربما كان ذلك احد أسباب برودة استقبال ابنها لي."لكم دينكم ولي ديني" ضحك كثيرا حين قلت له ذلك يوم خطبتنا،بعد ان طرح علي فكرة تبنيه أو دخوله الدين الاسلامي. إعترضت وقتها،كنت مازلت بفورة الغضب من كل الذين استغلوا الدين وسيلة لاذلال الاخر.ألم نكن مسلمين؟لماذا تشردنا وطردنا من بلدنا الذي أحببناه وحملنا جنسيته ولم نكن نعرف سواه؟بين ليلة وضحاها صرنا أجانب ونفينا بلا سبب.

احتوى كفي وهو يحاول تهدئتي وأكد أن اسلامه ليس فقط بسبب حبه لي بقدر استيعابه لروح الدين ولا علاقة بمافعله او يفعله البعض بأسم الدين.

عرفت بعدها ان الحرية التي يتمتعون بها تجعلهم يفكرون بكل شئ ويجربون كل شئ بلا خوف ولا تردد، فليس هناك من يسميهم المرتدين ويحلل دمائهم!

دائما يؤكد "أن الله هو الحق، أو المعرفة وانا اريد التعرف على كل أو بعض الطرق للوصول لذلك الحق ولتلك المعرفة، الطرق التي منحها الله للبشر".

كم أحببته وقتها وهو يشرح فلسفته بالدين والحياة بلغة عربية ركيكة، كان يجيد الفارسية التي لم أكن اتقنها مثله.كنت في حيرة من أمري،هل أواصل الدراسة هنا أم ابحث عن عمل؟وعرفت أن كل شئ بثمنه في البلد الذي اُتهمنا بالانتماء له.فالعمل لمن لديه معارف، والدراسة والعلاج كلها بفلوس.تعرفت عليه بعد أن ضاقت بي السبل واهتديت لمنظمة الصليب الاحمر التي كانت هناك لمساعدة اللاجئين.كان أبي قد مرض بعد رحلة التعب

والقهر،والمستشفيات الإيرانية لا تستقبل مرضانا الا بعد دفع اجرة كنت أراها كبيرة قياسا بالقليل الذي لدينا.ولم أكن اعرف ما يمكن أن أعمله،وبيت عمتي الكبرى الذين هجروا بعدنا،استقروا في مدينة بعيدة بمئات الاميال.

فلجأت لتلك المنظمة بعد سوء حالته.

دخلت منفعلة وأنا أصرخ بهم وهم يحاولوا تهدئتي، كنت خائفة أن يرحل أبي ويتركني لوحدي!

لم يؤلمه رحيلنا وسيرنا المسافات الطويلة بالطريق الموحل في ذلك البرد القارس،بقدر ما آلمه رفض زوجته مصاحبته وطلبها الطلاق.وان كان ذلك الأمر الوحيد الذي أسعدني وسط تلك المتاهة، لكنه احبها وتعلق بها.

كانت المدرسة بعيدة عن بيتنا وقريبة من بيت خالتي فكنت أمضي معهم اغلب أيام الاسبوع.بعد أن صرت لا أطيق العيش مع زوجة أبي،بالرغم من أني في فترة ما صرت اناديها "أمي".لكن سلوكها مع أبي واستغلالها لحبه وتعلقه بها،جعلني استثقل حتى مناداتها باسمها.لا أذكر متى صار يحظر لها الفطور وهي في سريرها يأخذه لها

قبل ذهابه للعمل.ثم فوجئت به يوما يغسل ملابسها بيده بعد عودته من العمل،مبررا تعبها وضرورة تعاونه معها.صرت أتوسل به أن أغسلها انا والدمعة تكاد تفر من عيني حزنا وغضبا.لم أقل له انها كل النهار لم تعمل سوى زيارة الجيران أو أقربائها.

كم كنت أشعر بالغضب حين لاحظت ازدياد دلعها واهمالها له كلما زاد هو اهتماما بها.

فقد سمعتها يوما تحادث جارتنا التي تدعوها كثيرا لشرب الشاي وهي تقول بتحسر "أنا أحتقر الرجل الذي يطيع زوجته ويسمع كلامها،فالزوج لابد أن يكون مهابا مخيفا،لا تجرؤ الزوجة على رفض طلبا له ولا يمكنها أن تأمره الا اذا كان ضعيف الشخصية".كلمت عمتي أن تنصحه ولو بشكل غير مباشر.لكنه واصل الأمر متهماً إيانا بالغيرة منها،بعد أن صارت تتمارض بين الحين والحين.حرصت وقتها ان أمضي أغلب الوقت في دار خالتي،كنت اشعر هناك بحرية وراحة وكأني بين أهلي،خاصة وقد خصصوا لي غرفة فيها كل ما أحتاج وأريد.

عدت في ذلك اليوم،دخلت الشارع الذي كان على غير العادة خاليا من المارة أو الاطفال.إحساس بالوحشة انتابني،هدوء غير مالوف اعتدت على صخب الاطفال ولعبهم طول النهار خارج البيوت الضيقة القريبة من البستان في مدينة الحرية، ووقوف النسوة بالباب لحوارات صغيرة مع الجيران!مما كان يسبب لي حرجا وانا الحظ العيون تتبعني واحيانا تبادرني بالسلام.

في ذلك اليوم.خرج القليل لدى رؤيتي،عزوت الأمر وقتئذ الى غيابي الطويل،ثم انتابني قلق أن يكون أبي بمشكلة فأسرعت نحو الدار. م اصدق عيني وأنا أرى الباب مقفل وهناك شمع احمر يغطي قفله! فصرت أهزه وأصيح على أبي أن يفتح الدار.هبّت بعض النسوة نحوي لتهدئتي!.

تسائلتُ،فعانقتني (أم حسين) وهي تهمس"الله لاينطيهم، ماذا سيخسرون لو انتظروها لترحل معه.."فصرخت بأعلى صوتي فزعا "ماذا تقصدين؟" فهمت منهم وسط اللغط والصياح ان أبي سّفر مع مجموعة من العوائل، وزوجته الان عند أهلها!دارت عيناي بين الوجوه المحيطة بي،أستنجد بهم واستنكر ما يقولوه بنفس الوقت

لأنه بدا لي ليس له .أي معنى وغير منطقي.أو لعلي اكتشف أنه ليس اكثر من كابوس من تلك التي ترعبني. لكن أيديهم التي كانت تربت على كتفي أو تعانقني،كانت كأنها تصفعني لكي أعرف أني بصحوي وان مايجري هو الواقع.شعرت وكأني في صحراء،اختفى الكل فجأة، انتابني خوف لم أعرفه من قبل،خوف طفل من الضياع بعد ان أفلت يد أمه في سوق مزدحم!

صارت الأرض كأنها تميد بي وأحسست بقدماي تخذلاني فأتهاوى على البلاط ثم ادخل بنوبة بكاء لم اسيطر عليها الا بعد أن دخلت بيت جارتنا.قدموا لي الطعام والعصير فلم استسغ غير الماء.بعد أن هدأت قررت العودة لبيت خالتي،لعلهم يوصلوني لأبي الذي لابد أنه قلق علي.لابد أنه يشعر بنفس شعوري بالوحدة والغربة.لماذا لم يتصلوا ببيت خالتي؟لماذا لم تتصل زوجته؟أي قسوة حلت على الجميع؟شعرت وقتها بحقد على الكل. بالرغم من معرفتي بعدم وجود تلفونات في ذلك الوقت.اقترح ابن الجار أن يتصل بأحد المسؤولين ليعرف بأي معتقل وضع ابي.عرفت أن البعض يضعوهم في البداية في المعتقلات أو السجون لتهيئتهم لسبل الترحيل.

استعدت الألم الذي شعرته وقتها وكأن الامر حصل قريبا،حتى شعرت بتقلص في معدتي،فهرعت للحمام وقد انتابتني حالة غثيان فهبوا جميعا حتى ابن خالتي لمساعدتي،فسّرت ليلى الأمر انه تعب السفر والقلق.

تركوا غرفة النوم الوحيدة لأنام هناك،صرت اتطلع للجدران المتآكلة ومرت ذكرى دارهم.ثم صارت الروائح كأنها تهاجمني،كأني أشمها بكل جسدي لا بأنفي فقط فطردت النوم عني.اصواتهم من خارج الغرفة تأتيني واهنة، لابد انهم يحاولون الحديث بهدوء حتى لا يصحوني.صرت أفتعل النوم كلما جاء ليزورها .مع أن هناك وخزات تنغزني وانا أسمع همسهم كل الوقت.

لاحظت أنه صار يزورها في أوقات وجود أبي في العمل!فصرت اتعمد البقاء في البيت حين تمادت بإلحاحها علي بشكل فاضح أن أزور خالتي "اراك متضايقة،معك حق كل شئ يدعو للملل هنا..لماذا لا تزورين خالتك مضى زمن لم تذهبي لهم لابد انهم افتقدوك الان".تمنيت أن أصرخ بها أن أفضح سلوكها لكني كنت أضغط على أعصابي لأجيب باقتضاب مؤذي "شكرا لاهتمامك، عندي امتحان".

هي تعرف جيدا اني وقت الامتحانات .أحرص أن أذهب لبيت خالتي،فمع اولادها أجدني أدرس بشغف وتركيز.لكنني كنت على علم بنواياها وكم أرعبتني تلك المعرفة.يقال أن المعرفة مفتاح للسعادة،ولكنها احيانا مفتاح لأبواب التعاسة كلها خاصة اذا كنت بلا حول ولا قوة.أعرف أنه قريبها وزوج صديقتها،وحين لاحظتْ تضايق أبي منه وتساؤله عن سبب تكرار زياراته، إدّعت أن له مشاكل مع زوجته ولكونها صديقتها جاء يستنجد بها.عرفت عنوان صديقتها فكتبت لها رسالة مقتضبة،اذا كانت حريصة على زوجها وبيتها لابد أن تهتم به وأن لاتدعه يزور أقربائه او صديقتها بدونها! ووقعتها باسم فاعل خير.كم فرحت وأنا أراه مصاحبا زوجته في آخر زيارة له.

فقد تأكدت أن رسالتي وصلت،وازداد فرحي وأنا أرى الارتباك على وجهها ووجهه.لا ادري متى نمت، حين صحوت كانت الشمس قد غربت واصوات عديدة لم اميزها صرت اسمعها. فرحت وانا اجد بعض الاقرباء الذين سمعوا بوصولنا جاءوا لزيارتنا فإستعدت أيام زمان وزياراتهم لنا بالمناسبات.شعرت ليلى بارتياح لوجودي معها،فقد لمحت بعض الاحراج على ملامحها،من

وجودها لوحدها معهم،لكني أعرفها اجتماعية بطبعها وتنسجم بسرعة مع الناس.كانت قد وفرت علي الكثير قد حكت لهم عني وعن زوجي –ستيوارت براون– او ستار كما ينادوه بعض من جماعتنا. قالت لهم انه غير أسمه بعد إسلامه ولكن بقي أسم العائلة لايمكن تغييره.

صرت أقول لهم،أن أعلن اسلامه أو لم يعلن فهو خير من عشرات من ذوي اللحى والعمائم من المتأسلمين. فالدين خلق وتعامل ومحبة بين الناس أجمعين.لمست ليلى يدي لأخفف من حدة انفعالي،لكني لم أستطع الا أن أواصل خطبتي متحاملة على كل الحاقدين على الحياة من الذين يدفعون الشباب للانتحار وهم يتمتعون بمثنى وثلاث من الزوجات ويدعون الزهد بالحياة الدنيا.

يحرضون الشباب على كره الحياة بالرغم انها هبة ونعمة من الله والحقد عليها كفر والحاد،ولا علاقة له بالزهد.كان انفعالي خليط من الفرح والحزن والتعب وشئ من الغضب.

– وانت بهذه الآراء،كيف سنطمئن عليك؟وسط تلك الفوضى وكل واحد يحمل سلاحه ليقتل عامي شامي. علقت خالتي بخوف وقلق.

فاقترح البعض منهم أن نبقى معهم ولا نغامر ونكتفي بالرحلة الى هنا ولانواصل الدخول الى بغداد.لاحظت انفعال ليلى فقالت بحزن واصرار:

- لابد من الذهاب،لابد ان أرى أهلي وإبني..اطمأن عليهم. وبامكان نداء أن تبقى هنا تنتظرني بعض الوقت ثم تعود لبيتها واولادها.

مسكت يدها وقلت اطمأنها:

- سأكون معك لاخر المشوار.

لم يبق لي من الاقرباء الكثير فقد هجر أغلبهم،ماعدا احدى عماتي التي أحببتها كثيرا بمستوى حبي لخالتي، مازالت هناك،لم يرحلوهم كباقي الأقرباء لأن زوجها غريب كما يقولون عنه،أي من غير عشيرة ولم يكن تبعية.اصرت متلهفة لرؤياها هي واولادها،زوجها سمعت انه توفي بالمرض الخبيث الذي صار منتشرا هناك خاصة بعد الحصار الذي كان اقسى من الحرب عليهم. صارت عندي قناعة أن ذلك المرض، اعوذ بالله، له علاقة بالوضع النفسي اكثر من الوراثة حسب مايقوله العلماء.لهفتي لرؤياهم جعلتني أستعجل لحظة الرحيل، حتى كدت أن ألح على ليلى.ثم وجدت نفسي اطلب من

زوج خالتي المساعدة في الموضوع بعد أن قال انه يعرف بعض السواق الذين يسافرون لبغداد.كثير ما يبعث معهم رسائل أو نقود لأهله أو اصدقاءه بعد أن اختفت دائرة البريد والبنك،وعدنا لعصور ما قبل التاريخ!

كل الطريق كنت مثل الصغار يستعجلون الوصول، أغلف انفعالي بالإستماع للسائق وليلى،أو بالتقاط بعض الصور وانا أتخيل نفسي أشرح لأولادي عنها.تركتني ليلى بعد وصولنا دار عمتي،كانت قد دخلت معي لتسلم عليهم والسائق ينتظرها في الخارج،عانقتهم وهي تبكي كما لو كانوا أهلها،اما أنا فكنت فرحة برؤياهم فتناءت كل الدموع كما لو كان الفرح ريحا ازاحت غيوم الدمع.لكني أحسست باحراج وأنا ارى دموع عمتي وابنتها.لماذا نبكي احيانا على موضوع لايستحق البكاء،وتغافلنا الدموع وتبعد حين نحتاجها حقا.جلست وسطهم لا أعرف من أين ابدأ، يعرفون بعض اخبارنا.

اذن لأسمع منهم. تمنيت لو أن ليلى لم تتركني، فهي تعرف كيف تدير الحديث بلباقة وسلاسة،ربما هو صوتها الجميل أو هي ثقافتها. تمنيت لو اني ذهبت معها.

لماذا هذا الاحساس بالغربة، التي أراها الان مجسدة اكثر؟اي قدر هذا الذي يجعلك غريبا في كل موطئ قدم!

أول غربة كانت حين تركت بيت طفولتي في الوشاش،وابتعدت عن حي عمتي وأقربائي الذين كانوا في كل شارع من حينا.كان شارعنا وكأنه عائلة واحدة، لم استثقل تلبية طلبات الجارات ومساعدتهن بشراء الخبز أو بعض مايحتجنه،كلما رأينني عائدة من المدرسة أو ذاهبة لبيت عمتي.حين رحلنا للحرية شعرت وكأن أيامي أغصان بلا جذور مزروعة بأرض جاهزة للرحيل.قبل التسفير كما أسموه، شعرت بغربة وأنا بين أهلي وأقراني وزميلاتي.كنت كما لو أن لي لغة اخرى اتردد من استخدامها،فاكتفي بالاستماع لهم،لا حوارات بيننا ولم أقدر أن اشاطرهم حديثهم عن السينما والافلام التلفزيونية.فلم اذهب للسينما سوى مرة واحدة،شكرا لخطيبة أبن خالتي،التي أصرت أن لاتذهب معه لوحدها فدعانا انا وأختها.لم افكر أن اذهب لتلك الأماكن لوحدي، ولا حتى بالاحلام.والحقيقة انه لاتجرؤ أي فتاة على الخروج الا مع مجموعة من الاخوة والاقرباء.فحتى لو

ذهبت مع قريبها او أخوها ستسمع من التعليقات الوقحة والعبارات النابية الاستفزازية الكثير مما قد يخرب يومها كله.هذا اذا كانوا محظوظين ولم يستوقفهم شرطي غبي يحقق معهم،عن علاقته بتلك الفتاة وما الذي يثبت انها أخته او زوجته او خطيبته!.ثم صارت الغربة تتضخم وكأنها وحش يبتلعك فتختفي كل الاصوات المؤنسة وكل الوجوه المحببة،لتحل محلها اشباح الخوف والقلق مع الوجوه التي تشعر انها لا تفهمك ولا أنت تفهمها.فكانت الغربة كما لو انها زورقا بلا مجداف،في بحر لاحدود له تتلاطم أمواجه،فيتنائى الكلام وقد داهمه الخوف، ليحل محله صمت، تلذعنا أسياطه مع كل التفاتة.بعد الترحيل، أصبحت أنت الغربة بذاتها غربة بقدمين وعينين تبحثان عن مستقر لها.

صرتُ كأنني أركض مسرعة لعلي أصل.لا لمكان محدد،فقط أصل لأتخلص من حمل وهمي يثقل كتفي.يزداد ثقلا كلما أرى في بعض العيون حقدا وكرها وكأننا نحن السبب بما حل بهم من حرب وخراب!بعد سنوات عذرتهم،فالفقر والخوف يجعلان الانسان بعيدا

عن انسانيته،يجرّانه ليعودا به للغابة من جديد،فيحتل الشوارع شبح (الصراع من أجل البقاء)،فتتأكد انك لم تخرج من الغابة،فمازال القوي يأكل الضعيف،بل وبأسلوب أكثر جشعا من الضباع ومن الأسود والنمور. ولكن بدل المخالب هناك شوكة وسكين،وهناك مائدة تفرش بالزهور لتستطعم طعم الفريسة.

ومع الغربة أيضا عرفت حينها ماذا يعني أن تنتظر "على جمر النار".فبعد نهاية عقد ستيوارت،توسلت اليه أن لايجدده،لأعود معه لاهله ووطنه،لعلي احظى هناك بفسحة من الشعور بالاستقرار،من الاحساس بالوطن ولو مستعار،بمكان أحط به الرحال أنفض به كل حمولتي، أجمع به ذكرياتي،أحتفظ بها لاولادي.لذا تملكني الفرح أكثر منه،بل عانقته طويلا وأنا أشعر بالانفعال يتملكني، حين أخبرني عن عزمه للعودة للوطن.ضحكت كما لو لم أضحك من قبل،ابتسم حينها وهو يهدأني "الوضع هناك فيه الكثير من الاشكالات يجب أن تحتاطي وتتهيأي لها..ولو أن أهلي سيرحبون بك، بل هم ينتظرون اللقاء بك بفارغ الصبر".في الاسابيع الاولى غمرني الفرح وغطى على الخجل والتردد في الحوارات معهم بلغتي

الركيكة.لكني بعدها عرفت فقر لغتي،صرت مثل الطفل الذي يتعلم اللغة لأول مرة، ويتردد من نطق الكلمات الا بعد التأكد من سلامة لفظها حتى لايعرض نفسه للسخرية.فقد عرفت أن ستيوارت أخترع لغة سهلة وبسيطة من أجلي فاعتقدت ان تلك هي اللغة الانكليزية "لماذا كنا معقدين من درس الانكليزي،اذكر أن الامتحان باللغة الانكليزية كان أصعب كابوس يمر بي..لو حظينا بأستاذ مثلك لصرنا نتحدث الانكليزية مثلكم تماما".

بعدها صرت أتجنب الحوارات الطويلة مع أهله لئلا يضطروا لاعادة السؤال أو التعليق مرات لكي أفهم مايقولون،أو خوف أن يكون مثل حوار الطرشان "لماذا لايتحدثون بطريقته؟"أتسائل وانا أعرف أن معرفته بالعربية والفارسية هي التي جعلت من لغته سهلة بالنسبة لي.مجئ الاولاد كان انقاذا.ولكن بعد تخطيهم عتبة البيت وذهابهم للمدرسة،اقترب أنا من السير مجددا بطريق الغربة التي أخافها،وأنا أراهم يتخطون عالمي ويبعدون عنه وعني."حاولي أن لا تحكي معهم بغير العربية والا ستصعب عليهم في الكبر".قال ذلك هامسا حين لاحظ استغلالي لتفوقهم وسرعة تعلمهم ليسعفوا لغتي.كنت أحاول أن أتحدث معهم بالانكليزي فقط لأقوي لغتي،

كنت أتحمل ضحكهم وهم يصلحوا لي طريقة اللفظ في البداية حين كنت اتابع بعض دروسهم او اقرأ لهم بعض القصص الاولية.لكني صرت أشعر بغضب منهم،فأنهال عليهم توبيخا كلما علّقوا أو صححوا خطأي بسخرية.

لذا ما أن يستغني عني أحدهم حتى أفكر بانجاب طفل آخر، يجدد احساسي بالحياة، او احساسي بأن هناك من يحتاجني،وهو ما يبعد أشباح الغربة عني.

"ياعزيزتي،لا اريد فريق كرة قدم،ولابد أن نفكر بإسعاد ما لدينا من الاولاد وتوفير حياة لابأس بها لهم، فالوضع الاقتصادي كما ترين متعب..كذلك يجب ان تهتمي بصحتك،فكل طفل يأخذ من قوتك وعمرك الكثير..".قال بغضب حين عرف حملي بأبني الرابع،ثم تابع بشئ من الهدوء."بدلا من تحقيق ما كنت تطمحين له من دراسة أو عمل،صرت تفكرين بالانجاب دون التفكير بالنتائج".غضبت منه وقتها،تصورت انه سيفرح وهو الذي أوحى لي أنه يحب الاطفال لدرجة العبادة."ماذا تعني؟هل تريد ان أسقطه؟أنت تعرف أني حرمت من الاخوة،تعرف مدى حبي للصغار،ثم أن اولادنا كبروا، فما المانع من إنجاب آخر ليسليني ويخفف عني وحدتي"

وصرت ابكي.عانقني وهو يحاول تهدأتي "لا يمكن ان أطلب منك التخلص من الحمل،مستحيل،لكن الطفل كائن له مسؤولياته والتي زادت في الوقت الحالي بشكل مرهق،فلا اريد أن ترهقي نفسك..أما التسلية فممكن أن تتسلي بشئ أكثر جدوى لك ولأولادنا،وأقل ضررا على صحتك.عديني أن يكون هذا اخر العنقود،وبعدها لابد أن تركزي على الدراسة لعل ذلك يساعدك بالحصول على عمل،صدقيني ستشعرين بقيمة كل لحظة وكل يوم".

– ها بماذا تفكرين؟ لابد انك تفتقدين الاولاد وابوهم.

قالت عبير ابنة عمتي وهي تعانقني،ثم اقترحت أن نخرج لزيارة بعض الأقرباء بسيارة زوجها.

– اريد أن نذهب بالباص.

– الباص؟تسائلتْ وصارت تضحك بطريقة وكأنها ترثي لحالي.

– أي نعم، الباص! اشتقت لسيرها مثل السلحفاة.قلت بانفعال طفولي.ثم التفتّ أخاطب عمتي واولادها الاخرين

– في احدى المرات اشتريت رواية لنجيب محفوظ، كنت ذاهبة لبيت زميلتي أعيد لها كتابها،فمررت على

مكتبة وكانت تلك أول مرة اشتري بها كتاب..اذكر انها كانت رواية قصيرة، لكرنك، وبدأت قرائتها في الباص، التي ركبتها من الصالحية فاكملتها بوصولي ساحة خمسة وخمسين في مدينة الثورة التي كانت زميلتي تسكنها.. بالرغم أن المسافة الفروض لا تستغرق اكثر من ساعة في اسوأ الاحوال..لذا اريد أن أصعد بها الان أستعيد تلك الذكريات. قلت ذلك كما لو كنت أتوسل بهم.

– أنت تحكين عن زمن بالنسبة لنا صار بعيدا،أبعد من القرون الوسطى.لا وجود لهذه الباصات،لقد انقرضت،بعد أن كنا نشكو منها ونتذمر من بطئها الان نتحسر عليها انقرضت انقراض أحلامنا وأمانينا.أجاب زوج عبير وفي صوته غصة.

– لكنها إنقرضت ليس من أجل الأصلح كما في قوانين الطبيعة،بل لتعيدنا لعصور ما قبل الباص!لقد تضائلت من سنين وبعد الحصار صارت شحيحة ولا يركبها الا الذين لا يريدون الوصول للبيت الا في ساعة متأخرة،او الذين وضعهم لا يسمح باستخدام وسيلة أخرى للنقل، فلم تكن هناك أي صيانة ولا اهتمام فتركت هكذا

لعوامل الزمن تتكفل بها..ثم بعد الحرب الاخيرة والاحتلال وسقوط التماثيل.. سرقها بعضهم،أو بالأحرى استولوا عليها وغيروا لونها وشغلوها لصالحهم وحسب مشيئتهم.كانوا يحكون عن الأمر بسخرية مصحوبة بأسف وابتسامة على الشفاه كأنهم يطبقون المثل في "شر البلية مايضحك"،لم يظهر عليهم أي مما شعرته،فلم تكن هناك الدهشة ولا الرعب الذي تملكني وانا اسمعهم. كانت صفعة اخرى هزت إناء الذكريات ليتناثر بعضها فأشعر بخوف من ضياع ما تبعثر.لم أكن أحب تلك الباصات لا القديمة منها ولا الأحدث التي دخلت لبغداد في السبعينات،التي كان يمنع بها الوقوف،وخصصت للاماكن الراقية والتي معضم سكانها بغنى عنها.اذكر كيف كان بعض الركاب يتوسلون بالسماح لهم بالوقوف بسبب تأخرهم،لكن السائق يصر أن لا يتحرك الا بعد نزول الراكب الذي لامكان لجلوسه "أخي ارجوك لقد تأخرت ولا مجال لانتظار الباص التالية".

"خذ تاكسي" يرد السائق بحنق .

"لو معي ما أدفعه للتاكسي لما تحملت لؤمك" يصرخ به الراكب الذي ينزل مجبرا ففي الحالتين هو متأخر.

"ماذنبي أنا، في كل مرة أتحمل العقوبة وقطع راتب بسبب هذا الراكب أو ذاك، أحيانا لا أستلم منه غير بضع دنانير".

يتكرر المشهد كثيرا خاصة في الصباح. بينما الاخرى القديمة يتراص بها الركاب حتى البعض يتشبث ببابها الخلفي يتدلى جسمه للخارج.لم أحبها الا لدى رؤيتها في لندن،استعدت بها ذكرياتنا هناك،دهشت وأنا أجد القديمة صامدة بل تعمل بنشاط.في لندن يسمح الوقوف بالطراز الحديث بلا تحديد،أما القديمة لايسمح الا بخمسة أشخاص وقوفا،حفاظا على سلامة الركاب.على عكس ما كان معمول به لدينا في ذلك الزمن!فما الذي أرادوه من تلك التعليمات التي حتما لم يكن لها علاقة بسلامة الركاب؟.صرت أحن لها لذكرياتنا وقتها على ما فيها من قرف وخيبات مريرة.أحنّ لها،ماضٍ أفتقده،لأنها جزء من ذلك العمر.فقد مضيت السنوات أنتظر لحظة لقياه،لألتقي ببعض من طفولتي،ببعض من الصبا،لعلي أجده في الطرقات أو في الشوارع التي كنت اقطعها بذهابي للمدرسة. فبغداد بلا باصات لا حمراء ولا خضراء، هي ليست بغداد التي

لعوامل الزمن تتكفل بها..ثم. بعد الحرب الاخيرة والاحتلال وسقوط التماثيل.. سرقها بعضهم،أو بالأحرى استولوا عليها وغيروا لونها وشغلوها لصالحهم وحسب مشيئتهم.كانوا يحكون عن الأمر بسخرية مصحوبة بأسف وابتسامة على الشفاه كأنهم يطبقون المثل في "شر البلية مايضحك"،لم يظهر عليهم أي مما شعرته،فلم تكن هناك الدهشة ولا الرعب الذي تملكني وانا اسمعهم. كانت صفعة اخرى هزت إناء الذكريات ليتناثر بعضها فأشعر بخوف من ضياع ما تبعثر.لم أكن أحب تلك الباصات لا القديمة منها ولا الأحدث التي دخلت لبغداد في السبعينات،التي كان يمنع بها الوقوف،وخصصت للاماكن الراقية والتي معظم سكانها بغنى عنها.اذكر كيف كان بعض الركاب يتوسلون بالسماح لهم بالوقوف بسبب تأخرهم،لكن السائق يصر أن لا يتحرك الا بعد نزول الراكب الذي لامكان لجلوسه "أخي ارجوك لقد تأخرت ولا مجال لانتظار الباص التالية".

"خذ تاكسي" يرد السائق بحنق .

"لو معي ما أدفعه للتاكسي لما تحملت لؤمك" يصرخ به الراكب الذي ينزل مجبرا ففي الحالتين هو متأخر.

"ماذنبي أنا، في كل مرة أتحمل العقوبة وقطع راتب بسبب هذا الراكب أو ذاك، أحيانا لا أستلم منه غير بضع دنانير".

يتكرر المشهد كثيرا خاصة في الصباح. بينما الاخرى القديمة يتراص بها الركاب حتى البعض يتشبث ببابها الخلفي يتدلى جسمه للخارج.لم أحبها الا لدى رؤيتها في لندن،استعدت بها ذكرياتنا هناك،دهشت وأنا أجد القديمة صامدة بل تعمل بنشاط.في لندن يسمح الوقوف بالطراز الحديث بلا تحديد،أما القديمة لايسمح الا بخمسة أشخاص وقوفا،حفاظا على سلامة الركاب.على عكس ما كان معمول به لدينا في ذلك الزمن!فما الذي أرادوه من تلك التعليمات التي حتما لم يكن لها علاقة بسلامة الركاب؟.صرت أحن لها لذكرياتنا وقتها على ما فيها من قرف وخيبات مريرة.أحنّ لها،ماضٍ أفتقده،لأنها جزء من ذلك العمر.فقد مضيت السنوات أنتظر لحظة لقياه،لألتقي ببعض من طفولتي،ببعض من الصبا،لعلي أجده في الطرقات أو في الشوارع التي كنت اقطعها بذهابي للمدرسة. فبغداد بلا باصات لا حمراء ولا خضراء، هي ليست بغداد التي

عشتها،أو كأن هناك من قطع جزئا منها.إنها الغربة تطل من زاوية اخرى،لم تكتف بمحاصرة كل الزوايا.فصارت غبارا يغطي على كل الذكريات.انت الان بطرانة بالنسبة لهم ويرون فيك الملكة انطوانيت،التي تحث على أكل الكيك اذا لم يكن هناك خبزا!انظري،لا تغمضي عينيك،هي الغربة تتبعك كظلك اينما حللت.حينها بكيت بصمت مع ان هناك عويلا مدويا بداخلي.تطلعت لي عبير متعاطفة معي،عانقتني ثم ضحكت وهي تحاول أن تغير الموضوع أو ارادت ان تهون الصورة.

– هذه بسيطة،الناس هنا إستغنت مرغمة عن تلك الخدمات من زمن بعيد.لكن ماذا تقولي لو اخبرتك عن سرقة سيارات الإسعاف؟صاروا يستخدموها كشاحنة لنقل السلع التي يبيعوها،من اثاث وغيره،بدون حتى يغيروا لونها اويصبغوها؟.

– الحمد لله انهم لم يصبغوها،والا ما كان بمقدور المسؤولين استعادتها.

قبل ان أعلق صاحت بهم عمتي..

– كفى لاترعبوها من أول يوم،على كيفكم.ثم التفت لي وهي تبتسم " أنها الحرب يا عزيزتي،حيث تظهر كل

العفاريت وتفتح كل البالوعات لتتجول أشباح الفوضى والجرائم بحرية بلا رادع..لكن لابد للوضع من نهاية، ويعود الهدوء والأمان يوما،وينصلح حال الناس.

– على فكرة لم تقل عمتي شعرا،فعلا كل البالوعات الان مفتوحة،بعد أن سرقوا أغطيتها الحديدية.قال زوج عبير ضاحكا وكأنه يحكي نكتة.

لم أعلق وقد بهتتت الكلمات وتنائت كغيوم بعثرتها الريح،ما الذي ممكن قوله.تبعتهم حيث عبير كانت تجري أمامنا صوب السيارة.

– سنريك كل شئ،هناك اشياء جميلة،الأمر ليس بهذا السوء.فمقابل تلك الصور هناك ناس كثير لديهم احساس بالمسؤولية ولم يستغلوا الفوضى بل بالعكس،اتخذوا على عاتقهم وبمبادرة شخصية تنظيم المرور وتنظيف الشوارع،وحماية المستشفيات والمدارس.

– شئ مرعب حقا أن يصل التخلف والجشع بالناس لحد سرقة المستشفيات والاماكن التي تخصهم وتخص أبنائهم.علقت بغضب.

– لاتنسي سنين من حالة الخوف والرعب والحروب وما خلفته،جعلت الناس اكثر جهلا وتخلفا،والبسطاء

. ينظرون لكل المؤسسات الخدمية وكأنها ملك الدولة التي يحقدوا عليها والتي كأن بينها وبينهم ثأر لما فعلته بهم.. فتلك ردة فعلهم وكأنهم يثأروا منها،وبالحقيقة سلوكهم هذا يتحكم به الجهل والفقر وقلة الوعي.

– انهم يثأرون من أنفسهم دون ان يشعروا،وهنا تكمن الخطورة.

أخرجت الكاميرا لأصور بعض الشوارع التي مررنا بها فصاحت بي عبير "ضمّيها، خبيها"!

– لماذا؟ هل ممنوع التصوير؟

– لا ولكن لانريد لفت إنتباه بعض المجرمين الذين تكاثروا مثل الجراد،فلو يروا كاميرتك سيعرفون انك أجنبية،أي بزيارة هنا وتكونين صيدا سهلا أما للسرقة او الاختطاف.رميتها بجانبي وغطيتها بالشال الذي جلبته معي.هل هذا معقول؟بلى،لقد سمعت عن تلك الأمور!يا الهي لا أريد أن أكون سببا بتوريطهم بمكروه.

– لنعد إذن لا داعي للتجوال.قلت أقترح عليهم العودة.وقد تملّكني الخوف ولم تعد بي رغبة برؤية أي شئ.

– لا تقلقي ليس الامر بهذه الصورة،انظري الناس تعيش حياتها.حاول زوج عبير أن يطمئنني وهو يدخل شارع المغرب،الشارع الوحيد الذي شعرت بارتياح لرؤياه، شارع واسع وعلى جانبيه مشاتل ومباني حديثة. "انتظري قليلا لنذهب معا، بعد أن يستتب الأمن وتهدأ الامور.صدقيني أنا مثلك أشعر بحماس للذهاب،بل أشعر أن من واجبي أن أكون هناك لتقديم المساعدة،على الاقل اشعر بقيمة ما افعله.أعرف أنه بلدك وانك تنتظري تلك اللحظة من سنين طويلة،وهناك اقربائك واصدقائك، لكن الأمر فيه خطورة ومغامرة لا داع لها" كان قلقا وهو يسمع أخبار الاختطاف والقتل العشوائي.شعرت بخوف وبنفس الوقت بإصرار،لم أشأ ان أبدو جبانة وقد وعدت ليلى بمرافقتها مهما يكن.عانقته وانا اضحك.

"الله..حقا إفتقدت تلك المشاعر،أحبك وأنت تخاف علي..اطمأن لن يحصل لي شئ،أنا أؤمن أن كل واحد يروح بيومه،هل تضمن أني لن أموت لو بقيت..سأعود واذكرك بكلامي.وحتما سنذهب معا،لابد ان نذهب لنتعرف على ذلك الشعب الطيب،فهو لا يستحق كل ذلك

الظلم والعذاب،لابد ان ترى ذلك البلد الجميل،مهد الحضارات الذي يستحق كل الحب والاهتمام".

لم أتمالك نفسي صرت أبكي وأنا اداري وجهي لكن عبير لمحتني فطلبت من زوجها أن يوقف السيارة قرب صريفة من قصب يستظل بها بائع للرقي.

- اشتري لنا رقيتان، لابد أن نداء بشوق للرقي .

نزل هو فعانقتني وهي تعتذر،ضمت رأسي لصدرها فلم أملك حينها الا أن أروح بنوبة بكاء "لماذا تعتذرين، ليس ذنبك ولا ذنب أحد انه ذنب الذين لم يحفلوا لا بالوطن ولا بالناس".ضحكت وهي تسأل لتغير الموضوع.

- قولي لي،هل صحيح أن الرقي موجود صيفا وشتاءا عندكم؟كيف؟

- الفواكه عموما موجودة بكل الفصول،أجمل شئ هنا ان كل شئ بفصله.لكن هناك أغلب الفواكه مستوردة أو مزروعة بحقول زجاجية.ما عدا الرقي،فهو قليل وإن وجد بالشتاء، فانه بلا طعم.

في الصباح حين استيقظت والشمس تملا أركان الغرفة بالرغم من إغلاق الستائر،اعتقدت ان الساعة العاشرة او ربما هو الظهر،فاذا بها لا تتجاوز السابعة صباحا.عمتي في المطبخ عانقتها مستغربة.

– لماذ تستيقظون مبكرين؟.. ضحكت.

– هنا الوقت غير شكل،الحياة صارت تختلف، كل الوقت نركض حتى المساء لنكون متعبين تماما،خاصة بعد مشكلة الحصار والحصة والكهرباء.

فعقبت بشرود:

– الحياة هنا كما أذكرها كان لها معنى،ربما للأمل الذي كنا نعيشه.هناك بعد ان كبر الاولاد،يخرجوا مع زوجي لمدارسهم،فاواصل النوم حتى الحادية عشر أو اكثر..انهض مجبرة لطبخ الغداء او تنظيف البيت.كنت اشعر بإكتئاب وأنا أماطل يومي واصارع الساعات بالنوم.قلت ذلك وانا اتطلع للحديقة الصغيرة التي لوحتها الشمس فبدت أوراق أشجارها والياسمين باهتة الخضرة. جريت لأسقيها وأغسل الاوراق،ففاحت رائحة الياسمين قوية منعشة،قطعت غصنا ووضعته بقدح من الماء. "سآخذ هذا الغصن معي لأزرعه هناك".

حاولت الاتصال بليلى،وقد غضبتُ لأنها لم تتصل بي، ولم تفكر بي.ها هو أسبوع مر دون كلمة منها، ولكني لابد ان أراها، فلم يبق غير إسبوع واحد وأعود.

حاولت أن أتجنب مشاهدة التلفزيون والاخبار التي تكرر مشاهد الانفجارات والقتل والدماء،التي صارت تزحف كغيوم سوداء تحجب بقايا أمل وحلم أن آتي بأولادي وزوجي لزيارة أرض أمهم وأجدادها.

اثناء تقليب أبن عمتي الصغير للتلفزيون،فرحا بكثرة القنوات التلفزيونية بعد السماح لهم بشراء صحن الفضائيات الذي كان ممنوعا ومن يجدوه متلبس بالجريمة يتعرض للسجن والغرامة بل ربما الاعدام في بعض الحالات!سعيد بالتخلص من قناة عدي وما يفرض بها من برامج كئيبة تستفز الذوق،او تتابع خطب وتجوال القائد في الدائرة الضيقة التي خطت له.فلم يرسُ على قناة،لكني خلالها لمحت وجهها!فصحت به أن يعيد القناة، فلمحتها تتحدث للصحفي الذي يتنقل بين مجموعة نساء، ولمحت أسمها متبوع بصفة (ناشطة من أجل حقوق المرأة) انتهت اللقطة،ولم أسمع ما قالته.إنها هي لم يتغير وجهها كثيرا،مازالت جميلة وصغيرة.لم يكن هناك جديد

غير غطاء الرأس الذي منحها بضع سنين لعمرها. تطلعت لي عمتي.

- هل عرفتيها؟.. والله شاطرة، ذاكرتك ماشاء الله.

- بلى عرفتها،وهي لم تتغير كثيرا الله يبارك،وكأن لا علاقة لها بحصار ولا بحروب،ولكن ماعلاقتها بالنشاط النسوي؟.

- وسط هذه الفوضى،الكل صار ناشطا،لا نشطا المهم ان يكون له نصيب من الكعكة،التي لم يُبق منها السابقون غير فتافيت.علق ابن عمتي ساخرا.

- المشكلة في السابقين،مازالوا هم المسيطرين على الساحة،فكل ما يقال لا معنى له بالنسبة لهم.هم الان في كل مكان ولكن ببزة جديدة،يغيروها حسب الطلب.عقبت عمتي بحماس وسخرية ثم تابعت "أتعرفين انها بعد رحيلكم تزوجت تاجرا حزبيا،انتمت بعدها للاتحاد النسوي،وكانت حسب ماقيل نشطة طبعا من ناحية التقارير التي تكتبها ضد هذا او ذاك،فلا اطفال يشغلوها ولا متاعب تعطلها.الان زوجها صار عضوا بحزب ديني له سطوته (المعتادة) فلابد أن يكون لها نشاطها هي ايضا.

شعرت باختناق.

- لابأس ان يكون لكل واحد دوره،ولكن ليس على حساب الاخر والناس والمصلحة العامة،ما هذه الانانية؟ فلا اعتقد أن نشاطاتهم هذه تتعلق بحرص أو شعور بالمسؤولية، بقدر صلتها بحالة الطمع والادمان عليه.. فماالذي فعلوه،غير جلب المصائب للناس؟.ولا يفكروا أن يتركوا الأمر لغيرهم ليجربوا قدراتهم على الأقل..مازال تفكيرهم لايخرج عن نطاق ما سيخسروه او يربحوه من مبالغ..قطعت الحديث برنين التلفون،وقد هلل الكل له بعد إنقطاع لبضع أيام،كأنه متضامن مع الكهرباء والماء بالانقطاع المتواصل.

- إنه لك..هذه ام سماح.ناداني ابن عمتي.أسرعت باتجاهه.لم أتوقع ام سماح أن تتصل بي.فقد أوحت لي اني لن أرها فيما بعد خاصة وقد لمحت انها ستبقى لبضعة شهور.ما الذي دعاها لتكلمني "بنت حلال حقا". لابد أن أكلّم ليلى لأعرف ماسر صمتها المريب.

- انا آسفة اخت نداء،أنا في منطقتك الان،لكني لا أعرف العنوان،لابد أن أراك الان.

- طبعا اهلا وسهلا.. انها مفاجأة رائعة حقا.

- شكرا لمشاعرك، أنت طيبة حقا..ا..ارجو ان تهيئي نفسك لاخذك ونزور ليلى معا.

لكي لا أطيل عليها، اعطيت التلفون لابن عمتي ليعطيها العنوان ويصف لهم الطريق.

كان صوتها حزينا بل أنا متأكدة من أنها كانت تبكي. ياساتر.ما الحكاية؟ يا الهي،هل حصل مكروه لليلى؟

بلى..لابد أن الأمر يخص ليلى، لماذا تريدني أن أهيئ نفسي بلا مقدمات؟ لوكان الامر طبيعيا لأقترحت ذلك بعد وصولها.

- عمتي أنا خائفة أن يكون قد حصل شئ،ان تكون ليلى مريضة أو لا أدري صرخت فزعة،وصرت استغفر الله وأدعوه أن يخيب ظنوني.

- اهدأي قليلا..بعد لحظات ستكون هنا ونفهم منها الامر، قد تكون مريضة وصوتها يوحي بالحزن.

- لو كانت مريضة،لما فكرت أن تزورني أو تزور ليلى.لا لابد أن الأمر أخطر من المرض.

مرت الدقائق ببطء كما لو كانت شهورا.مرت بذهني أن ليلى أصيبت بإحدى التفجيرات،أعرف انها لم تفكر أن تستكن،تريد ان ترى كل شئ.أو.لا يا ربي لا سمح الله، قتلت! "اعوذ بالله من افكارك السوداوية".شربت بضع كؤوس من الماء،لا عطشا بل شربته لأرطب شفتي اللتين جفتا برياح الافكار العاتية التي سيطرت علي طوال الدقائق التي تمطت وتطاولت كما لو انها لن تنتهي.بقيت بالحديقة أتطلع من بابها الحديدي للسيارات القليلة المارة من هناك.

ليتني سألتها عن لون سيارتهم.هممت بالدخول بعد يأسي،واذا بجرس الباب يفزعني برنينه.الحمد لله كانت ام سماح ورجل يكبرها قليلا،لابد أنه أخوها.كانت عيناها متورمان،سلّمت بصمت على عمتي واولادها،وحين عانقتني بكت وقد احسست بجسدها يختض.هي صموتة لكن هذا البكاء لابد أن.."ارجوك قولي،ما الذي حصل لليلى؟" سألت قبل ان تجلس وقد نفذ صبري.

– تفضلوا دعيهم،يجلسون ويستريحون أولا.قالت عمتي تخاطبني ثم طلبت من ابنها أن يجلب كؤوس من العصير والماء.

تطلعت لها أنتظر بخوف ماستقوله،تمنيت للحظات أن تصمت أن لا تقول شيئا،كيف سأواجه خبر ليلى،أعز صديقاتي،ما الذي سأقوله لزوجها؟ لماذا لم يحصل لي أنا شيئا وهي تذهب..

- هل ليلى.. قولي، هل قتلت؟

هنا تطلعت لي بخوف،ثم تحدثت بصوت متعب خافت.

- لا الحمد لله أنها بخير الان،أصيبت بشظية أثر الانفجار.

- انفجار؟كيف وأين؟تطلعت للوجوه لعلهم ينجدوني ويقولوا لي ان هذا كابوس.

- حكت لنا ام سماح عن علاقتكما،وعن إصرارك أن ترافقيها بالرغم من الظرف الصعب،هذا الموقف يدلل على انها تستحق كل الاحترام والحب.

تحدث اخوها بمحاولة ربما ليعطيها فرصة للهدوء. أمسكت بيدي واجلستني بجانبها.

- اتصلت بي قبل أيام لاذهب معها لنعزي علاء، ذكرت انها لم تستطع مكالمتك بسبب عطل بالخطوط،

اعتذرت لها على أمل أن نذهب لاحقا معا..كنت حزينة ومكتئبة.بل كنت لا أطيق رؤية أحدا.الان أشعر بالذنب. صمتت لتشرب من كأس الماء.ثم اشعلت سيجارتها.

- لماذا تشعرين بالذنب؟أمرك عجيب،انه قدرنا،كل منا لايعرف متى ينال نصيبه من حفل القتل العشوائي هذا.قال أخوها بعصبية.فعلقت عمتي بألم.

- قد يصاب المرء وهو ذاهب لشراء الخبز أو زيارة صديق هل يعني اننا كلنا لابد أن نشعر بالذنب.ليس ذنبك ولا ذنبها،انه ذنب الكلاب المجرمين الذين يترصدون مثل هذه الفرص ليشبعوا غريزة القتل لديهم،والدبابات الامريكية تمر منهم دون ضرر،كأنهما متفقين.اللعنة عليهم جميعا وعلى من كان السبب بمجيئهم.علقت عمتي غاضبة وهي ذاهبة للمطبخ.

- المهم احكيلي ما الذي حصل،هل هي في البيت الان ام في المستشفى.

- انها في البيت.حين لم تتصل بي،اعتقدت انها زعلت مني،فاتصلت عدة مرات دون جدوى فالخط مشغول،فقلت لابد انهم اصدقائها والاقرباء،ولكني بالأمس

صممت أن أواصل المحاولات،حتى حصلتهم،فردت أختها او زوجة أخيها،كانت تبكي..ثم حكت عن المأساة.. كانت ذهبت مع السائق ابو زينب وابنها الذي أصر أن يذهب معها.فاذا بسيارة لإنتحاري فجرها وسط صيوان العزاء.لا يعرفوا العدد الحقيقي للضحايا.

كان صوتها مخنوق ببكاء لم تستطع أن تكتمه اكثر فبكت وهي تحكي عن إستشهاد علاء وبعض اقربائه، وناس أغراب كانوا مارين بالعزاء.حتى السائق اصابته بليغة،ولم يقدروا ان يبلغوا ليلى بموت ابنها.كانت حالتها صعبة،فادعوا انه مصاب ولكن أمام اصرارها لرؤيته، خاصة بعد أن عرفت بما حصل لعلاء،لم يملكوا الا أن يخبروها.بلا شعور ضربت وجهي بكلتا يدي وصرخت،"كمال" وأنا أتذكر صوره التي لا تكف عن التطلع لها وهي تريني اياها بفرح وفخر.

- ما يؤلمني هو حديثها طوال الرحلة عنه وخوفها عليه.وقلقها من حلمها،هل تذكرين كيف كانت مرعوبة؟

كانت ام سماح تتحدث وهي تفرك يديها ببعضهما والدموع تتساقط من عينيها على حجرها وأخيها يحيط كتفها بذراعيه.

اعتذرت لها على أمل أن نذهب لاحقا معا..كنت حزينة ومكتئبة.بل كنت لا أطيق رؤية أحدا.الان أشعر بالذنب. صمتت لتشرب من كأس الماء.ثم اشعلت سيجارتها.

- لماذا تشعرين بالذنب؟أمرك عجيب،انه قدرنا،كل منا لايعرف متى ينال نصيبه من حفل القتل العشوائي هذا.قال أخوها بعصبية.فعلقت عمتي بألم.

- قد يصاب المرء وهو ذاهب لشراء الخبز أو زيارة صديق هل يعني اننا كلنا لابد أن نشعر بالذنب.ليس ذنبك ولا ذنبها،انه ذنب الكلاب المجرمين الذين يترصدون مثل هذه الفرص ليشبعوا غريزة القتل لديهم،والدبابات الامريكية تمر منهم دون ضرر،كأنهما متفقين.اللعنة عليهم جميعا وعلى من كان السبب بمجيئهم.علقت عمتي غاضبة وهي ذاهبة للمطبخ.

- المهم احكيلي ما الذي حصل،هل هي في البيت الان ام في المستشفى.

- انها في البيت.حين لم تتصل بي،اعتقدت انها زعلت مني،فاتصلت عدة مرات دون جدوى فالخط مشغول،فقلت لابد انهم اصدقائها والاقرباء،ولكني بالأمس

صممت أن أواصل المحاولات،حتى حصلتهم،فردت أختها او زوجة أخيها،كانت تبكي..ثم حكت عن المأساة.. كانت ذهبت مع السائق ابو زينب وابنها الذي أصر أن يذهب معها.فاذا بسيارة لإنتحاري فجرها وسط صيوان العزاء.لا يعرفوا العدد الحقيقي للضحايا.

كان صوتها مخنوق ببكاء لم تستطع أن تكتمه اكثر فبكت وهي تحكي عن إستشهاد علاء وبعض اقربائه، وناس أغراب كانوا مارين بالعزاء.حتى السائق اصابته بليغة،ولم يقدروا ان يبلغوا ليلى بموت ابنها.كانت حالتها صعبة،فادعوا انه مصاب ولكن أمام اصرارها لرؤيته، خاصة بعد أن عرفت بما حصل لعلاء،لم يملكوا الا أن يخبروها.بلا شعور ضربت وجهي بكلتا يدي وصرخت،"كمال" وأنا أتذكر صوره التي لا تكف عن التطلع لها وهي تريني اياها بفرح وفخر.

- ما يؤلمني هو حديثها طوال الرحلة عنه وخوفها عليه.وقلقها من حلمها،هل تذكرين كيف كانت مرعوبة؟

كانت ام سماح تتحدث وهي تفرك يديها ببعضهما والدموع تتساقط من عينيها على حجرها وأخيها يحيط كتفها بذراعيه.

- هل نقدر أن نذهب الان لا أقدر ان أنتظر،لابد أنها منهارة الان،الله يعينها.قلت ذلك وأنا أهم بالخروج قبلهم لكن عمتي ركضت خلفي بعبائتها وشال اسود لا لبسهما وهي تعانقني.

- الله يحرسكم،ابنتهوا للطريق.

- لا ادري ما الذي ممكن أن نعمله،لابد من طريقة لتهدئتها.فأهلها يقولون أنها لم تنطق بحرف منذ لحظة معرفتها،او بالحقيقة تأكدها،لأنهم يقولون كانت وكأنها تعرف لكنها أبعدت ذلك التفكير.

كانت تتطلع لي بحيرة،عانقتها وبكيت لم يخطر أن اسألها عن وضعها هي.

- لابد أن أقنعها أن تعود معي.فلم يعد هناك سبب لبقائها.

- كيف تسافر وهي بهذه الحال، أمها.أيضا مريضة فقد اصيبت بجلطة بعد سماعها الخبر.

علق أمير الذي كان يجلس مع السائق الذي عرفت انه قريبهم.

– هل من المعقول أن الصدمة أثرت على نطقها، وشلت عصب ما،لاسمح الله.يا الهي انها لاتستحق ذلك ابدا.

– لاحد يستحق تلك المصائب.لكني أعتقد ان صمتها هو محاولة للانتحار.لمواجهة كارثة لم تستوعبها وحزن غير متوقع،أو هو إحتجاجا.المصيبة أكبر من حجم توقاعاتها،فالبكاء أو الصراخ لا يكفي فهي تبكي وتتألم للاخرين.لكن هذا ابنها.الذي كانت كل الوقت تتحدث عنه.عودتها كانت لأجله قبل أي شئ.وهي من النوع الذي يخاف الصمت،فكيف بها أن تصمت وهي بهذه الحال!.

– وأبوه؟أين هو هل عرف بالأمر؟قد يقدر هو التخفيف عنها.

تطلعنا لبعضنا،لم نقو على الجواب.كما لو كانت هناك صخرة تسد منافذ التفكير والنطق،بل هي صرخة تكاد تكسر صندوق القلب،وتخرج عارية للفضاء.

– الصلاة هي الحل،فهي من تجلب لها الأمان والسكينة حين تؤمن أن أبنها يسكن السموات،ملاكا طاهرا لم تدنسه الحياة.أول مرة يتدخل السائق، قريبهم

بالحوار،تبع إقتراحه بعض الآيات،أيده أخوها "بلى هذا أفضل حل لحالتها الان..".

لماذا لم يؤجل انتقاله للسماء حتى تشبع من رؤياه، حتى تعتذر له عن الغياب؟أخفيت وجهي بالشال وبكيت بصمت ولكني خرجت عن صمتي حين وضعت أم سماح يدها على كتفي ورحت أبكي بصوت مسموع لم أستطع السيطرة عليه.توقفنا للتفتيش من قبل شباب مسلحين يحرسون بداية الشارع،تطلعوا لنا من نافذة السيارة وسمحوا لنا بالدخول وهم يعتذرون "آسفين.لابد من ذلك لحماية أهل الفقيد ومن يعزيهم بعد أن صارت المأتم هدفا للسفلة من انتحاريين او مجرمين حاقدين".

- خير ماتفعلون،بل الحقيقة لابد من التفتيش الدقيق، فلا تدري بأي قناع يختفون.شجعهم أمير أخو ام سماح.

شعرت بارتباك وقد طرد الخوف دموعي،خفت أن لا أبكي أمامها،أن أبدو صلفة لا أبالي.انها بحاجة لمن يشجعها على البكاء.صوت القرآن يتنائى كأنه بعيد شملني بالخوف والخشوع والحزن.

- السلام عليكم.سلمت ام سماح فالتفتن النسوة وهن يردن السلام.نهضت أحداهن تستقبلنا،لابد أنها زوجة أخو ليلى، تذكرت وجهها من الصور التي أرتني اياها ليلى قبل مجيئنا.

- هذه ام سماح رفيقتنا بالسفر.أين ليلى؟سألت بخوف وقلق.

تصاعد بكاء ونحيب بعض النسوة،لابد ان لكل واحدة منهن خزين من آلآم ومصائب.بقينا واقفات لا يمكن الانتظار اكثر اريد أن أرى ليلى الان.

- آسفة أنها نائمة الان اعطاها الدكتور قريبنا حقنة مهدئة فلم تنم لحظة،ولم تتكلم ايضا.ثم قدمت لنا القهوة التي اتت بها احدى الفتيات.ثم تابعت "لقد اتصلنا بزوجها والمفروض أن يصل غدا".

- ابو المرحوم؟تسائلت ام سماح بارتباك وببراءة.

- لا زوجها ابو صادق.فكامل لا نعرف له قرار. اعطينا خبر لأقربائه.ثم اشارت لإحدى النسوة كانت تبكي وتتهامس مع جليستها "هذه اخت كامل،عمة

المرحوم،جاءت بالأمس.مسكينة كانت صدمة كبيرة عليها".

انتبهت لجدته تتمدد على السرير في الصالة وهي تحتضن صورة،لابد أنها صورته،مشيت صوبها وتبعتني ام سماح لنسلم عليها.

همست إحدى النساء شيئا بأذن منال،زوجة اخو ليلى. فالتفتت لنا "انها صاحية الان..تفضلوا".

تبعناها وتصاعدت نبضات قلبي،ما الذي ممكن قوله. هالني منظرها،أنها ليست ليلى التي عرفتها!وجهها شاحب،يزيده شحوب الشاش الابيض الذي لف رأسها، عيناها تنظران للمجهول،وكتفها ضمدت بطبقات من الشاش ايضا.ركعت على الارض بجانبها ولمست يداها فإنهار الدمع مني "ليلى.آسفة ياعمري.آسفة"هذه ام سماح. فسحت المجال لام سماح لتسلم عليها،كانت تعتذر لها بشدة "ليلى.انه قدر ياعزيزتي،هناك الالاف من الامهات مثلك،هو قدر شعبا لا نعرف كيف نفسره" ثم إنهارت بالبكاء. كنت انتظر صرخة ليلى، بكائها، لكني خفت من صمتها من تأملها لنا، وكأنها تتحدانا بأنها لن تبكي. فهمست منال بإذن ام سماح.

- أنها مرهقة الصدمة كبيرة..لاتقو على البكاء.

- لابد ان تبكي،عدم بكائها اصرار على الموت.. عزلتها خطأ بهذه الغرفة،خذوها مع النسوة لتتعرف على ما مررن به قد يهوّن ذلك عليها.

أيدتُ ام سماح باقتراحها،حقا لابد من نقلها هناك.

ساعدناها على حمل ليلى التي استسلمت لنا وكأنها مغيبة عن الوجود.فوجئت النسوة وفسحن المجال لها، وقد تعالى بكائهن.صرخت إحداهن فلمحنا ليلى قد اغمي عليها ووجهها صار ليمونيا.ركضنا بالماء وبعضنا بماء الكولونيا.عانقتها أخت كامل وهي تنتحب،وتعتذر بنفس الوقت،عيناها متورمتان.حين افاقت، لمس بعضهم كتفها المصاب خطأ لكنها لم تصرخ،بل أكتفت باغماضة عينيها ألما!صحت بلا وعي "ليلى.

"ام سماح على حق،إنها تصر على الاحتفاظ بسموم الالم والدموع لنفسها.تذكرت كلام البعض الذين يدّعون ان البكاء والجزع حرام!أي قسوة تلك التي تدفع البعض لتحريم البكاء على الميت!

ثم لاحظت أم ليلى وهي تحاول النهوض، فركضت أم سماح لمساعدتها مع امرأة اخرى،فذهبت لابنتها تحاول أن تهدئها او بالأحرى لعلها تفتح ذلك الجرح لاخراج السموم منه.أغمضت ليلى عينيها وهي تهمس "سامحيني يا أمي،أنا السبب.أخذته منك." لم اسمع الباقي فقد اختفى صوتها تماما وتعالى تنفسها حتى أصابنا هلع "يابنتي،لا تفعلي ذلك بنفسك،لا تقتليني مرتين بفقدك.".أنحنت ليلى على يد مها تقبلها بكل ما اوتيت من قوة.حتى أغمي عليها مرة اخرى.

فاقترحت بعض النسوة أن نعيدها لغرفتها،لم تعد تحتمل إغماءة اخرى.بقيت أمها تضع يد على فمها وأخرى تضرب بها فخذها ورأسها يتمايل شمالا ويمينا وسط نحيب النسوة.

- أنا اسفة.أعتذرت ام سماح ثم تابعت"اعتقدت أن وجودها مع النسوة سيجعلها تفك الحصار عن نفسها وتبكي.لكنها مصرة..".

قاطعتها احدى القريبات.

- إنها عنيدة وقوية،لا يمكن ان تتأثر بسهولة،الله يعينها ويصبرها،لو لم تكن قوية لأصيبت بالجنون.لم

ترض بعض النسوة عن ماقالته ونظرن اليها شزرا أن تسكت.

همست أم سماح بأذني."انا سأضطر للذهاب الآن،هل أنت باقية؟" لمست كفها.

- بلى سأبقى هنا اليوم،لعلي أقدر أن أكلمها.اشكرك حقا، واعتذر لك ولأخوك عن التعب.

- ماهذا الكلام؟أنه أقل شئ ممكن عمله،لولا الضيوف الذين أتو من أجلي لبقيت معك.المهم سآتي غدا باذن الله.

ثم حيث الموجودين ورحلت.بعدها عاودني احساسي بالغربة،لا أعرف احدا هنا،فكانت بالرغم من عدم معرفتي بها كانت أقربهم لي.وعلاء "ايها المسكين أي قدر هذا الذي كان يتربص بنا"وكأنه أستكثر عليه صموده بوجه الزمن كل تلك السنين.تذكرت وجهه لم اقدر أن أميز مشاعره هل كان خائفا، قلقا؟ هل كان ينتظر العودة لوطن الغربة، بعد ان تصدمه غربة الوطن!

شبكت يداي ببعضهما لا أدري ما افعل بهما،وانا اتطلع للوجوه "آه أيتها المرأة..كم أحتملت وكم تحتملين..

وجوه جميلة بالرغم من الحزن والقهر،ربما ذاك الجمال تحديا للزمن،ذاك البريق بالعيون هو اصرارا على الحياة قبل أن يكون دمعا.

- تسمحين أروح عند ليلى؟سألت منال،صارت هي الوحيدة التي اقدر أخاطبها ثم تذكرت ان اسألها "هل ممكن ان أبقى اليوم هنا؟". ابتسمت وهي تعانقني.

- طبعا.هل هذا كلام؟أنت عزيزة علينا،فقد حدثتنا ليلى عنك.حتى انها كانت قلقة،لأنك لم تهاتفيها.ثم فاجأتني بسؤال.

- هل تقعتقدي أن زوجها أبو صادق سيقنعها لتعود معه؟ انت تعرفيهم جيدا حسب ماعرفت.

- طبعا اعرفهم،انهم أعز أصدقائنا.هو أنسان رائع، ويحبها بشكل كبير،ولكن لاأعرف ان كان سيقدر على إقناعها بالعودة وأخذها معه،لابد أن تذهب معه،فهي بحاجة لعناية شديدة.لاحظتِ كم هي مستسلمة لكل اقتراح منا.

هدأ صوت البكاء،واختلطت الأحاديث بين النسوة، بعضهن ذهب،وجئن أخريات،حتى صار المكان مزدحما،

لدرجة أن البعض منهن أنتقل للرواق وقد افترشن بعض السجاد.كان واضحا أن منال متعبة جدا.جلست بجانبي على الأرض وهي تتطلع بقلق صوب ليلى.

"ليتنا لم نأت هنا، ليتنا أجلنا الزيارة.ولكن ماجدوى الكلام الان.لابد ان أؤجل عودتي،لعلي أسافر معهم.حتى السائق المسكين لحقه الأذى بسببنا؟ما الذي فعلناه لنستحق مايجري؟هل المشاعر الانسانية،والتضامن مع الاخر تكون سببا لنقتل ونعذب؟ لكنه زمن اللامعقول".

تلك الحوارات زادتني غربة وحيرة.تمنيت لو أذهب الان،لو هناك سفينة سحرية تنقلني لأولادي في الحال. لكن بعدها شعرت بجوع وانا أشم رائحة الأكل،وهم يهيئون العشاء،تذكرت أني لم آكل شيئا منذ قهوة الصباح.لكني لم أذق غير بضع ملاعق من المرق،كان كل شئ مرا حتى الماء.

قضيت الليل أتقلب،شاركتنا الغرفة بعض النسوة من الاقرباء،فكثير منهن يسكن بعيدا ولابد من توفير سبل المبيت لهن مهما كان العدد.ساعدت بعض النسوة بتهيئة الفراش.تذكرت بيوتنا هناك مهما كان اتساعها،يستثقل

المرء أن يبيت مع قريبه او صديقه،فإن تأخر سيؤجر سيارة من التي تتوفر اربعة وعشرون ساعة.

أما هنا فحتى لو توفرت المواصلات من يجرؤ على الخروج ليلا!اذا كان الأشرار يتحزمون القتل والموت ينثروه نهارا جهارا،فكيف بهم بالليل؟لمحت ليلى تجلس على طرف سريرها،تتأمل النسوة النائمات على الارض،لم أستطع تبيان ملامحها في الظلام،لكني نهضت بهدوء وانسللت من فراشي وجلست بجانبها،لمست يدها وقبلتها من جبينها،تطلعت لي وكأنها تسألني "لماذا؟" دون أن تنطق بحرف.لماذا أنا هنا؟لماذا حصل الذي حصل؟ام لماذا قبلتها؟.شعرت باحراج،لا أدري ما أنا فاعلة،بل هو احساس بعجز وقلة حيلة.أريد ان أعانقها أن نبكي معا.لو كان الأمر معكوسا لعرفت ليلى ماتصنع معي وماستفعل في مثل هذه المواقف،ليت الذي حصل كان لي؟

شعرت بخوف من هذه الفكرة، قلقت على أولادي، فلم أكلمهم غير مرة واحدة.

– هل تشربين شيئا؟همست أسأل ليلى.لم تجب ولم تهز رأسها،فلم أسمع صوتها منذ وصولي بيت أهلها.

نهضت وجلبت لها كأس ماء،لم تمد يدها فسقيته لها بيدي.يا الهي هل هي عاجزة حتى عن حمل كأس الماء؟.جلست على الارض بجانب سريرها وخبأت رأسي بطرف اللحاف ورحت بنوبة بكاء لم اسيطر عليها.حين استيقظت صباحا،او ظهرا حيث كان هناك وجوه جديدة ومجاميع وصلت توا تحيط بأم ليلى يبكين. أعتذرت لآمال عن تأخري بالنوم"لا تقولي ذلك..لابد أنك لم تنمي جيدا بالأمس".كانت عيناها متورمتان ووجهها أكثر شحوبا من الامس.

- هل أقدر أن أعمل شئ؟

-افطري الان ولاتفكري بذلك،إحنا هواية ما شاء الله. قالت وهي تبتسم بصعوبة.

- الله يعينكم ويكثر الحبايب،بس أكيد كلكم تعبانين ولابد من المساعدة..بهذه الاثناء قاطعتني ابنتها.

- تليفون لك.خالة.شكرتها وأخذت السماعة حاولت أن أنزوي،في مكان خال،لكن كل الغرف والممرات والمطبخ مشغولة باعداد من النسوة والاطفال وبعض الرجال،حتى الحمام كان هناك نسوة يغسلن بعض الصغار.

- هلو نداء ما الحكاية الا تسمعيني؟.سألني ستيوارت بقلق. كنت أريد أن أعانقه من خلال صوته.

- اسمعك،كيف حالكم.طمأني كيف الاولاد.اشتقت اليكم بشكل لم أتصوره.

- كيف حال ليلى؟ سأل بحزن.

- لاأدري ما أقول أن وضعها سئ.أنا قلقة عليها،لا أعرف ما أفعل.

ثم اختنق صوتي بالبكاء.

- زوجها وصل عمان اليوم ربما يصلكم مساءا او غدا معي صادق،يريد أن يكلمها.هل هناك امكانية لذلك؟. صمتُ لحظات،ربما صادق سيجعلها تعي أن حياتها مهمة وهو بحاجة لها.فقلت له.

- دعني أتحدث معه.قلت بلهفة وتردد ما الذي سأقوله له. جائني صوته هادئا.

- حاولت أن أقنع أبي أن أسافر معه لكنه رفض بشدة،أشعر بالذنب لابد ان أكون مع ليلى الان.مرعب الخبر من اي طينة اؤلئك المجرمون؟. ثم أختنق صوته بالبكاء.

- هذه هي الدنيا،هو قدرنا للأسف،المهم انتبه لنفسك.
سآخذ التليفون لليلى،عسى أن تشجعها للحديث..

كان هناك أخوتها مع الطبيب الذي أتوا به لزيارتها،
يحاول ان يتحدث لها وهي على صمتها القاتل ذاك.

- صادق.معها الطبيب الان،حاول أن تطلبها لاحقا،
او أنا سأحاول الاتصال بكم.المهم أن تعتني بنفسك،
ستكون بخير انشاء الله.

لم أستطع أن أسمعه،ثم حاولت أن أكون هادئة وأنا
أتحدث للاولاد وأوصيهم ببعضهم.لم يكن هناك أي مكان
ممكن أن أختلي به لنفسي غير الحمام، أغلقته لعلي أبقى
هناك لأطول وقت "ياللخيبات التي لاتفارقني.حتى رغبتي
بالحديث لاولادي وأنا أصف لهم سعادتي،لأحكي لهم
مايشوقهم للمجئ هنا.

حرمت منها.فلم يخطر بذهني أننا سنواجه ذلك بالرغم
من الاحداث المرعبة التي نقرأ .عنها أو نراها على
شاشات التلفزيون.فكنت أراها بعيدة عنا مادامت في مدن
أخرى وأسماء الشهداء والضحايا لانعرفها شخصيا،تؤلمنا
وتقض مضاجعنا لكنها لاتعنينا مباشرة.حلمت بمعجزة

اننا حالما .ندخل الدار،أرض الوطن،ستكون النار بردا وسلاما على أهلها الذين تعذبوا وانتظروا الخلاص زمنا.صدقت المعجزة انها حاصلة لا محالة،كل الغيوم ستزاح،ستتهاوى كل الغربان..ليسخر مني القدر،الذي لم أتعض من مفارقاته فكم من مرة توقعت الأفضل،لأدخل بمطبات الخيبة والفشل.ها هو يتبعني،يصفعني لحرماني حتى من الاحلام.ليضيف لي خيبة أخرى للخزين الذي صار لايعد ولا يحصى.كنت متلهفة للمجئ،لرؤية الشوارع التي حرمت منها،التي تمنيت أن أسيرها يوما وبقيت جميلة وهي معلقة بالذاكرة.نسيت أن هذا العالم لاعلاقة له بالأماني ولا التمني.حلمت أن أسير معها في الأسواق كما اعتدنا أن نفعل هناك،بعد ذهاب الأولاد للمدرسة أناديها لنخرج معا،لم ترفض طلبي يوما أو تتردد،نقطع شارع اوكسفورد سيرا بالرغم من عدم حبها له لازدحامه بالباصات والناس من كل الأجناس،تتطلع لهم من بعيد وتبتسم."لو طلبنا من هذه الجموع حمل بعض اللافتات ليشكلوا تضاهرة حدودها هذا الشارع،لن نطلب منهم الابتعاد،هل يوافقوا باعتقادك؟..انظري إنها

اشبه بتظاهرة سلمية،تظاهرة من أجل الاستهلاك والشراء".

"ألا تبتعدي عن التفكير بالسياسة قليلا؟تمتعي بالمهرجان،ألا ترين بهم كرنفال ولكن بلا موسيقى صاخبة ولا رقص.ألا يذكرك بشارع النهر؟وإن كان أصغر وأقل صخبا".

ضحكت بشرود "تعرفي.أول شئ سنفعله إذا وصلنا سالمين،هو الذهاب لشارع النهر..مارأيك؟".

ستعودين بدونها،حتى لو عادت لن تكون هي ليلى التي عرفتيها،ليلى التي منحتك قوة واحتمالا.

ـإذن ستعودين كما كنت بلا أصدقاء وسيعود رفيقك الثقيل، الخيبة،بحواراتها الصامتة،يجرجر خطاك في دروب الغربة الموحشة..تعرفت على الكثير،تعلقت بهم يضفون شئ من النور على عتمة الأيام،لكنهم يختفون أو بعد حين،يبعدون!أقدرا هو أم صدمة الاختلاف معهم.الاّ هي، أحتملتك بأخطائك بثقلك بتقصيرك معها،كانت لك مرآة ورفيقة وصديقة من النوع الذي حلمت به كثيرا.

أخطأت مرات حين اعتقدت أنك وجدتيها مع البعض ممن تعرفت عليهم في سفينة الحياة،لتصدمي مرات ومرات "نداء أجمل مافيك..أن لك قدرة على الصبر والاحتمال،وتخطي الخيبات ونسيانها..لاستقبال الحياة بثوب متجدد دوما".حقا لم ينل مني اليأس بالرغم من قساوته،لولاها لربما تصدعت علاقتي بزوجي..فلها الفضل برفعها بعض حملي الذي كدت القيه بثقله على زوجي..

أفزعني طرق على الباب،فغسلت وجههي وشربت من ماء الحنفية وخرجت معتذرة.

- لقد أتعبناك معنا..للأسف كنا نخطط لرحلات نريكما بها بغداد وربما بعض المدن الاخرى.فاجأني أخوها كان يقف بجانبي دون أن أشعر به.جلسنا على السجاد الذي فرش في الممر.

- ليتني لم آت معها،فأنا نحس على من يحبني أو أحبه،لربما كانت بخير الآن،لربما هدأ الوضع،ولكن ما جدوى التمني الان؟.

- ماهذا الذي تقوليه؟إنه قدر الآلاف أو بالأحرى الملايين،ممن لا علاقة لك بهم..ليست هي الأولى وعسى أن تكون الأخيرة،ثم من كان يضمن سلامتها لو أتت لوحدها ربما ستقتل على أيدي قطاع الطرق ولن تتمكن من رؤية أبنها ويحرم هو من رؤياها،أو ربما تصل لتجده قتل بيد السلفيين أو المحتلين او حتى من يسمون أنفسهم مقاومين من إنتحاريين ولن تتمتع برؤياه..الحمد لله أنها رأته ولو لأيام.صمت وهو يمسح دموعه التي حاول أن يخفيها."اعتدنا على أخبار القتل والموت، وتناسينا الذين فقدناهم ولا ندري نسأل من عنهم، لنواصل الحياة..لم يخطر لنا أن إصرارنا على الحياة وحبها، إصرارنا على الأمل والتحدي سيغيض عفاريت الشر بكل أصنافها وجنسياتها لتنشر هذا الكم الهائل من الموت الحاقد العشوائي.

- آسفة لا أعرف ما أقول.. كأنه كابوس، كأنه عقاب لي لقد غضبت منها،حين لم تكلمني،لأصفع تلك الصفعة المدوية.اعتذر وهو يتركني بعد أن ناداه أحد الشباب.

تمر الساعات بطيئة وثقيلة، بل أشعرها مريرة يسحب منها الحر وانقطاع الكهرباء كل مايخفف من قتامتها.

فأسرعت للمطبخ لعل هناك ما يمكن عمله،فوقفت لأغسل الصحون مع إحدى النسوة،عرفت أنها جارتهم،حكت لي عن أيام الحصار وما وصل له البعض من حرمان. حكت كيف انها في احد الأيام، لم تجد ما تطبخ لأولادها غير الماء تغليه مع قليل من الملح والزيت لتثرد به بعض الخبز!أو قلي بيضة مع قليل من البصل والمعجون لعمل مرقة "كنا نراها لذيذة".تذكرت الأيام الاولى من وصولنا للمعسكرات التي بقينا بها على الحدود الإيرانية، كانوا يوزعون علينا البصل والخبز وعلينا أن نخترع طرقا لطبخ البصل،مرة نقليه بكميات لنغمس به الخبز، أو نقطعه ونرش عليه الملح لنأكله مع الخبز.ثم صرنا نبيع بعض ما استطعنا جلبه من حلي بسيطة لندلل انفسنا بقطعة لحم أو بعض الطماطم والخيار.لم تأت أم سماح،انتظرتها بفارغ الصبر بالرغم أن بعض النسوة أزحن عني وشاح الإحراج والإحساس بالغربة، بطريقتهن بالحوارمعي والاهتمام بي.

فجأة تعالى لغط النسوة،وركض بعض الشباب للخارج ومعهم آمال،أسرعت لها فقالت بلهفة وانفعال،"لقد وصل

أبو صادق".تسارعت نبضات قلبي، ماذا يمكنني أن أفعل، هل أبكي بين يديه؟هل أصافحه فقط؟كيف سيتصرف معهم وهو يراهم لأول مرة،ويعقدون الآمال عليه لإنقاذ ابنتهم،أقرب الناس له؟.

دخل يحيط به أخوة ليلى وبعض أقربائها يعرفوه على الأهل،اتجه مباشرة صوب أم ليلى،ركع أمام سريرها وهو يقبل يدها حاولت أن تنهض فمنعها.كان كأنه يريد أن يؤجل اللحظة الحاسمة،لحظة اللقاء بحبيبته التي تكاد تنساب من كف الزمان بغفلة عنه.كان وجهه متعبا ولحيته لم يمسها لأيام،حتما منذ اليوم الاول الذي عرف به الخبر.كان معه أخوه وخال صادق أيضا،بكيت وأنا أنظر لهم وهم يبكون وكأن الفقيد ابنهم.مر مني وكأنه لم يرني "الحمد على السلامة أبو صادق" نظر لي "نداء؟" عانقني فأرتميت عليه صار يبكي،هذه أول مرة أراه باكيا.أول لقائنا بهم،كنت أتجنب الحديث المباشر معه، نظراته وشخصيته توحي بالمهابة والحرج من إستسهال الحوار معه.حتى صار يتعمد أن يأتي لمساعدتي في المطبخ حين يزورونا،فأصبحت أشعر به وكأنه الأخ

الأكبر،بالرغم أنه لم يكف من معاملتي كابنته.فأمازحه "تريد تكبر نفسك حتى نهتم بك أكثر.. ما يفيدك".

كان له الفضل بجعل ليلى تتحمل هفواتي ومطبات تعاملي معها وانزلاقاتي بتعابير لم أقصدها فتسبب جفوة بيني وبينها لكن هو كان النسمة الصافية التي تعيد الصفاء لنا،فصاروا هم أقرب الناس لي.أستغنيت عن الكل بفضلهم،بعد إن زادت خيباتي وصدمتي بالكثير.

فكنت من لهفتي لصوت الإلف: فتحت أبواب وشبابيك روحي وبيتي للكثير،لتكثر صدماتي وخيباتي بهم وعلى قدر اهتمامي وتعبي."تعالي أعرفك على السيد والسيدة عباس" جاء يوما ومعه ضيوف على غير عادته،لم يحصل أن يأتي بضيوف دون إخطاري مسبقا حتى لو دعاهم لشرب الشاي."لقد التقيت بهم صدفة،إنهما عراقيان من المهجرين،ومن نفس المدينة التي كنا فيها" قال فرحا وكأنهم أقربائه والتقاهم بعد فراق طويل.

فرحت انا وكأني حقا التقي ببعض من أهلي،كانوا طيبين وودودين لكني أستغربت أنهما لا يعرفان

العربية،بل لا يعرفا الكثير عن العراق بقدر ما يعرفان عن إيران ومدنها، بحجة طول اقامتهما هناك!

كنت سمعت عن الكثير من الايرانيين الذي لجأوا لأوربا على أنهم من المهجرين العراقيين.بل سمعت عن بعض العرب ايضا،انتموا للعراق بعد الكوارث التي تعرض لها،فقط ليتمكنوا من الحصول على إقامة في اوروبا،بالوقت الذي تخلى بعض أبنائه عنه حين تكاثرت سكاكين الحاقدين عليه.

لم يكن هذا الأمر ليؤثر على العلاقة معهم،بالرغم مافيه من خداع،لكنهم صاروا يستنكرون بعض مظاهر حياتنا "كيف زوجك يشرب الخمر،ويقول أنه مسلم؟" قالت هامسة حين طلب بعض النبيذ في المطعم الذي دعيناهم له."وهل المسلمين في ايران لا يشربون الخمر فعلا،أم أنهم يشربوها سرا فقط؟".

سألتها بعصبية،وقد شعرت بسؤالها إستفزاز وتدخل.ثم تابعت بهدوء "هو طلب النبيذ ليس للسكر بل لفتح الشهية..فالدين لم يحرم الشرب وإنما حرم السكر".بالرغم

من إرتياحه لضمور العلاقة .تلك،لكنه لم يرض عن طريقتي بالرد "أنت حدية دائما،ما كان يجب ان تستفزيهم بذلك الشكل".

تعالى البكاء فجأة حين دخل أبو صادق غرفة ليلى، لم يعبأ بوجودنا أمام الغرفة.

– ليلى..حبيبتي.أنا آسف،البقية بحياتك إنها خسارة لنا كلنا،إنه قدرنا.ليلى،عهدي بك قوية وشجاعة،صادق بحاجة لك وأنا ايضا.و.وكمال..كمال يهمه أن تبقى أمه قوية.

نهضت مفزوعة،عانقته وصرخت "لقد ضيعته" وغابت عن الوعي.

– لم تأكل شئ منذ أيام،لولا المغذي لراحت هي الاخرى. علقت احدى النساء وهي تمسح دموعها.

فطلب مني أن أجلب لها بعض الشوربة،أو حساء الدجاج.سقاه لها بيده.

تنفسنا الصعداء كلنا تقريبا،ارتحنا حين شربت ثم طلبت الماء بعد الشوربة.

- كمال خسارة لنا كلنا،لي أنا الذي ضيّعت فرصة اللقاء به و لاخوه صادق.فجأة جلست وعانقته وراحت بنوبة بكاء منحت النساء الفرصة للعويل والصراخ. فركضت أعانقها وكأني التقيها بعد فراق مخيف.

في الصباح جاء بعض من أهل علاء وسمية التي بكت ليلى حين رأتها وعانقتها .

- علاء .. كان لديه آمالا كثيرة، قتلوها كلها. همست بصوت خافت متعب.

همست ام سماح التي أتت بعدهم بلحظات "الحمد لله أنا مرتاحة الآن..أن تلك الصخرة أزيحت عن صدرها".

- لكنها مرهقة بشكل،لا تقدر حتى على البكاء.

- لا بأس لا تنسي انها كانت لا تأكل ولا تشرب.ولا تبكي.صمتت وأشعلت سيجارة "هل ستؤجلي عودتك وتذهبي معهم".

- نعم لابد أن أذهب معهم،لا يمكن أن أتركها،لقد أخبرت زوجي و شجعني على ذلك.وأنت كيف حالك، وماذا قررت؟.

- الله يصبرها،ويعطيك القوة لمساعدتها..سأبقى شهر أو إثنان إذا سارت الأمور بشكل معقول.

تحفزت كل حواسي لأرقبها حين جاءها تليفون من صادق،خاصة وأم سماح انشغلت بحوار مع سمية التي كانت تشعر وكأنها تعرفنا،ربما هي الأخرى كان لها أمل بعلاء، أن يأخذها بعيدا لعوالم بدت سحرية وخيالية لها.

"صادق.حبيبي.صارت تبكي بصمت تركت دموعها تنساب على حجرها.لابد أنه كان ينتظر بفارغ الصبر ليكلمها.

" أنا ايضا أحبك..طبعا..أنت عندي بكل الدنيا.اختنق صوتها بنحيب قمعته.

"لا تبكي ياعمري..انتبه لصحتك.أنت أملي الآن،لابد أن تتفوق، تلك هي هديتي التي أريدها منك".

لم أنتبه لأم سماح كانت تسألني، ولم أسمع سؤالها.

- عفوا.. بالي مع ليلى.

- أقترح أن تأتي معي تزوريني وتتعرفي على الأهل،يعني تغيرين جو وترتاحين.. فأنت متعبة ايضا.

– شكرا لك أكيد يسعدني أن أزورك،أنا حتى عمتي لم أتصل بها وأطمنها.لابد أن أذهب لها اليوم،وسنأتي غدا ولكن قبل مجيئنا سأمر عليك وأسلم على أهلك.

– عال..سأعطيك العنوان،وربما نأتي معا بسيارة إبن خالي الذي وصّلنا من قبل.شكرتها وأنا عيني على ليلى، خفت أن يغمى عليها فمازالت مرهقة تماما.

"..سنتحدث بذلك فيما بعد،أبدا لا تفكر بالمجئ اطلاقا اذا كنت تحبني. طبعا سآتي لزيارتك.وحتما ستأتي انت فيما بعد..الله يسلمك..اقبل عينيك ..تسلملي يا حياتي".

وضعت السماعة واحتضنت جهاز التليفون وراحت بنوبة بكاء متعب.ركضت لها مع بعض النسوة.قبلتها من رأسها ونبهت النساء لئلا يمسكوا كتفها المجروح.أخذت ابنة أخيها التلفون وأعادته لمكانه فاقترحت على النساء أن نتركها ترتاح.بعد لحظات أتتها أم سماح بشاي أعشاب مهدئة.

– خذي اشربي..

التفتت لي "لابد أن نتركها الآن،هيا معنا أوصلك لبيت عمتك..لقد أتيت بكمية من هذا الشاي وقلت لهم أن لا

يعطوها غيره،انها بحاجة للراحة".شكرتها وودعنا ليلى وباقي النساء،لم أر أبو صادق كان في صالة الضيوف التي خصصت للرجال.بالرغم من إنتهاء الفاتحة ورفع صيوان العزاء مازال بيتهم عامرا بالضيوف والاقرباء.

كانت عمتي غاضبة تماما فاعتذرت لها وأنا أحاول أن أوصل لها الحال التي كنا بها،وقد ساعدتني أم سماح بالشرح لها.

– معك حق.لكن الوضع هناك لا يسمح بأن تطلب منهم توصيلها أو عمل مكالمة..فهي خجولة،وتشعر أنهم في حال لايسمح لطلب أمر كهذا.

عانقتها وأنا أهمس لها بصوت مسموع"شفت ام سماح عرفتني خلال تلك الساعات التي التقيتها بها.وأنت ربيتني،فلابد أن تعذريني".

– معذورة يا حبيبتي،بس أنت رحت دون ان تتركي عنوان او تليفون كنا احنا كلمناك،حتى زوجك لا نعرف تليفونه،ولا ندري كيف تتفاهم معه،لنعرف أخبارك منه ..لابد أنه كلمك خلال هذه المدة.

- فعلا كلمني مرة واحدة ليطمئن على ليلى لم أستطع حتى الحديث مع الأولاد.آسفة نسيت أن أطلب منه أن يكلمكم، حقا كنت مثل الاثول..

- لا بأس عليك.كنت اريد أن اذهب معك،على الأقل نبكي ونزيح بعض من غيوم الحزن عن الروح.قالت بصوت حزين وهي تتجه للمطبخ "راح أسويلك شاي مع كليجة عملتها بالأمس.انشغلنا ولم أقدم للمرأة أم سماح منها" التفتت لي وهي تضع يدها على وجهها اسفا.

واصلت الاعتذار بعد ذهاب ام سماح واخوتها،حقا كيف لم يخطر ببالي حجم القلق الذي سببته لهم،وفي مثل تلك الحال،خاصة بعد معرفتهم ماجرى لليلى.لكن قلقي عليها وخوفي من فقدانها جعلاني لا أحسن التفكير بأي شئ اخر.لم تكن بي رغبة حتى بالحديث لستيوارت او الأولاد،بقدر ماكنت أستعجل العودة لهم،لأزيح جبل الخيبة الذي أنوء تحت ثقله "ماما،لا نريد غير الصور،آتنا بكثير من الصور،صوّري كل شئ،الناس والشوارع، بيتكم القديم،مدرستك والاثار..أهم شئ الاثار،الكاميرا تتيح تصوير اكثر من مئتي صورة".

لم افلح بتصوير أي شئ. ماعدا طريق الرحلة الخارجي،لم اصور لهم بيتنا الذي لا أعرف أين هو الان،حتى لو زرت الحرية؟.تلاشت مرابع الطفولة والصبا،أو أنها تدثرت بكم الرمال والغبار،لعلها تحمي نفسها من هجمة الحقد متعدد الجنسيات،لئلا يمح معالمها.

لابد أن اسأل ابو صادق وليلى غدا عن وقت السفر، فهي بحاجة للابتعاد الان وفي أسرع وقت لتستعيد صحتها، وهو لايقدر أن يغيب عن العمل أكثر.

هل أنت خائفة عليهم أم أنك تخافي العودة لوحدك،فلا أعتقد أني سأحتمل البقاء اكثر.

تجنبت التطلع للشوارع،بقيت أصغي لعمتي وهي تسأل ام سماح عن الحياة هناك،وعن اولادها.

– ماشاء الله..تقول ان لديها بنت متزوجة وحامل! لايبدو عليها ذلك، عيني باردة.

– شكرا لك..هذه مجاملة..أنت أيضا ما شاء الله، بالرغم من التعب،الله يعينكم عليه،تضيئين شبابا وحيوية. ضحكت من ام سماح وهي تضع يدها على كتف عمتي.

كانت فرحة ومرتاحة بعض الشئ وقد زايلها القلق الذي كان يصاحبها طوال الرحلة،ولو أن في عينيها حزنا معتقا ربما هو شئ من خيبة لاتختلف عن خيباتي.

اجابتها عمتي بصوت حزين ولكن فيه شئ من التحدي:

– ربما هو السلاح الوحيد الذي بقي لنا لنواصل الحياة ونحتمل الحصار والخوف الذي رافق الحروب، وفوقه فراق الاحبة والاصدقاء.صمتت وهي تمسح دمعة انسابت على خدها.

كان بيت أهل ليلى أقل ازدحاما بالضيوف والمعزين الذين مازالوا يتوافدون من اقرباء واصدقاء،كان بينهم اخو علاء الذي تماثل للشفاء بعض الشئ.وجهه شاحب وشفتاه يميلان للبياض.سلمت عليه وعزيته،لم يذكرني، مسكين قتلوا فرحته بلقاء أخيه.

– إستكثروا علينا اننا لم نمت بالقصف الذي لم يتوقف خلال عقود الحروب، ليقتلونا بتلك الطرق البشعة.

طمأننا أن السائق تحسنت صحته،كان قد زاره،لكنه مازال لا يقدر على السير بدون عكازة،وحركته صعبة.

تتداخل الاصوات لا تكاد تميز ما يقال غير حديث أو تعليق الذي بجانبك.وجدت عمتي الفرصة الذهبية لاطلاق دموع الحزن التي برعت بكتمانه عن اولادها بعد رحيل أبوهم،وقد فضلت الجلوس مع أم ليلى،التي صرت أراها تضاعف العمر بها وصارت وكأنها تشارف على التسعين.

رحل أغلب الضيوف بعد العشاء،الذي جعلوه مبكرا ليتمكن الزوار من العودة سالمين.

اقترحت ليلى أن أبقى قليلا،ففكرت انها فرصة لعلي أجد المناسبة لأسألها عن السفر.

– نداء.الأفضل أن تسافري بوقتك،لا داعي لتأجيل السفر وشراء بطاقة اخرى.سافري لتبقي بعض الوقت مع خالتك،وتذهبي لأولادك وتطمنينا على صادق.

تطلعت لها بذهول،أستعيد ماقالته مسكت يدها، وتطلعت لأبي صادق عفويا لأقرأ أفكاره ربما.

– لكنك بحاجة للسفر لتبعدي عن هنا،لترتاحي قليلا، ممكن أن اؤجل سفري لنعود معا.قلت بتوسل وأنا أتطلع لأخوتها وبعض الحضور لعل هناك من يؤيدني.

– ستعود طبعا بس بعد فترة،على الأقل بعد أن تقدر على السفر فصحتها الان لاتسمح،ومازال الأقرباء يأتوا لزيارتها.علق أخوها الاكبر.إخوتها الاخرين انسحبوا مع بعض الضيوف منهم اصدقاء لكمال كما عرفت من منال.

كنت اتطلع لها ولزوجها الذي كان يجلس بجانبها، صار يمسح على شعرها وهي تنظر للارض وقد صالبت يديها.

– لا داعي لبقائك أكثر لقد تعبت،على الاقل لتبقي يوم او اثنين مع خالتك ممكن أن تزيح بعض التعب،لتذهبي لاولادك بشكل معقول.أبو صادق سيذهب معك،وهناك عائلة ذاهبة للأردن سترافقكم.

– أنا لست خائفة من الذهاب وحدي ولكن لاأقدر أن أعود بدونك.

نظر لها زوجها بقلق فقد كانت متعبة من الكلام ايضا، بالرغم من محاولتها لتبدو قوية وأكثر اصرارا.

– من يومين وهي ليس لها حديث غير هذا الموضوع.اتفقت معها أن أذهب معك لأطمئن صادق

ولآخذ إجازة لمدة عام للبقاء هنا معها.. سنستأجر بيت صغير ونعيش هنا.

فوجئ الكل بهذا القرار.

- هذا قرارمستعجل،الوضع كما رأيتم سريالي بكل الخراب والفوضى التي فيه..لا بأس أن تبقوا شهر أو اثنين،ثم تعودون لحياتكم وبيتكم وإبنكم..حتى تفرجها السماوات بعدها تفكرون بزيارتنا كل حين أو تستقرون اذا كانت هناك فرصة أفضل للعمل.علق اخوها بشكل حاسم.

- جئت تشوفين إبنك.عمت عيني.إبنك راح لرحمة الله، فلاداعي للبقاء.التفت الكل بعدم رضا لإحدى النساء التي كانت تتزوي في ركن من الغرفة،عرفت انها إحدى أقربائهم،فأسكتها البعض موبخين.شعرت هي بإحراج واعتذرت وهي تنسحب للمطبخ." أسوي شاي.. أحسن".

- معها حق.قالت ليلى وهي تمسح دموعها،تطلعت لنا بعينين حمراوين متعبتين ثم وقفت لتواصل الكلام وكأن ما أرادت أن تقوله يصعب قوله جلوسا.ذهبت قرب

الشباك كما لو كانت تتطلع لكمال هناك،وقف ابو صادق بجانبها قلقا مرتبكا.

– نعم أتيت من أجله..من أجل أمي،فتسببت بأذاهما معا،بل فقدته.صمتت وتطلعت لأم سماح،وكأن هذه فهمتها،فأشعلت لهل سيجارة،لم أرها تدخن من قبل. وجدت أم سماح فرصة للتدخين بعد طول انتظار.

– لم تتسببي بأذى لاحد..لم يكمل أخوها الكلام فقد قاطعته باشارة من يدها.

– بلى..أتيت من أجلكم ايضا،بالرغم أن كل واحد منكم كان يرافقني كل العمر الذي عشته بعيدا عنكم،أو ضيعته هناك.ثم صمتت لتمسح أنفها وعينها ولتأخذ نفسا عميقا من السيجارة.ثم عادت لتجلس على طرف سريرها.لابد أن السيجارة سببت لها دوار فقد لاحظت ارتفاع تنفسها وصعوبته.

– كل السنين التي مضيتها هناك،كنت أشعر أن هناك خطأ.بلى ارتكبنا خطأ برحيلنا،هل تذكرون؟لقد هيأوا سبل السفر وسهلوا الحصول على جوازات السفر دون تدقيق،

ليخلى لهم الجو ويعبثون كما عبثوا.البعض ظن أنه يهرب من الموت،فلحقه لهناك حيث لا مفر منه،الآخر قادته أحلامه بعيدا وأعتقد أنه سيناضل من هناك سيجعل الكل يقف معنا.ليصطدم بحقيقة أن الكل لا يهمه غير مصلحته.توقفت فقدم لها أبو صادق كأس ماء وقد شعر بجفاف شفتيها.

– ذاك زمن راح..لماذا تعذبين روحك بهذه الافكار. قالت أمها بصوت واهن.

– أمي ستذهب معكم.قالت تخاطبنا أنا وزوجها.التفت أمها لها وهي تهز بيدها بسخرية من الفكرة.

– نعم يا أمي.كنت قد نويت بل قررت أن آخذك معي منذ فكرت المجئ،لكن الآن أرى أن هناك وسيلة افضل، ففي هذه الفوضى لا يمكن ان يستخرجوا لك جواز سفر، وحتى لو فعلوا ذلك،البلدان الاخرى لا تعترف به،كجزء من مواصلة حصارنا،إذن أسهل وسيلة هي أن تذهبي بجواز سفري.نحن نتشابه وفارق العمر بيننا ليس أكثر من ستة عشر عام،ستذهبين ومع التقارير الطبية،لن يدققوا كثيرا بصورتك..

قاطعها أخوها،ليكسر حدة الصمت الذي شعرته شمل الجميع حتى غرفة الضيوف التي اجتمع بها الشباب.

- ماهذا التخريف،ولم هذه المجازفة؟ غدا سأستخلص جواز سفر لأمي وتذهب معكم.يعني تريدين البقاء لتستخدم أمي وثيقتك؟

- ارجوك لا تتعبني ولا تفهمني خطأ،أمي متعبة، سنين وهي لاتعرف معنى الراحة،أريدها أن تخرج لترى العالم،أو على الأقل لتجري بعض الفحوصات الطبية ولا يوجد غير هذه الفرصة.لتتعرف على عالم طبيعي غير عالمنا اللامعقول هذا،لترى صادق،ولتراجع بعض الاطباء هناك لتسترجع صحتها.ثم تعود مع أبو صادق حين يتمم الاجراءات التي تخص عمله.أنا أقترحت عليه ان يأخذ إجازة سنوية،بدلا من الاستقالة التي اقترحها هو.

تطلعنا أنا وأم سماح لبعضنا بابتسامة قلقة غير مصدقين،شعرت بخوف وحيرة أكثر منها مفاجأة لتلك الفكرة،فواضح انها مصرة على البقاء،لدرجة أن يقترح زوجها الاستقالة ليصاحبها.إذن هي حسمت الأمر معه، وأنا أعرف ليلى لا تتراجع بقرارها.

- ما الذي ستعمليه هنا؟ وانت قلت أنه عالم لا معقول،بل غير منطقي ايضا.أخي.ابو صادق.ربما انت قادر على اقناعها أكثر،خاصة وأنت عشت بعض ماعشناه ورأيت ما لم تره هي.

نظرت لأبو صادق، لم يكن محتارا، بل كان غير راض عن رفضهم لإقتراحها لابد أنها اقنعته خلال تلك الأيام.

- انا معكم في حبكم لها وخوفكم عليها.لكنها تريد أن تشعر بالرضا،تريد أن تعمل شئ،أو على الاقل تشارككم حالة اللامعقول هذه.

- أعتقد أنها تفكر بالأخذ بثأر حبيبنا كمال.كلنا نريد ذلك،لكن ممن نأخذ الثأر من أشباح الموت وغربانها الاتية من بلاد الواق واق؟التي لاتعرف عنا شئ غير الحقد الذي ملأت به كما تملأ أكياس الأوساخ فصارت تنثر ذلك الحقد عشوائيا وبلا أدنى تفكير،تحركهم أيادي كما تحرك اللعب بالريموت كونترول.قال اخيها ثم نهض ليملأ كأسه ماء ولمحته يمسح دمعة غافلته.

نهضت هي وقبلته من جبينه ثم ابتسمت وهي تتطلع له – نعم أريد ان آخذ بثأر ابني،وعلاء وغيرهم العشرات بل المئات والالاف من الأبرياء الذين تترصدهم أشباح الموت دون غيرهم.لا أملك سلاح أواجههم به، وأعرف أنهم لا يختلفون عن الذين فرحوا برحيلنا من قبل وأعتبروه إنتصارا لهم.اليوم تلك الغربان مهما كانت اشكالها،هي تعتبر نفسها منتصرة لقتل أي طفل من أطفالنا،ولهروب أي شخص مناْ.إذن لم يبق لي غير أن أبقى واواصل الحياة،تحديا لهم وللموت الذي لا يعرفون سلاحا جباناً غيره.سينهزمون حتما لو قدرنا ان نفضح كذبهم،ونكشف حقدهم وخيانتهم.

كانت تتحدث بحماس ليلى التي عرفتها،لكن انفعالها أرهقها فعادت جلست بجانب زوجها الذي قبلته بشوق أمام الجميع،عانقته فأحتضن رأسها بشوق وانهارت بنوبة بكاء،شاركها الكل به.

–نعم سأبقى من أجل كمال،وعدته أن لا أذهب بدونه، سأبقى معه.سأبقى من أجل حسين صديقه،من أجل نمير الذي حدثني عنه.نمير من المنصور وأحب فتاة من

الشعلة،ووضع عهدا أن .لا يسألها ولا يسمح لأهلهما أن يسئلا لأي طائفة او دين ينتمي كل منهما،يكفي انهما من العراق.من اجل هؤلاء سأبقى..في تلك اللحظة دخل شابان مع أخيها الاصغر الذي اقترب منها يعانقها ثم يعرفها برفاقه.

– هذا هو نمير.سلم عليك من قبل وبقي اليوم معنا. حسين جاء منذ أيام ولم يتمكن من لقاءك.ولم يقدر المجئ اليوم مازالت المدينة مغلقة، لكنه سيأتي غدا.

تطلعت لنمير وعانقته كما لو كانت تعانق كمال وهمست بصوت مخنوق "أعتذر لك ياعمري.لم اشأ أن آخذه منكم.. سامحوني..".

ركع نمير على الارض وهو يضع رأسه على ركبتها ثم تطلع لها.

– نحن من يجب ان يعتذر،سامحينا،فأنت بالرغم من عذابات الغربة وحرماناتها اتيت بذاك الكم من الفرح والأمل والحب،لنستقبلك بأكوام من الحقد الغبي ..

– روحي فداكم.أنتم من منحني الأمل والحب،حب الناس،بل طردتم اشباح الخوف واليأس مني،وانا أرى

حجم الاصرار على الحياة،حجم التسامح الذي يعمر قلوبكم.تلك الاشباح لا علاقة لها بكم.لا تنتمي لكم ولا لهذه الارض،هم بكل اشكالهم البيضاء والسوداء بعيونهم التي تحجرت بها الحياة ووجوههم التي جف بها الحياء، يخافون نور الفرح ذاك، نور الأمل الذي في عيونكم..

صمتت وقد اختنق صوتها فقالت وهي تنشغ باكية "آسفة سامحوني..نسيت نفسي".

- بالعكس كلامك هذا أجمل ماسمعناه. قالت لها احدى الفتيات.

نهضت ام سماح وأشارت لأخيها الذي كان يقف مع بعض الشباب قرب باب الغرفة.

- آسفة لابد أن نذهب الان،أمي الان تنتظرنا على نار.ليلى،وددت ان أعبر لك عن إعجابي بشخصيتك، باسلوبك بالكلام.تمنيت أن أكون مثلك،أتمنى أن نكون صديقات،حتى لو افترقنا.عانقتها وهي تمسح دمعها.

- انا ايضا كنت أحسدك وتمنيت أن أكون مثلك. ابتسمت ليلى وهي تقبلها "إعتبرتك صديقة بعد ساعات

من انطلاق رحلتنا،بعد معرفة إسمك ربما.اعتذر عما سببته لكم من تعب.

اشرت لعمتي كان لابد لنا من الذهاب مع ام سماح ليوصلونا،كنت أتمنى أن أبقى مع ليلى لكن لم أشأ ان أغضب عمتي.

– نداء.جهزي نفسك،ستذهبون بعد غد بالطائرة لعمان،أبو صادق حجز لكم،المهم اعتني بنفسك،للأسف لم نفعل ما خططنا له.

– يعز علي أن أتركك.هكذا أنتِ تجعلين مني غير وفية بوعدي.لا بأس أن تبقي هذه الفترة،سأبقى بانتظارك.

– انتم في قلبي وبالي.ثم همست لي "أمي متعبة جدا، اريدها أن تنشغل قليلا هناك،لهذا انا أريدها أن تذهب معكم،ليس لي ثقة بغيرك،لذا لا أرى أي فرصة أخرى غير هذه.

تطلعت لها بين مقتنعة بما تقول وغير مصدقة،في عينيها تصميم جعلني أسكت وتركتها على أن نلتقي بعد يومين.

في الطريق لبيت عمتي،صمتَ لا اعرف كيف افكر، مع خوفي عليها.مر بخاطري خوفي من عودتي بدونها، ها أنا أخسر صديقة اخرى،هل خسرتها؟سنبقى على اتصال قالت،أعرف أنه لا مفر من العودة لمتاهات الغربة التي عشتها قبل التعرف عليها،متاهات الخيبة وانا افقدهم مثل غيوم صيفية تبعثرها الريح تتبخر بالفضاء بلا مطر،اصدقاء ومعارف وزملاء.ما أن اقول،الحمد لله ها هو صوت محب سيبعد عني زئير غابة الغربة الموحشة،حتى يتناءى مبتعدا لعالم اخر رافضا أي صلة بعالمي،أو تبعث له الأقدار كل الاسباب للابتعاد عني.

تلك الخواطر ضخمت صورة الخوف والغربة،فلم اقدر أن أكتم دمعي الذي صار حارقا وأنا أحاول ان أرده،ولم افلح.يا لها من انانية،لم تبتعد هي،ولا أظن الاقدار حافلة بك لتخطط لمصيبتها فقط لتبعدها عنك. فكفي عن تلك النغمة.شعرت بندم من طريقة تفكيري تلك،أحسست باختناق وضيق بالتنفس فبكيت وكأني اردت أن اتخلص من خيباتي تلك.عانقتني عمتي وصارت تبكي معي.

– نداء.. كفاك لقد تعبت، انشاء الله تتعدل الامور.
التفت أم سماح لتهدئني.

– للاسف صادفتم المشاكل ولم ترو شئ مما خططتم له..لذا أقترح أن آخذكم غدا أنت وأم سماح (نفتر) ببغداد، فهناك الكثير من الايجابيات لكنها مغطاة بهذا الكم الهائل من رمال الكوارث.. على الأقل تذهبي للاولاد ببعض الصور الجميلة. علق أخوها احمد، كان يختلف عن أخيها الاكبر، أكثر حيوية وأكثر تفاؤلا.

– اشكرك حقا.. ما الفائدة، اذا كانت حتى الكامرة لاتقدر أن تستخدمها.

– بلى جيبي كامرتك وسنصور كل ماتريه مناسبا.. أنت والخالة ستتغدون معنا غدا، وبعدها نعمل برنامج بسيط.

كان اقتراحه مفاجئا، ربما مفاجئا له ايضا، فقد لمحت أم سماح وهي تشير له، ربما هي قصدت شئ آخر. المهم كانت مبادرة جميلة حقا، وكنت بحاجة لها فعلا لذا وافقت دون تردد.

سألتني ام سماح وهي تودعني، وقد تبادلنا العناوين والتلفون لنتراسل، على أمل اللقاء غدا ولنخطط كيف أعرف منها أخبار ليلى وقد وعدتُ بمواصلة زيارتها طيلة فترة بقائها هنا.

- هل تظنين أنها فعلا ستبقى؟ ربما مازالت في فورة الغضب، فقد لاتحتمل العيش وسط الفوضى والخراب وتعود بعد بضعة شهور او ربما عام.

- اعرف اصرار ليلى،.وعندي يقين أن حتى صادق سيلحق بهم بعد اتمام الدراسة، ندعوا الله أن يحميهم ويوفقهم.. قد يأتي اليوم الذي أنتظرناه طويلا، ونأتي نحن ايضا مع اولادنا كما وعدتهم.

لم أنم ليلتها، كلما أغمضت عيني، تصفعني فكرة لتطرد ملائكة النوم، وجدتني أنسحب باتجاهين، انفعالي وشوقي للغد، ومايمكن أن أحمله لأولادي من اشياء

تخفف من عتمة الصور التي قد تنقلها عيناي لهم. ورحلة العودة بما تحتمله من مفارقات ومطبات مهولة،

"كيف لو اكتشفوا أن الأم تحمل وثيقة سفر ابنتها؟" شعرت بقلبي يغوص بعيدا، وأنا اتخيل موقفنا.

بقي صوتها مثل ناقوس في أذني "وعدته أن أبقى، سأبقى من أجله.. من أجل رفاقه واصدقائه من أجلي انا.. فكيف سيهنأ لي عيش لو رحلت.. سيعتبرونه هروبا، وذلك إنتصارا لهم، لابد من إفشال خططهم ولن يكون ذلك الا باصرارنا على البقاء.. سأبقى معه.. مع ذكراه ، هو الذي أصر على التشبث بحاضره، بكل سرياليته المخيفة.. وبالزمن بخرافته اللامنطقية.. ورفض الرحيل "

ودعت عمتي وأولادها، فاجأوني بحقيبة هدايا لي ولأولادي وحتى لزوجي. لم أفكر أن أذهب للسوق لأشتري هدايا، بل فكرت أن أفعل ذلك من عمان،

عانقتهم شاكرة، وقد رفضت بإصرار أن يرافقوني لهناك لما سمعت عن مخاطرالطريق، فلم اشأ أن أكون سببا بتعرض أحدهم لأي مكروه. ركبت بالسيارة وشعور بالاحباط رافقني كما لو أني لن أرهم بعد ذلك. لم ترضخ عمتي لانتقاد عبير وهي تحاول أن تهدئها. حاولت أن أبتسم لهم . وشعرت بحرج أن أترك أخو ليلى ينتظر أكثر. فوجئت بإبن عمتي وهو يقدم لي إناء صغير مزروع به غصن ياس.

– قلت أنك ستاخذين غصنا، هاهو يريد مرافقتك اذا كان هناك مكانا له. عانقته شاكرة، كانت حقا مفاجأة لقد نسيت كلامي لكن بقي هو يتذكره فإشترى لي تلك الشتلة.

الطريق للمطار لايشبه أي طريق آخر مررت به لأي من المطارات التي قصدتها من قبل. هذه أول مرة أراه، فقد خرجنا برا قبل أكثر من عشرون عام. كنت أتخيل الطريق محفوف بالاشجار على الجانبين.

لكنه كان محفوفا بالخوف بعيون السواق القليلين المارين من هناك، جنود الاحتلال يخفون خوفهم بالنظارات والخوذ الثقيلة، يلمحون الموت مع كل خطوة بشرية قادمة نحوهم فينشروه عشوائيا أينما حلوا.

الدبابات القليلة نثرت لونها الترابي المغبر على كل شئ هناك.

تطلعت لأبي صادق، كان هادئا، التعب باد على وجهه وعينيه. هو الاخر رفض أن يرافقه أي من أخوته أو أخوة ليلى. إبن عمها اصر مع اخوها الاكبر أن يوصلانا، لكنهما منعا في منتصف الطريق فودعانا لنواصل الرحلة بسيارات خاصة تابعة للمطار.

لن يكون هناك من يلوح لنا (مع السلامة) تراءت لي المرة الاولى التي خرجنا بها مطرودين بلا سبب! ها نحن نودع تلك التربة محملين بالخوف والقلق من طريق لانعرف ماذا يخبئ لنا. كأن الزمن يصر أن يعيد ذلك الشريط من جديد مضاف له خوف آخر مستجد وعلى أحبة نخلفهم هنا، أي قدر هذا؟ أي قسمة؟!.

أم ليلى لم تكف عن مسح دموعها بين الحين والاخر. حاولت أن أغمض عيناي لأختصر الطريق الذي بدا بلا نهاية. لم أهتز أو أنفعل لمنظر هياكل السيارات المحروقة أثر القصف أو ضربها بالصواريخ.

قليلون الذين يسافروا بالطائرة، فالطائرات محدودة وبأسعار مرتفعة بشكل لايتماشى مع سوء الخدمة ومايرافقها من خوف خرافي، لمسافة لاتزيد عن نصف ساعة لعمان.

صرت أسمع نبض قلبي، الذي كثير مايضحك مني زوجي وأنا اشكو له صمته حين أجس رسغي بمحاولة لقياس النبض.

بل شعرت وكأن قلبي قد غاص في أحشائي. حاولت ان أتمالك مشاعري لأبدو طبيعية فلا أدري ما الذي سيواجهنا، وأي نوع من الموظفين سيقابلونا. تولى السائق وأبو صادق مهمة الحقائب، التي كانت قليلة بعض الشئ. ساعدت أم ليلى التي تمشي بصعوبة. وأنا أحاول

بعيدا عنا،الطريق لهم بالباص لايزيد عن نصف ساعة أو أربعين دقيقة.

لم يزرنا هو غير بضع مرات.أذكر أنه كان ودودا ومهذبا،لكنه ساخرا فضا مع زوجي،خاصة حين يسكر، يصير عدوانيا تماما،بالرغم من كرم وإحترام ستيوارت له.عرفت منها أن سلوكه ذاك،مع الكثير حين يسكر.لذا لم أحزن على رحيله وتركه لها.ولو أني لم أعبر لها عن ذلك الا بعد تعرفها على أبو صادق.

تابعت السير لم أنتبه لاسئلة ام ليلى.شئ ما جعلني أصر على التأكد فأستاذنت منها أجسلتها على مقعد صادفته هناك،وعدت اتطلع له أوقف سيارة كالتي اتت بنا، ركب هو والسيدة والرجل الثالث "بلى أنه هو. بطوله وشعره الذي تركه مسترسلا ليعوض الصلع الذي زحف على رأسه". جفلت ليد تحط على كتفي.

– نداء.. ماذا بك؟..هل رأيت أحد تعرفيه؟.

– لا أبدا..شبهت على رجل إعتقدت أنه ابن خالتي. أسرعت بالاجابة.ماذا يمكن أن أقول،رأيت زوج ليلى السابق؟أبو كمال؟الحمد لله أن أم ليلى لم تره.لابد انها

ستنفعل لرؤياه ومن يدري كيف ستكون ردة فعله أو فعلها.

دخلنا لنكمل اجراءات السفر،وأنا أحاول أن أتصور كيف سيتلقى الاخبار التي ستستقبله؟ مسكين حقا!.

هل سيزور ليلى بعد سماع الخبر؟ هل ستستقبله؟.

هذه الأسئلة جعلتني أكثر قلقا وحزنا وأنا أفكر بليلى ولكن أقل خوفا من أسئلة شرطة المطار التي تنتظرنا.

أخرجت غصن الياس من الكيس وحملته بيدي وأنا أقبله.ارتحت للعطر المنبعث من الوريقات الصغيرة. وهدأ وحش القلق واستكان قليلا وأنا تخيل نفسي في حديقتنا وأولادي حوالي يتابعون عملية زرعي لتلك النبتة التي أتيتهم بها من البلاد التي حدثتهم عنها وباتت في مخيلتهم أجمل من كل القصص وعطرها يشبه عطر الياسمين.تطلعت لي أم ليلى بأبتسامة حزينة "انشاء الله يوصل سالما"."اكيد،سأبقى أحمله هكذا حتى نصل لأزرعه هناك" أجبتها وأنا اسندها بيدي الاخرى، نسير خلف أبو صادق الذي راح يسأل بعض الموظفين.

٢٠٠٧-١-٣١